

الدكتور حسين بن عبد الله العَمري



يَمانيّات

في التاريخ والثقافة والسياسة

(I)



بسم الله الرحمن الرحيم

يَمانيّات

في

التاريخ والثقافة والسياسة

(I)

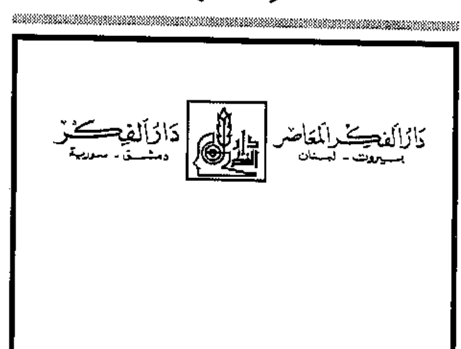
الدكتور حسين بن عبد الله العمري

يَمانيّات

في

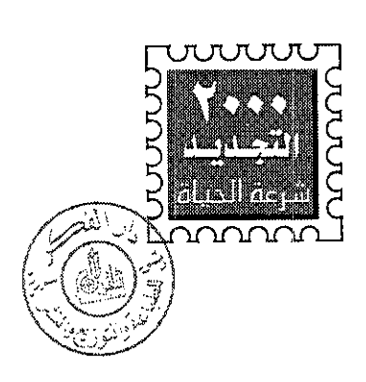
التاريخ والثقافة والسياسة

(I)



الرقم الاصطلاحي : ١٠٥٧,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-744-0
الرقم الموضوعي: ٩٨٠
الموضوع: دراسات تاريخية
العنوان: يمانيات
في التاريخ والثقافة والسياسة (I)
التأليف: أ. د. حسين عبد الله العمري
التنفيذ الطباعي: مطبعة سيكو - بيروت
عدد الصفحات: ٢٦٤ ص
قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com



الطبعة الأولى

1416 هـ = 1996م

بين يدي يمانيات

هذه أبحاث ومقالات وأوراق محققة موثقة كتبتها في السنوات القليلة المنصرمة، بعضها نشر في دوريات(*). والبعض الآخر ننشره ههنا للمرة الأولى.

ويجمع بينها على تعددها أنها تبحث في مواضيع تدورُ حول محور واحد هو اليمن، ودوائرها تتماهى في الحضارة والثقافة العربية الإسلامية تاريخاً وفكراً، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

ورغم خصوصية كل قطر عربي وثراء تاريخه، لابد من التأكيد غير المحتاج إلى بيان أن ذلك ليس إلاّ كألوان الطيف في حزمة الشعاع الواحد.

وعمدت إلى تصنيف هذه الأبحاث والمقالات زمراً تضم كل منها ماتجانست موضوعاته، وسميت الزمرة فصلاً، فجاءت في أربعة فصول:

- الفصل الأول: في السياسة والرأي.
- الفصل الثاني: في التُّراثِ والتّارِيخِ والآثار.
- الفصل الثالث: في الثَّقافَةِ والتّعليم.
- الفصل الرابع: أَعلامٌ يمنيُّونَ وأَصْدِقاءُ لليَمن.

(*) في الحواشي مظان وتاريخ مانشر منها.

فعسى أن تضيء هذه المجموعة الأولى من سلسلة (اليمانيات) بعض البقع المعتمة من تاريخنا وثقافته؛ وأدعو الله العليم أن يكون ماصنعته مساهمةً متواضعة نافعةً للناس ودعوة مجددة للنهوض، ونحن على نهاية القرن العشرين. مزودين بكل أسباب النهضة والله من وراء القصد.

لندن ١/ ١/ ١٩٩٦م

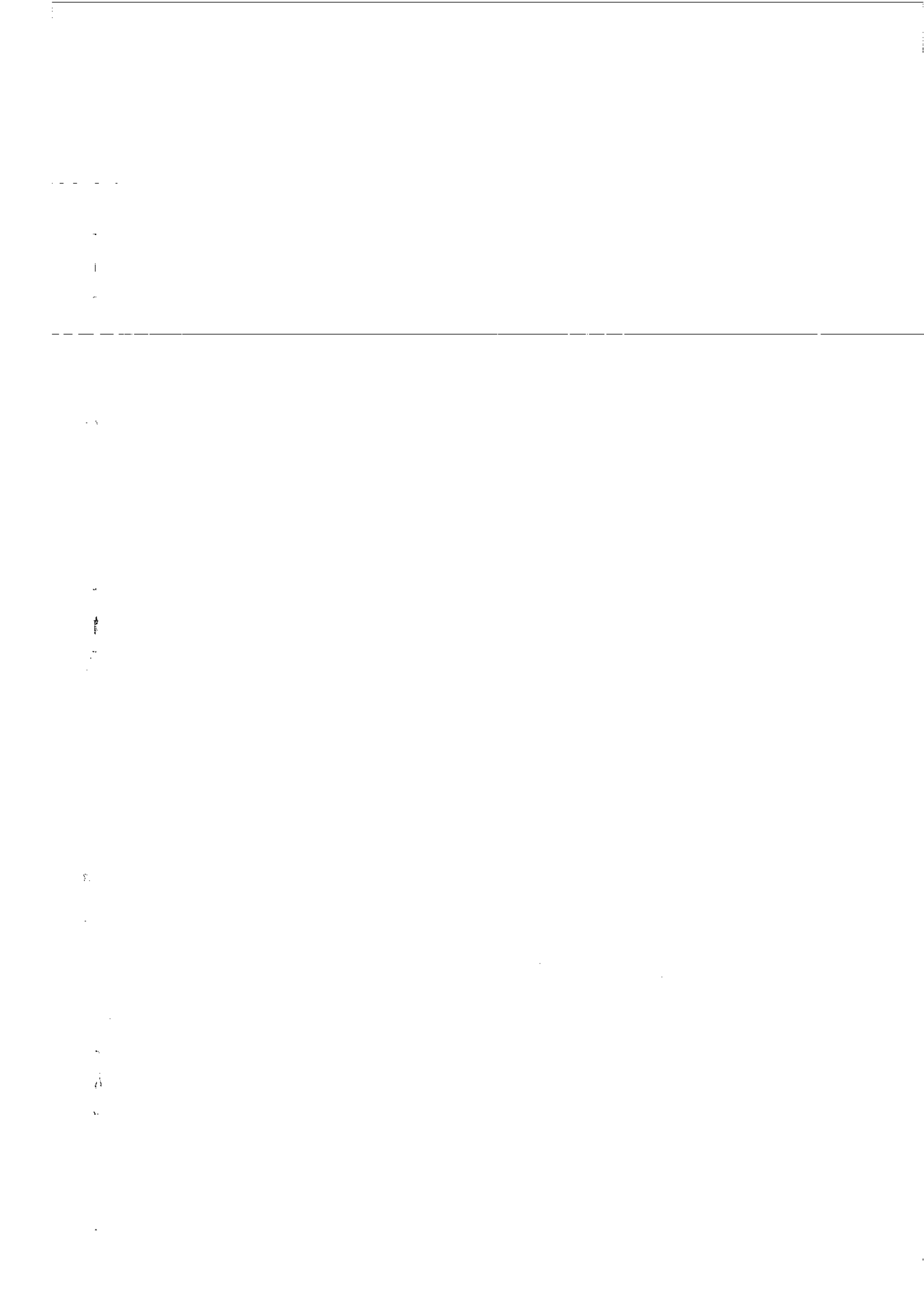
الموافق: ١٠/٨/١٤٠٦هـ

أ.د. حسين عبد الله العمري

الفصلُ الأوّل

في

السِّياسةِ والرّأي



حركة التجديد والإصلاح في اليمن في العصر الحديث

التنوير وعصر النهضة العربية:

معروف أن مصطلح (التنوير) أو عصر الأنوار(The Enligtenment Ages)هو مصطلح غربي قصد به تلك الفترة المزدهرة التي تبلورت فيها أفكار وكتابات كبار مفكري فرنسا في القرن الثامن عشر، والتي بشرت بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م بشعاراتها الثلاثة المشهورة(الحرية، والإخاء، والمساواة) والتي عبرت عن فلسفة العصر الداعية إلى القضاء على النظم الأرستقراطية والحكومات الأوتوقراطية وتأسيس الدولة العلمانية وذلك بفصل الدّولة والسِّياسة عن الكنيسة، وهَيْمنة رجال الدِّين، إلى غير ذلك مما مَثَّلَ نَقْلَةً في الفِكْرِ والتّشريع والعُلوم والفُنون والآدابِ، وأظهر لأوّل مَرَّة دور الجماهير والشُّعوب في دُول قَوميّة حَديثة تسابقت فيما بينها لبناء إمبراطوريات(كُولونيّة) عالمية اتجهت بضراوة إلى تَوسيع سيطرتها واحتلال بلدان عالم الشّرق القَديم واستغلال خيراته.

وكان المشْرِقُ والمَغْرب العربيّ من بين تلك الشّعوب التي نُكِبت بالتقدّم المادي والعلمي الأوروبّي فلم يمضِ عقد على ثورة(الحرية والإخاء والمساواة) حتى كانت سفن الأسطول الفرنسي تَمخُر عُبَاب البَحر الأبيض المتوسّط ليحقق نابليون بونابرت أوهامه الأمبراطوريَّة باحتلال مصر في صيف عام ١٧٩٨م وباتت شعارات الثورة الثلاثة: مدفعية، مشاة، فرسان، في ظلّ البونابارتية وما تلاها، كما عبر عن ذلك كارْل مارْكس

أحد شاغلي فِكْرِ أُوروبة في القرن التاسع عشر في كتابه (بؤسِ الفلْسَفة) . وبغض النظر عن نتائج تلك الحملة الفرنسية التي استمرت ثلاث سنوات والتي يميل البعض إلى عدها بداية النهضة العربية الحديثة[1] ، فإنها كانت في الواقع أيضا بداية اهتمام الإمبراطورية البريطانية بمصر والمشرق العربي ، ذلك الاهتمام الذي زادت أحداث القرن التاسع عشر مخاضه ؛ فكان احتلال عَدَن عام ١٨٣٩م ، فاحتلال مصر عام ١٨٨٢م .

إن التنوير بالمفهوم الأوروبي لا علاقة له بحركة التجديد التي سنقصر الحديث عنها على اليمن ؛ كما أن هذه الحركة لا صلة لها بالنهضة العربية الحديثة ، وذلك أنها توقفت في اليمن أو تجمدت حيث انطلقت تلك . ومع ذلك فلا بد من القول : إن أصول التجديد - فيما ليس له علاقة بالغرب - واحدة ، تلك هي الثقافة العربية الإسلامية التي بلغت أوج ازدهارها حين كان الغرب مايزال سادراً في ظُلمات ماعرف في التاريخ الأوروبي بالقرون الوسطى . وحين انطلقت أوروبة في بداية عصر النهضة منذ القرن الرابع عشر للميلاد بعودها إلى إحياء تراثها الإغريقي واللاتيني مستفيدة كذلك كل الاستفادة مِنْ نِتاجِ العربِ العلمي والحَضَاري ، كان العربُ والمسلمون قد دخلوا في مرحلة مؤلمة من الظلم والظلام عبَّر عنها شاهد العصر وفلتته الاستثنائية العلامة الكبير ابن خلدون(ت٨٠٤هـ/ ١٤٠٦م) بقوله :

«وكأني بالمشرق قد نزل به مانزل بالمغرب ،لكن على نسبته ومقدار عمرانه ، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة»[2] .

وإن مما له دلالته في هذا الصدد أن سقوط(غرناطة) آخر معقل للعرب المسلمين في

---

(١) انظر على سبيل المثال : ألبرت حوراني(الفكر العربي في عصر النهضة : ١٧٩٨-١٩٣٦م)دار النهار للنشر ؛ بيروت ١٩٧٧م .

(٢)مقدمة ابن خلدون : ١/ ٤٠٦ .

الأندلس كان في عام ١٤٩٢م هو نفس العام الذي تم فيه اكتشاف أمريكا، وشكل ذلك النصر المسيحي تمهيداً لعصر الفتح والاستعمار فيما بعد[١] .

وأخيراً وقبل الدخول في صلب موضوعنا عن حركة (التجديد والإصلاح في اليمن في العصر الحديث) يحسن الإشارة إلى توجه الدراسات الحديثة في البحث إلى «أنه لا يكفي أن نعرف ماذا حدث بعد بداية كل نهضة، بل لا بد من أن نسبر أولاً جذور ما حدث قبلها لنفسر طبيعة توجُّهاتها المستقبلية »[٢] ولعل هذا ما ينبغي عمله في البحوث والدراسات عن النهضة العربية الحديثة، وهو ما نرجو أن نلمح إليه في الحديث عن حركة التجديد والإصلاح في اليمن .

لقد عَدَّ بعض مؤرخي الفكر والنهضة العربية الإسلامية الحديثة حملة نابليون بونابارت على مصرعام ١٧٩٨م هي نقطة البداية أو التحول الثقافي والعلمي في المشرق العربي، في حين عزا آخرون الأسباب إلى مرحلة النهضة والتحديث التي تمت على يد محمد علي باشا في مصر وبلاد الشام(١٨٠٥-١٨٤٨م)، وسواءكانت هذه أو تلك، أو حتى ما سبق ذلك من إصلاحات عثمانية في الولايات العربية، فلقد كانت اليمن والجزيرة العربية بمنأى عن كل ذلك، وعن نتائجه القَبليّة واللاحقة . بيد أن حركة إصلاحٍ وتيار تجديدٍ واجتهاد قد نمت في اليمن عبر قرنين من الاستقلال عن الحكم العثماني لمواجهة الجمود والخُرافات والتعصب المذهبي بعد رفض مقولة : (إقفال باب

---

(١) هـ. أ. ل . فشر : تاريخ أوروبا (العصور الوسطى) الترجمة العربية / دار المعارف بمصر : (١٩٦٦م) : ٢/ ٣٨٨ .

(٢) انظر : محمد جابر الأنصاري (قراءة جديدة في تاريخ الجبرتي معالم الخلفية الاجتماعية - التاريخية لحركة النهضة العربية) بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الإنسانية/ الكويت (عدد٣١، مجلد ٨، صيف ١٩٨٨)ص: ٩و٣٣ .

الاجتهاد) التي سادت العالم العربي والإسلامي بضعة قرون، فخيم الجهل وعم اجترار الماضي وانتشر التصوف والفكر الخرافي - غير الديني - وكثر التوسل بالأولياء والقبور، وبالتالي انحطت اللغة وذوت الآداب، ولم يبق للفكر والتراث العربي الإسلامي إلاَّ ذكراه.

وفي إطار علوم الدين والفقه واللغة والآداب برزت مدرسة الاجتهاد اليمنية ومسَّت جوانب أخرى من الإصلاح والتجديد، وبلغت ذروتها ونهايتها بآخر أعلامها العلامة ابن الأمير (ت١١٨٢هـ/ ١٧٦٩م) وشيخ الإسلام الشوكاني(ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥م) اللذين عاصرا حركة إصلاحية أخرى عَمّت شمال الجزيرة وأطرافها حتى العراق، تلك هي حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي (ت١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م) التي دعت إلى العودة إلى منابع السلف الصالح، والقضاء على ماكان قد انتشر من محافل صوفية وقبورية ليست من الإسلام في شيء. **وإذا كانت الحركة الوهابية التي اتسمت بالتعصب قد واجهتها جيوش محمد علي باشا وقضت على دولتها السعودية الأولى، فقد قدِّر لاجتهادات ومؤلفات المدرسة اليمنية أن تنتشر في العالمين العربي والإسلامي وأن يتلقفها زعماء الإصلاح من تلاميذ الأفغاني والكواكبي والشيخ محمد عبده مع مطلع القرن العشرين ومع تبلور أفكار النهضة والتجديد.**

* * *

الإطار التاريخي :

في البداية لابد لنا من أمرين :

الأول : تحديد الفترة الزمنية كإطار تاريخي للموضوع .

والآخر : توضيح المقصود بمفهوم التجديد والإصلاح .

أما الفترة الزمنية فبدايتها ما تعارف عليه المؤرخون من اتخاذ عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م بداية للعصر الحديث حين أوقع السلطان العثماني سليم الأول بالمماليك هزيمة نكراء في مرج دابق شمال حلب، ودخلت جيوشه في صيف ذلك العام بلاد الشام؛ وفي ربيع العام التالي عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) وصلت إلى مصر، وهُرع شريف مكة إلى القاهرة مقدِّماً ولاء الحجاز والأراضي المقدسة، كما أعلن قائد الحملة المملوكية التي كانت قد وصلت لتوها إلى اليمن، بدوره في جامع صنعاء، خضوع المماليك في اليمن للسيادة العثمانية[1] وإن كانت السيطرة العثمانية على اليمن لم تتم إلا في عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م بعد سيطرتهم على العراق، وأنضَوَى المشرق العربي كله في ظل الحكم العثماني .

بيد أن الوجود العثماني لم يقرَّ له في اليمن قرار، إذ واجه مقاومة شعبية مستمرة ركب موجاتها أئمة الزيدية في شمال البلاد، وانتهى النضال اليمني بالانسحاب العثماني عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م .

وهكذا نعمت اليمن بالاستقلال والاستقرار النسبي زهاء قرنين . ومن دون حاجة للدخول في تفاصيل طبيعة الحكم الجديد المتمثل في أسرة آل القاسم بن محمد (ت١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م) مؤسس هذا البيت، فإنه يمكن القول : إنه بعد حكم الأئمة الأقوياء الأوائل ممن استثمر نتائج الثورة على الوجود العثماني وتَحقَّق في عهدهم حكم

(١) د. سيد سالم مصطفى : الفتح العثماني ص: ٩٥ .

اليمن الطبيعية مركزياًمن حدود الحجاز شمالاً إلى حدود عمان جنوباً، كما حدث في ظل حكم المتوكل على الله إسماعيل(١٠٥٤ - ١٠٨٧هـ/ ١٦٤٤- ١٦٧٦م) الإمام الثالث من هذا البيت؛ نجد أن الطموحات والصراع بين المتنافسين على الحكم من آل القاسم قد دفع بهم بعد أقل من أربعين عاماً على وفاة المتوكل إسماعيل، إما إلى الاقتتال حتى يتنازل طرف لطرف آخر، وإما إلى استسلام الضعيف للقوي، أو يتوزعون المناطق والمصالح مع من قد يعترفون آخر الأمر بسلطته الاسمية وما يترك له، كما حدث على سبيل المثال بعد عام ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م مع المنصور حسين الشهاري الذي لم يبق في حوزته إلاّ مخلاف شهارة وكحلان والسُّودة والشرفين، بعد أن اتفق مع منافسيه من أبناء عمومته الآخرين على ما يلي[١] :

- لقاسم بن حسين(عدن، والمخا، ولحج، وصنعاء، واللُّحيَّة، والزيديَّة، وأبو عَرِيشْ).

- ولصاحبِ المواهب (محمد بن أحمد) (بلاد خبان، وَرِيمَة، وبيت الفقيه).

- ولمحمد بن إسحاق وإخوته(بلاد وصَاب، وتَعز، والعُدَين).

- وإلى محمد بن حسين بن عبد القادر (بلاد كوكبان) .

لقد كان من النادر، بعد ذلك، ظهور إمام يستطيع أن يسيطر على زمام الأمور وأن يحكم كل مناطق اليمن مركزيّاً من عاصمته صنعاء، كما حدث للمهدي عباس الإمام العاشر من هذا البيت وآخر الأئمة ذوي السطوة[٢] . فقد تسلم الحكم بعد أن كان الصراع والخلاف بين والده الإمام الحسين بن القاسم وأخيه أحمد بن القاسم أمير تعز قد بلغ درجة من العِداء عبّر عنه وعن معاناة الشعب لنتائجه قول الشاعر :

(١) زبارة : نشر العرف ٢/ ٦١٦؛ وانظر بحثنا عن المؤرخين اليمنيين في العصر الحديث: ٥٤-٥٥.

(٢) انظر كتابنا : مئة عام من تاريخ اليمن (ط٢) : ١٩-٤٣.

أَخَوانِ قَـــــــدْ سُقِـيَا بِماءٍ واحِـدٍ والـفَضْلُ خَالٍ مِـنْ كِلا الأَخَوَيْـــنِ

جَرَحَـــا صُدُورَ العَالَـمينَ فَمَالهـــا مِـــنْ مَـــرْهَـــمٍ إلاَّ «دَمُ الأَخَوَيْنِ»!

وما كان في وسع المهدي عباس أن يُصلح ما فسد بين أبيه وعمِّه لولا تلك الجهود الخيِّرة والمساعي الحميدة التي بذلها العلامة المجتهد والمصلح الكبير محمد بن إسماعيل الأمير [1]؛ وعندما كان يظهر إمام على شاكلته فقد كان ذلك يعني في الغالب، أن مؤسساً جديداً من بيت القاسم قد حقق بمن يرثه من أبنائه من بعده ما ذهب إليه ابن خلدون في نظريته من مراحل عمر الدولة في أجيالها الثلاثة؛ حيث تؤول آخر الأمر إلى السقوط [2]، وقد كان ذلك حتمياً في آخر سلسلة من الجيل الثالث لأبناء المهدي عباس؛ حيث تشعَّثَت الأمور، واضطرب حبل الأمن، وكثر الأئمة الصغار. فكان ذلك إرهاصاً بسقوط حكم بيت القاسم، وعودة العثمانيين الأتراك إلى السواحل اليمنية عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م، ثم استيلائهم بعد عقدين من الزمن على صنعاء، بعد أن كانت سلطتها على عدن قد زالت قبيل ذلك، وتمكن الإنجليز من احتلال عدن عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٩م.

تلك هي الأوضاع السياسية العامة وإطارها الزمني الممتد بين مجيء العثمانيين الأتراك وخروجهم للمرة الأولى حتى عودتهم إلى السيطرة ثانية في منتصف القرن التاسع عشر.

---

(١) لقد قام شيخ الإسلام الشوكاني بنفس الدور آخر أيام حكم المنصور علي بن المهدي عباس، مع ابنه المتوكل أحمد(راجع تفاصيل ذلك في: مئة عام: ١٤٧)

(٢) خلف المهدي عباس ابنه المنصور علي، فابن هذا المتوكل أحمد وأخيراً المهدي عبد الله بن المتوكل أحمد(ت١٢٥١هـ/ ١٨٣٤م) وبوفاته كانت فترة ربع قرن من الفوضى، وظهور عدد من الأئمة الصغار، أرهصت بعودة العثمانيين الأتراك.

إن هذه الفترة الممتدة نحو قرن من الوجود العثماني، وما يزيد عن قرنين من الاستقلال، لا تَعْنِي أنَّها هيَ وحدَها الفترةُ التي تمَّ خلالها التجديد والإصلاح، بل التي نحصر الحديث عنها أو عن أمثلة منها من بعد فترة الانسحاب، واستقلال البلاد بالحكم في ظل آل القاسم . أمّا جذورها في الواقع فترجع إلى عهد أقدم بكثير تبلورت ملامحه بالتلاقح الفكري بين (الزيدية) و(المعتزلة) من ناحية، ثم ذلك الانفتاح والتتلمذ والتبادل منذ القرن التاسع الهجري(الخامس عشر الميلادي) بين علماء المذهبين الكبيرين في اليمن - أعني الزيدية والشافعية - وبين غيرهما من مذاهب السنة من ناحية أخرى .

وهنا تحسن الإشارة إلى أن الحكم العثماني - في تلك الفترة - لم يكن له أي«تأثير ملموس على الحياة الفكرية والعقلية في الأقطار العربية الخاضعة له (ومنها اليمن)، ذلك أن طبيعة الإدارة العثمانية لم يدخل في مضمونها سوى جمع الضرائب، والدفاع عن البلاد وإقرار الأمن في الداخل»[1] .

ولقد استفاد آل القاسم من بعض التنظيمات الإدارية والمالية التي أخذوها عن العثمانيين؛ ومن ذلك فرض بعض الضرائب التي لم تكن معروفة في اليمن من قبل، والتي كانت مجال نقد آخر للمصلحين خاصة في الفترة المتأخرة، حين كانت تشح موارد دخل الدولة بتقلص نفوذها على الموانىء التهامية، حيث كان ميناء المخاء يشكل أحد مصادرها الهامة، إن لم يكن أعظمها، والناتج من ازدهار ورواج تصدير تجارة البن اليمني ذي المكانة والشهرة عالميّاً[2] .

* * *

(١) د. أحمد طربين : التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث(دمشق ١٩٧٠م)ص:٨ .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذا الازدهار المرتبط بنشاط الشركات التجارية الأوروبية التي أسست لها في المخا وكالات من أوروبة لشراء البن ومقدار الدخل والضرائب(انظر) : اليمن في مطلع القرن التاسع عشر في (اليمن والغرب) لإريك ماكرو تعريب الكاتب، وراجع : مئة عام من تاريخ اليمن للكاتب(ص : ٨١).

التجديد والإصلاح

إذا كان مفهوم(التجديد) - أيِّ تجديد - يعني رفض ما يكون قد جَمد، فتكرر اجتراره، أو تقرر تقليداً وجموداً، دونما أمر سماوي أو قانون علمي، ولهذا فلعل مماله دلالته الأثر النبوي الشريف القائل « إنّ اللهَ يبعث لهذه الأمّة على رأسِ كلِّ مئة سنة مَنْ يُجدِّد لها دينَها» رواه أبو داود عن أبي هريرة وأخرجه الطبراني والحاكم[1] .

أمّا الإصلاح الذي هو ضد الإفساد، فيعني التقويم لمنهج أو سياسات أو سلوك كان خارجاً على جادة الدين القويم الذي هو الحق والعدل والخير والتقدم . ولهذا فقد عرّف الصّلاح في تراثنا بأنه «سلوك طريق الهدى، أو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل» وبأن الرجل أو الحاكم الصالح هو«القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد»[2] أو بمعنى آخر كما هو عند المعتزلة، فالصلاح مشتق من مبدإ (العدل) ولم يكن العلماء والمصلحون العرب يختلفون على كل ذلك إلاّ بقدر الاختلاف في الاجتهاد، لكن حين خيّم الجمود على الفكر العربي الإسلامي، بعد أن كان قد انحصر في العلوم النقلية، دون العقلية، وأبطل الاجتهاد، أو أقفل بابه، لم يعد هناك في مختلف أقطارِ المُسْلِمين لا تجديدٌ ولا إصلاحٌ لعُصور طويلة. إن المقولة التي أشاعها مقلّدو المذاهب الكبرى القائلة « إن باب الاجتهاد قد أقفل »[3] من بعد القرن الهجري السادس تقريباً كانت نذير شؤم ليس على الفقه وعلوم الشريعة، بل جرّت ذيولَها على مختلف أوجه النشاط والحياة الفكرية والعلمية والأدبية والسياسية العربية والإسلامية . إننا - وقد أطللنا في

(١) أبو داود: (كتاب الملاحم): ٤٢٩١؛ الحاكم (المستدرك): ٤ / ٥٢٢ .

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي ٣/ ١١٦-١١٧ .

(٣) انظر الشوكاني : القول المفيد : ١٤-١٦، البدر الطالع : ١/ ٢-٣، قطر الولي : ٣٢٧-٣٢٨، وراجع أبوزهرة (تاريخ المذاهب): ١١١-١٢١ .

كل هذا التمهيد - في حاجة لإيضاح أسباب تلك المقولة. فهي أحد المرتكزات أو المنطلقات التي تَوفَّرَ على دحضها علماء اليمن المجددون باجتهاداتهم وأفكارهم الإصلاحية التي تميَّزوا بها عن غيرهم من معاصريهم عربٍ ومسلمين، وعاد إليها روّادُ المدرسةِ الإصلاحيّة العربية والإسلامية في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن.

لقد تأمل في هذا الأمر، وأشار إلى أسبابه، المفكر العلامة ابن خلدون، حينما ذكر أن التقليد في الأمصار قد وقف عند أئمة المذاهب الأربعة، وسدَّ الناس باب الخلاف وطرقه.

ووقَفَ التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودَرَسَ المقلدون من سواهم، وسدّ الناسُ باب الخِلاف وطُرُقَه، لما كثُر تشعّب الاصطلاحات في العلوم، ولـمَّا عاق عن الوُصول إلى رُتبة الاجتهاد. ولماخُشِيَ من إسناد ذلك إلى غير أهله، ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه، فصرَّحوا بالعَجز والإعواز وردُّوا الناسَ إلى تقليد هؤلاء، كل بمن اختصَّ به من المقلّدين، وَحظَّروا أن يتَداوَلَ تقليدُهم لما فيه من التلاعب. ولم يبق إلا نقلُ مذاهبهم، وعملَ كلٌّ مقلّد بمذهب من قَلّده منهم، بعد تصحيح الأصول واتصال سَنَدِها بالرّواية، لا محصولَ اليوم للفقْه غير هذا. ومدّعي الاجتهاد لهذا العهد مردودٌ(منكوص) على عقبه مهجورٌ تقليدُه. وقد صار أهلُ الإسلام اليومَ على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة»[1].

وبهذا شخّص ابنُ خلدون المأزِق الذي وقع فيه مقلدو مذاهب السُّنَّة، وهي قاعدة لها مع ذلك استثناءاتها، كما أنها لا تنطبق على «علماء الزيدية ومجتهديها، ولا على مجتهدى الشّيعة الذين يعدُّون أنفسَهم الناطِقين باسم الإمام المختفي[2] أو المستور، ويعتقدون بعصْمَةِ الأئمة وغيرذلك مما لا يتفق معهم فيه الزيدية وأهلُ السنة».

(١) ابن خلدون(المقدمة)ط باريس: ٣/ ٣؛ ط٣(د. وافي): ٣/ ١٠٥٠.

(٢) راجع: أبو زهرة(تاريخ المذاهب): ٢/ ١١٥؛ د. صبحي(الزيدية): ٥٣٧-٦٧٧.

وكيفما كان الأمر في فهم العلماء والـمُتَمَذْهِبِين، أو المَقَلدين من أهل السّنة - وهم الأغلب - لمفهوم الاجتهاد وضرورة استمراره، أو إيصاد بابه، فقد برزَ أفذاذ مجتهدون في أقصى دار الإسلام كعَلاّمتي قُرطُبَة الفقيه الكبير ابن حَزْم (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) صاحِب المذهَب الظاهري، والفيلسوف الفقيه المعلّم الثاني ابن رُشد (ت٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)[1]. ومن تحت مَظلّة المذهب الحَنبلي في المشرِق خرجَتْ اجتهادات وفتاوى صدرت عن شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، وتلميذه العلاّمة الفقيه ابن قيّم الجَوزية (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) الذي هَدَمَ فكرة التَّقليد من أساسها، وهاجم من قال بإغلاق باب الاجتهاد، ذاهباً إلى أن الإجماع قدْ أقر «**بإخراج المتعصّب بالهَوى والمقلّد الأعمى عن زمرة العلَماء، وسقوطهما..**».

ويستطرد موضحاً موقف أمثال هؤلاء:

«.. ولمّا عَمّتْ بها البليّة، وعظُمت بسببها الرَّزية، بحيث لا يعرفُ أكثرُ الناس سواها، ولا يعدّون العلم إلاّ إياها، فطالبُ الحقّ من مَظَانِّه لدَيهم مفْتُون، ومؤثره على ما سواه عندَهم مَغْبُون، نَصَبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحَبَائل، وبَغَوْا له الغَوائل، ورَمَوْه عن قَوْسِ الجهل والبَغي والعِنَاد، وقالوا لإخوانهم: «إنّا نخافُ أن يُبَدِّلَ دينكم أو أن يظْهَرَ في الأرض الفساد، فحقيقٌ بمن لنَفسه عنده قَدْر ألا يلتفت إلى هؤلاء، ولا يَرْضَى لها بما لديهم، وإذا رُفع له عَلَم السنة النّبَوية شمّرَ إليه، ولم يَحْبِسْ نَفْسَه عليهم..»[2].

(١) معروف ماعاناه ابن رشد من حبس ونفي من قرطبة كما حدث لسلفة ابن حزم، ورغم إحراق كتبه فقد بقيت متداولة بعدعصره نحو قرنين، وعاد بعضها للحياة في العصر الحديث بعد اهتمام أوروبة في عصر النهضة بترجمتها من اللاتينية بل والعبرية إلى اللغات الحديثة، ومن ثم نشر بعضها محققة بالعربية في القرنين ١٨ و١٩ من قبل بعض المستشرقين قبل اهتمام مفكري العرب ومجدديهم في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن.

(٢) إعلام الموقعين: ١/ ٧-٨.

وهكذا أصبح نهجُ المقلّدين والمتعصّبين من مقصري العلماء والمتفقهين، هو ما ندعوه اليوم بالإرهاب الفكري ضد حريّة الفكر والاجتهاد، رافعين شعار(إغلاق باب الاجتهاد) مُفْتين في حق مجتَهدٍ كبير وإمام عظيم كابن تيمية أنَّ « من اعتقدَ عقيدة ابنِ تيميَّة حَلَّ دَمُه وماله! خصوصاً الحنابلة فَنُودِيَ بدمشقَ بذلك وقرئ المرْسوم»[1] وقد سُجِن وامْتُحن غيرَ مرّة في الشام ومصرَ حتى مات في مَحْبسه بقلْعَةِ دمشقَ . وكان ذلك حالَ تلميذِه ابن قيم الجوزية الذي اعْتُقل مع شيخه«وأُهين وطيف به على جَمَل مضروبٍ بالدِّرَّة، فلمّا مات ابنُ تيمية أُفرج عنه وامْتحن محنةً أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية! . . . »[2] كلُّ ذلك لأنه خرج عن رِبقة التقليد إلى الاجتهاد، وكان«متقيِّداً بالأدلة الصَّحيحة، مُعجباً بالعمل بها، غير معوِّل على الرآي، صادعاًبالحق لايحابي فيه أحداً. . »[3] .

لقد ذكرَ الإمامُ الشوكاني بعدَ أن نقل مختلف آراء المؤرخين عن ابن تيمية قوله، إنّه «لايعلم بعد ابن حزم مثلَه، وماأظنه سَمحَ الزمانُ ما بين عَصْر الرجُلين بمن شابههما أو يقاربهما، ولم يكن وهو حنبلي المذهب يتقيد بذلك فإنه«لايذكرُ مسألةً إلاّ ويذكرُ فيها مذاهب الأئمة، وقد خَالفَ الأئمة الأربعة في عدّة مسائل، صَنّف فيها واحتجّ لها بالكتاب والسنة . . »[4] كما يقول الشوكاني نقلاً عن معاصره المؤرخ الحجة الحافظِ شَمْسِ الدين الذّهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) .

وقد كان ذلك شأنَ ابن قَيّم الجوزية، ومُعَوَّله « في الغالب، وقد يميلُ نادراً إلى مذهَبِه الذي نشأ عليه، ولكنّه لا يتجاسرُ على الدَّفع في وُجوه الأدلَّة بالمحاملِ الباردة كما

(١) الشوكاني: البدر الطالع ١/ ٦٣-٧٢، وانظر ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ١٤٤ .
(٢) البدر الطالع: ٢/ ١٤٣-١٤٦ .
(٣) البدر الطالع: ١/ ٧٢ .
(٤) البدر الطالع: ٣/ ١٤٥

يفعله غيره من الـمُـتـمَذْهِـبين، بل لا بدّله من مستندٍ في ذلك، وغـالب أبحاثه الإنصاف والميل مع الدّليل حيثُ مال . . »[1] .

إن مـااقتبسناه من ابن خلدون منَ تشْخيصٍ لواقع حال الفِقه وأُصوله، وانحصـارِ ذلك في التـقليد بعـد نحو نصف قـرن عـلى وفـاة ابن قيـم الجوزية ، هو تقـرير للأوضاع السابقة والتَّالية لعصره، في مخـتلفِ مناحي الحياة الفكرية والثقافية، بل والسياسية والاجتـماعيـة، التي كـان ابن خلدون نفسُه ظاهرة استثنائية مـدهشة، خرج من ركـام ظلماتها مبتكراً بمقدمته علماً جديداً، واصفاً - فيما نحن بصدده -«وصفاً دقيقاً وشاملاً لحـال العلم وأهله في عـصـره، وقـدم لنا صـورة حـيـة يكشف فـيـهـا عن وقـوف الفكر الإسلامي وجـموده واقتصاره على اجترار ما قَـرَّرَ السلف في ميدان العلوم الدينية، وانصرافه عن العُـلوم العَقْلية . . »[2] .

لقـد استحكمتْ دوائر التقليد، وعـقمت المذاهب في التجديد، ولم يعد يظهر بين عصر وآخر إلا نوادرُ من طبقات الحفـاظ، قصـرت اجتهاداتها على شروح المذهب، وما سبق من أمهـات الحديث، وطبقـات رجاله، كالعلامة الهَيْثَمي (ت٨٠٧هـ/ ١٥٦٧م) مُعاصرِ ابنِ خلدون في مصر، وتلميذِهِ الحافظ المؤرخ ابنِ حَجَر (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) وكذلك أمثال العلامة السيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) وبعض معاصريه، وآخر تلاميذ نهاية القرن التاسع التالي لعصر ابن خلدون، ومع بداية العقد الثاني من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر للميلاد، جاءت جيوش العثمانيين الأتراك ليقضي سليم الأول على حكم المماليك ويضم بعـد مـعركـة مرج دابق(رجب٩٢٣هـ/ يوليـو ١٥١٦م) بلاد

(١) البدر الطالع: ٣/ ١٤٥ .

(٢) الجابري (د. محمد عابد) : العصبيَّة والدولة ص٣٨ .

الشام ومصر والجزيرة إلى حكم (آل عثمان)ودخل الوطن العربي كله في مرحلة طويلة من الظلم والظلام .

إن التقليد لم يقتصر -كما أشرنا- على المسائل المذهبية والعلوم الشرعية، بل كان تعطيلاً للعقل ولأي تجديد في مختلف مناحي الحياة، وقد قال المؤرخ العلامة ابن الجوزي (ت٥٧١هـ/ ١١٧٥م): « وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتدبر والتأمل»[(١)] .

صحيح أن مصطلح(الاجتهاد) قد تطور ليقتصر على معنى « بذل وسع الفقيه للتوصل إلى معرفة الحكم الشرعي» وما شاكل هذا التعريف في كتب الأصول[(٢)] لكنه مأخوذ في الأصل من معناه اللغوي « أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة»[(٣)] وهذا يعني أن المجتهد كان لابد له من الأهلية العلمية العالية المحيطة بمختلف علوم وفنون الثقافة العربية الإسلامية، الموصلة إلى فهم علم أصول الفقه، ليتمكن من استنباط الأحكام، فمن دون أدوات الاجتهاد لا يكون الفقيه مجتهداً، لقد كان القبول بالتقليد المذهبي وعدم الاجتهاد يعني فيما يعني إبطالاً لدور العقل كما ذكر ابن الجوزي، وإهمالاً للعلوم العقلية وعلوم لغة القرآن وآدابها . ولكن الأخطر من ذلك هو تطور الأمر، لتنحصر المذهبيّة في تَقْليدٍ جَامِدٍ وتَعَصُّبٍ بَالِغ، كان له نتائجُه الوَخِيمةُ في تاريخ العَرَبِ والمُسلمين، وكانَ لعُلماءِ اليَمَنِ المُجَدِّدين دورٌ اجْتِهاديٌّ وإصلاحِيٌّ آخَرُ في هذا السبيل، رغْمَ مالاقَوْهُ من عَنَتٍ ومالاقَوْا من جَرّائِهِ من مِحَنٍ .

---

(١) ابن الجوزي : تلبيس إبليس : ٨٠ .

(٢) انظر : فخر الدين الرازي(المحصول) : ٣/ ٧ ؛ الغزالي : المستصفى من علم الأصول : ٢/ ١٠١ ، الشوكاني : إرشاد الفحول : ٢٢٠ .

(٣) راجع مادة(جهد) في(لسان العرب) و(القاموس) .

وشيءٌ آخر في هذا الإيضاح، لما ترتب على مقولة إبطال الاجتهاد، أو إقفال بابه، كان قد تنبه إليه بنظرة ثاقبة، وفي وقت مبكر العالم المؤرخ الأديب ابن قُتَيْبة (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) حينما لاحظ تَزَمُّت وجُمُودَ نقّاد عصره في إجلالهم وتَعَصّبهم لشعراء العَرَبِ القدماء، وانتصاره للمحدثين من متأخري الشُّعراء في القرن الثالث - وذلك قبل عصر المتنبي - حين كتب ناقداً في (الشعر والشعراء)[1] « ولم يَقْصُر الله العِلْمَ والشِّعرَ والبَلاغةَ على زَمنٍ دُون زَمن ولا خَصَّ به قوماً دُون قوم، بل جعلَ ذلكَ مشتَركاً، مَقْسوماً بين عباده في كل دَهْرٍ، وجَعَلَ كُلَّ قديم حديثاً في عصره . . » . وفي هذا يكمن مايثار اليوم من مفهوم الأصَالَة والمعَاصَرة . لقد استخدم أحد المجددين في المدرسة اليمنية هذا المنطق نفسه في إطَارٍ أعمّ حين رَدّ على ما شاع من « اختصاص سلف هذه الأمّة بإحراز فَضِيْلة السَّبْق في العُلوم دون خَلَفِها، حتى اشتهر عن جَماعة من أهل المذاهب الأربعة تَعذّر وجُود مُجْتَهد بعد المائة السادسة - كما نُقِلَ عن البعض - أو بعد المائة السابعة كما زَعَمَه آخرون . وكانت هذه المقالة بمكان من الجَهالة لا يخفى على من لديه أدنى حظ من علم، وأنزرُ نصيبٍ من عِرْفان، وأحقرُ حِصَّةٍ من فَهْم، لأنها قَصْرٌ للتفضُّلِ الإلَهي، والفَيض الربَّاني على بعض العباد دون البعض، وعلى أهل عَصْرٍ دُون عَصْر، وأبناء دَهْرٍ دُون دَهْر، بُرهان ولا قُرآن » ويضيف أن « هذه المقالة المخذولة تعني وتستلزم خلو هذه الأعْصُر المتأخرة من قائم بحُجَج الله ومُتَرجم عن كتابه وسُنَّةِ رَسُوله، ومُبيّن لما شَرَعَه لعباده، وذلك ضياع الشّرْيعة وذَهَابُ الدِّين بلا شك . . »[2] .

إننا ندخل بهذا النص المقتبس عن الإمام الشوكاني إلى الحديث عن بعض أعلام المدرسة اليمنية، ذاكرين باختصار أهم القضايا التي ناقشوها، فكانت محلّ اجتهادٍ وإصلاحٍ أو تَجْديد .

* * *

(١) ابن قُتَيبة : الشعر والشعراء(ط. دار الثقافة - بيروت١٩٦٤، ص: ١٠-١١)؛ ط. دار صادر : ص٥ .

(٢) الشوكاني : البدر الطالع : ١/ ٢-٣ .

حركة التجديد والإصلاح في اليمن :

لا حاجة لنا وقد حدَّدنا العَصْر أن نرجع إلى مرحلة أقدم للحديث عن جذور حركة التجديد في اليمن ؛ خاصة وقد عني بها حديثاً بعض الباحثين عَرباً ويمنيين[1].

ومع ذلك فإنه يصبح من العسير أن يذكر التجديد وأعلام اليمن المجتهدون وأن لا يذكر عَلَمٌ كبير من أوائل الممهدين للتيار الجديد المنفتح على مختلف المذاهب الإسلامية، أو على أهل السنة، كما أسماه الأستاذ الدكتور صبحي في دراسته القيمة عن الزيدية[2] والداعي إلى الاجْتِهَاد ومَنْع التّقليد وقَمْعِ التّعَصُّب الأعْمَى أيّاً كانَ اسمُه أو شكْلُه، ونُصرةِ الحَق والعَدْل، عَمَلاً بالأمرِ بالمعْروف، والنَّهي عن المنْكَر . ذلك هو العلاَّمةُ المجتهدُ المُطلَق المحَدِّثُ الحُجَّةُ ، الأصُوليُّ، المتكَلم، النّحوِي الشّاعِر ، محمدُ بنُ إبراهيمَ الوَزير(ت٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)صاحِبُ (إيثار الحَقِّ على الخَلْق)، الذي وجَّهَهُ إلى مَنْ جمعَ خِصالاً ، أهمّها (الإخلاص والفهم والإنصاف)، وكذلك - وهو أقلُّها وجُوداً في عَصْره - كما يقول: « الحرصُ على مَعْرفةِ الحقّ من أقْوَالِ المُخْتَلفين»[3] . لقد كان صاحب (العواصم والقواصم) ومختصره(الروض الباسم)، وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة - التي لازال جلها مخطوطاً-خير مثال لعدد آخر«يجاوز الوصف»كما يذكر الإمام الشوكاني في ترجمته المطولة له، التي نستفيد منها جانباً لما اتصف به الأعْلاَم المجدِّدون. فهم: [4] «ممن يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة، ويعتمدون

---

(١) انظر على سبيل المثال : دراسة الدكتور أحمد صبحي(الزيدية)، الإسكندرية١٩٧٩ ؛ أيمن فؤاد سيد(تاريخ المذاهب الفكرية في اليمن)، القاهرة ١٩٨٨ ؛ العَمري: (الإمام الشوكاني رائد عصره) دار الفكر المعاصر، بيروت ١٩٩٠م.

(٢) د. صبحي ص: ٥٣٦.

(٣) ابن الوزير : إيثار الحق على الخلق (في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد) ، ص: ٢٤.

(٤) البدر الطالع : ٢/ ٨١- ٩٣.

على ماصح في الأمهات الحديثية، وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام، ولا يرفعون إلى التقليد رأساً. لا يشوبون دينهم بشيءٍ من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيءٍ منها.. مع كثرة اشتغالهم بالعلوم، التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحوٍ وصَرفٍ وبَيانٍ، وأصولٍ ولغة، وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية.. إلى غير ذلك مما لا يوجد في غيرهم إلا نادراً..».

بيد أن العلامة ابن الوزير يتميز عن معاصريه في أنه بلغ درجة من العلم والاجتهاد - كما يصفه شيخ الإسلام الشوكاني بعد قرابة أربعة قرون - بأنه «يزاحم أئمة المذاهب الأربعة، فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم، ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتبرين، مع إحاطتِه بحفْظِ غالبِ المتُون، ومعرفةِ رجالِ الأسَانيد شَخْصاً وحَالاً وزَماناً ومكاناً، وتَبحُّرِه في جَميعِ العُلومِ العَقْلّية والنّقْلّية على حَدٍّ يَقْصُرُ عنه الوَصْف..»[1].

لقد كَثُرَ العلماءُ المجتهدونَ بعدَ العلاّمةِ ابنِ الوَزير - مع تباينٍ في دَرَجاتِهم وتَنوّعٌ إنْتاجهم -كما كَثُرَ الأدباءُ والشّعراءُ والمؤرّخون في عَدَدٍ من المدن ومراكز العلم و(هِجَر) التّدريس في اليَمَن. وكانَ العُلماءُ متأدبين، كما كانَ الأدباءُ كذلك يَتفقّهون، أو يَسْلكون سُبل العُلماء.

وإذا كانت شُهرة كبار الأعلام الفقهيّة والاجتهاديّة قد طغت على مكانتهم الأدبية والشِّعرية، كما هو حال ابن الوزير والجلال وابن الأمير والشوكاني، فقد اشتهر عدد آخرُ بوصفهم أدباء وشعراء من طبقة عالية، قد لا نجد لهم مثيلاً بين معاصريهم من العرب. كما ازدهرَ في العَصْرِ فنٌّ (الشّعر الحُمَيْني) البديع، وجَمعَ بَعضُ الشّعراءِ

---

(١) البدر الطالع: ٢/ ٩٠.

الكبارِ بينَه وبينَ قولِ الشّعر الحكميّ، أو العَرَبي الكلاسيكي، وأجادُوا كثيراً في الفَنّين. وقـد وجدَ بعضُ المصْلحينَ في الشّعـرِ بنوعَيْه وسـيلةً ناجحـةً لنشْرِ آرائهـم وأفكارهـم. ولاشك في أن كلّ ذلك يرجع إلى ازدهار مـدرسـة الاجتـهـاد وأثرها الواسع في أجيـال متلاحقة من تلاميذها وشيوخها المبرزين في علوم العربية وآدابها.

إن الموضـوع يطول بنا، لو أردنا الاستشهاد والمقـارنة للتدليل على ذلك أو بعضـه، وربما تغني الإحالة -لمن رغب التوسع- إلى كتب التراجم اليمنية الكثيرة التي ازدهرت كذلك ضـمن مـدرسة كتابة التاريخ بشكل عام وتميز أعـلامـهـا، أمثـال المؤرخين العلمـاء والأدباء: أحـمـد ابن أبي الرجـال(ت١٠٩٣هـ/ ١٦٨١م)، ويحـيى بن الحسين(ت بعـد ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م)، وعَبْدِ الله بن عـليّ الـوزير (ت١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م)، والحُوثي (ت١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م)، وجَحَّـاف (ت١٢٤٣هـ/ ١٨٣٨م)، والشَّوْكـاني (ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م)، وآخـرين غيـرِهـم تميّزوا بالحِسِّ التَّاريخي، والنَّقْـد المُتّصِف بالإنصاف (الموضوعية).

بالإضـافة إلى ظاهرة هامـة، هي الخروج عن الدائرة القطرية في كتـابة التـاريخ، للاهتـمـام بتـسـجـيل ومـتـابعـة مـا يدور من أحـداث في الوطن العـربي والعـالم الإسلامي، كأخبار الحركة الوهابية، والحملة الفرنسية على مصر، أو الترجمة لرجاله من الأعـلام المعـاصـرين، ممن كـان لهم صلة وتواصل علمي وأدبي بهم، وهي صلة كـانت مستمرة، تجاوزت لقاءآت مواسم الحج وقوافل التجارة(على أهميتها)، ليصل إلى اليمن علماء وأدباء من مصر والشام والعراق والمغرب، بل والهند، وسفر يمنيين إلى هناك. كل ذلك بغرض التتلمذ ونقل المؤلفات اليمنية، وهذا مما يفسر الأثر المعروف للمدرسة اليمنية على الحركـة الإسـلامية التجـديدية ، الهند في القرن الماضـي، وطبـاعة بعض الكتب فيها، قبل طبعها في

ومما يلفت النظر[1]، أن ذلك التيار الأدبي أو(الديواني) المعتمد على الزخرف اللفظي والمحسنات البديعيّة، الذي كان سائداً في المشرق العربي، فيما عرف بعصر الانحطاط، لم يكن له من أنصار إلا عدد محدود كان يظهر وسرعان مايختفي، وبالتالي لم يؤثر في أسلوب كتابة أعلام مدرسة التجديد في مختلف حقول التأليف والتصنيف بشكل عام، وكتابة التاريخ منها على وجه الخصوص .

* * *

مميزات مشتركة :

لقد تميز أعلام هذا التيار جميعهم بما أشرنا إليه، من رفض لفكرة التقليد والتعصب المذهبي، والعمل بالاجتهاد. وقد قادهم ذلك إلى العودة إلى الأصول، وإلى التزود بمعارف الثقافة العربية الإسلامية الواسعة في شتى حقولها، بالإضافة إلى تلقف كل ما يصل من جديد من خارج اليمن- إن كان هناك جديد-فجاءت إسهاماتهم امتداداً وتجديداً. **ومن ذلك أن مؤلفاتهم الفقهية والأصولية،لم تكن مجرد حواشٍ، أو شروح على الشروح في المذهب، كما هو حال معاصريهم في الأزهر، أو بلاد الشام،وحتى بعض فقهاء اليمن المعاصرين لهم، ممن تجمد وتعصب بجهالة . بل كانت مؤلفاتهم في هذا الباب اجتهادات انتقادية، لا تخضع لأي قوالب مذهبية غير قابلة للنقاش** . وأبرز مثال على هذا سلسلة الحواشي المصنفة على متن كتاب(الأزهار)، للعلامة المجتهد الإمام أحمد بن يحيى المرتضى، المعاصر للعلامة ابن الوزير المتوفى معه في نفس العام(٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م). فقد اتخذ الجامدون من الهادوية كتاب (الأزهار) مرجعاً لا

---

(١) راجع بحثنا : المؤرخون اليمنيون في العصر الحديث : ٦٥ .

يخرجون عنه، مع أن صاحبه في الأساس عالم مجتهد، لايقول بالتقليد، وكان قد وضع كتابه في ظروف صعبة، حين كان في السجن . ولقد تصدى لهذا الاتجاه عدد من المجتهدين، من أبرزهم العلامة المحقق الشاعر **الحسن بن أحمد الجلال** (ت١٠٨٤هـ/ ١٦٧٣م)، فوضع سفره الانتقادي الواسع(ضوء النهار) على كتاب (الأزهار) في أربع مجلدات . لقد كان الجلال مجتهداً كبيراً كما كان مفكراً، وشاعراًمحلقاً طويل النفس، وكان كغيره من نفس هذا التيار لا يخشى في قول الحق لومة لائم، لهذا وجدناه يقارع أشهر أئمة العصر المتوكل على الله إسماعيل، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، ومن ذلك رسالته(برآءة الذمة في نصيحة الأئمة) التي أرسلها إليه حينما بلغه أن قوات جيش المتوكل عاثت فساداً حين دخولها في بعض المناطق الجنوبية[١] .

وبعد الجلال، وضع العلامة المجتهد **صالح بن مهدي المقبلي** (ت١١٠٨هـ/ ١٧٣٨م) كتابه(المنار)، فيما اختاره من خلافات وانتقادات على شرح صاحب(الأزهار) المعروف بـ (البحر الزخار). ومن بين كتب المقبلي الكثيرة، كان اعتناء الشيخ محمد رشيد رضا بطبع كتابه المشهور(العلم الشامخ)، وذيله(الأرواح النوافخ)، فصدر عن(المنار) أوائل العقد الثالث من هذا القرن[٢]. وقد وجد العلامة، **المجتهد**، و**المصلح الكبير محمد بن إسماعيل الأمير** (ت١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م) - صاحب المؤلفات الفقهية والحديثية المشهورة، في عمل الجلال الهام(ضوء النهار) - مصنفاً جليلاً يتفق مع كثير من آرائه، ويختلف مع بعضها. فكان له ترجيحات أخرى على(الأزهار)، وعلى(ضوء النهار)، فوضع حاشيته الرصينة(منحة الغفار على ضوء النهار). وقد طبعت حديثاً مع(ضوء النهار) في أربع مجلدات ضخمة صادرة عن مجلس القضاء الأعلى(١٩٨٦م).

---

(١) انظر : مئة عام من تاريخ اليمن : ١٨ .

(٢) راجع كتابنا(المنار واليمن : ١٨٩٨- ١٩٣٤)؛ ط. دار الفكر، دمشق ١٩٨٧م .

أما شيخ الإسلام الإمام محمد بن علي الشوكاني(ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥م)، الذي ورث مدرسة ابن الأمير، وآخر السلسلة الذهبية لأولئك الكبار، وكان لفكره وشخصيته أثر كبير في عصره، فقد كان من بين مؤلفاته الموسوعية الكثيرة، فيما نحن بصدده، كتابه الكبير(السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار)، وهو آخر الأعمال الاجتهادية الفقهية الانتقادية على كتاب (الأزهار).

وقد ذكر الشوكاني أن دافعه لتأليف كتابه اعتماد الطلبة على كتاب (الأزهار)؛ وكذلك الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، مع وقوع الاختلاف بين العلماء والمحققين من المجتهدين، فأحب أن يكون«حكماً بينه وبينهم، ثم بينهم أنفسهم عند اختلافهم في ذات بينهم. . »[1] وقد فعل ولاقى من جراء ذلك حملة ظالمة من المتعصبين والمتمذهبين، يطول الحديث عنها[2]. لكن الشوكاني لم يكن طيلة حياته هياباً في كل ما يقوله أو يكتبه، كما أنّ تلك الحملة لم تكن الأولى والأخيرة. ومع ذلك فقد فرغ من كتابه هذا وكتابه الأصولي الباهر(إرشاد الفحول) في عام ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م، حين كان قد بلغ من المكانة العلمية والنفوذ السياسي مالم يبلغه أحد في عصره. ولقد أشار حديثاً إلى مكانة الشوكاني هذه في نظرة ثاقبة الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح في بحثه عن(المثقف والسلطة- النموذج اليمني)[3] «وكيف استطاع شعاع الثقافة الصادرة عن شخص الأديب العالم، أن يذيب قسوة السلطة الوحشية المتجسدة في شخص الإمام الطاغية، وأن يجعل من مشاركته في الحكم وسيلة لاجتثاث رواسب التعصب والانغلاق، ومحاولة الاستفادة من الاقتراب من الحاكم بتوجيه خطاه إلى العدل وقمع الجاهلين والمتعصبين وأصحاب المصالح الذاتية».

(١) مقدمة السيل الجرار: ١/ ٣.

(٢) راجع تفاصيل الموضوع بكل جوانبه كتابنا(الإمام الشوكاني رائد عصره، دراسة في فقهه وفكره) وصدر عن دار الفكر المعاصر، بيروت عام ١٩٩٠م.

(٣) نشر البحث في (مجلة دراسات يمنية) عدد (٣٦) ربيع ١٩٨٩: (ص١٤٣ - ١٤٤).

لقد اتفق ممثلو هذا التيار التجديدي في مسائل كثيرة، فيما ناقشوا به كتاب (الأزهار)، واختلفوا كذلك في مسائل اجتهادية خلافية أخرى، وهذا طبيعي لمن كان في درجتهم من الاجتهاد في كلا الحالين .

ولابدّ في هذه العجالة، من أن نضرب مثلين لذلك الاتفاق، في قضيتين هامتين أحسب أن لهما علاقة من بعض الوجوه بقضايا عصرنا، كما كان لهما علاقة بذلك العصر، وهما نموذج لما ندعوه بالتجديد والإصلاح .

أمّا الأولى: فهي الموقف المبدئي الواضح، المعتمد على الدليل وسماحة الإسلام، مِمَّا كان شائعاً بتكفير بعض الفرق الإسلامية بعضاً فيما عرف (بكفر التأويل) أو(فسق التأويل)، وكان إجماعهم بأنه«لاكفر تأويل، ولافسق تأويل، ولا يدل على ذلك دليل»[1] وذلك في كل موضع ورد فيه ذكر(التأويل) في متن (الأزهار) كتعريفه -على سبيل المثال -(للدار الإسلام) بقوله: إنها «ماظهرت فيها الشهادتان والصلاة، ولم تظهر فيها خصله كفرية، ولو تأويلاً، إلاّ بجوار[أي بذمة وأمان] وإلاّ [فهي] داركفر»[2] . وقد رأى الشوكاني كمن سبقه أن الاعتبار « بظهور الكلمة » فإن كانت الأوامر والنواهي في الدار لأهل الإسلام حيث لا يستطيع من فيها من الكفار أن يتظاهر بكفر إلاّ لكونه مأذوناً له بذلك من أهل الإسلام فهذه« دار إسلام ولا يضرّ ظهور الخصال الكفرية فيها، لأنها لم تظهر بقوة الكفار ولا بصولتهم» .

أما القول: «ولو تأويلاً» فالشوكاني يبسط رأيه من جديد، بأن هذا«باطل من القول وخطل من الرأي، فإن هذه المسائل التي اختلف فيها أهل الإسلام، وكفّر بعضهم بعضاً تعصباً وجرأة على الدين للأهوية، لو كان ظهورها في الدار مقتضياً لكونها دار الكفر

(١) السيل الجرار : ١/ ١٧ ؛ ضوء النهار : ١/ ٥٩ .

(٢) في(شرح الازهار) لابن مفتاح : ٤/ ٥٧١ شرح لكفر التأويل بالقول بالجبر والتشبيه ونحو ذلك .

لكانت الديار الإسلامية بأسرها ديار كفر! فإنها لا تخلو مدينة من المدائن ولا قرية من القرى من ذاهب إلى ماتذهب إليه (الأشعرية) أو(المعتزلة) أو(الماتريدية). . والحق إنه لا كفر تأويل أصلاً»(١) وهكذا يرى الإمام الشوكاني أن كفر التأويل شر ينبغي استئصاله من المجتمعات الإسلامية. وهو ما ذهب إليه أولئك العلماء المجتهدون .

أما المثل الآخر: فنأخذه من اجتهاداتهم لفريضة الجهاد وحصرهم ذلك في مواجهة أي محاولة لاستئصال الكفار لأي قطر من أقطار المسلمين، ونقاشهم الدقيق للمصادر المالية للجهاد، إذ لا يظلم الناس بمصادرة أموالهم بدعاوى الاستعانة بها فيما قد لا يكون جهاداً في سبيل الله أو الوطن. ومن(السيل الجرار) نقتبس النص الواضح والجريء الآتي الذي لا يحتاج إلى شرح أو بيان بعد نقاش طويل له في الموضوع :

« . . إن هذه الاستعانة المقيدة بهذه القيود المشروطة باستئصال قطر من أقطار المسلمين، هي غير ما يفعله الملوك في زمانك من أخذ أموال الرعايا، زاعمين أن ذلك معونة لجهاد مؤلَّف قد منعوه ماهو مؤلف به في بيت مال المسلمين، أو جهاد مَنْ أَبَـى من الرعايا أن يسلِّم ما يطلبونه منه من الظلم البحت الذي لم يوجبه الشرع، أو جهاد من يعارضهم في الإمامة، وينازعهم في الزعامة، فاعرف هذا، فإن هذه المسألة قد صارت ذريعة لعلماء السوء يفتون بها من قَرّبهم من الملوك، وأعطاهم نصيبهم من الحُطَام. . »(٢).

لقد سبقت الإشارة إلى مدى التواصل والتتلمذ بين مدرسة التجديد هذه ذات الأصول الزيدية الاعتزالية، والمنفتحة على مذاهب أهل السنة، وبين مختلف المدارس الأخرى، وأهمها مدرسة علماء زبيد. وكمثال على ذلك أن واحداً من تلاميذ كثيرين

---

(١) الشوكاني : السيل الجرار ٤/ ٥٧٥- ٥٧٦ .

(٢) السيل الجرار : ٤/ ٥٢٠ .

للإمام الشوكاني من هذه المدرسة، هو المؤرخ الأديب الفقيه الحسن بن أحمد عاكش الضمدي التهامي (ت١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م)، قد حاول التقريب في الخلاف بين الإمام الشوكاني ومعترضي كتابه، بوصف أن الاختلاف «في المسائل العلمية الظنية يسير» وأنها مجال للاجتهاد وإعادة النظر، فقام بوضع مختصر سَمَّاه (نُزْهة الأبصار من السيل الجرار)[1].

ومن ناحية أخرى فإن مدرسة زبيد أخرجت عدداً من العلماء والمجتهدين، لعلّ من أشهرهم معاصر الشوكاني، صاحب (تاج العروس)، المشهور بإضافاته الجديدة، وبوصفه مصنف آخر وأكبر معجم تراثي في العربية[2] ذلك هو العالم الفقيه اللغوي محمد مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م) الذي «جسَّد نمطاً آخر من أنماط رفض التفكير البدعيّ السائد، حين عاد إلى كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي وشرحه شرحاً ردّ إلى الحياة « أحوال الصالحين » الأوائل الذين يُوَرّث الاقتداء بهم « أحد أسباب الفوز »، وجعل من « مجاهدة النفس في أعمال الطاعات والانكفاف عن المخالفات إلى الأمور المطلوبة ذاتها » سبيلاً لتحويل « النفس الأمارة بالسو» إلى نفس «رابحة لا خاسرة» فكان بذلك أكبر رواد النزعة الأخلاقية التجديدية في الإسلام الحديث، وهي نزعة، تقصد إلى إصلاح الأمة من داخل ذوات أبنائها، وتشدد على أهمية (المثال السلفي) في كل مشروع ينشد نفع الأمة وفوزها، مما سيصبح علامة فارقة في أعمال المجددين السلفيين، الذين نشطوا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، من أمثال الشيخ الأستاذ محمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا في المشرق، والشيخ عبد الحميد باديس ومدرسته في المغرب»[3].

* * *

(١) زبارة: نيل الوطر٢/ ٢٩٩.

(٢) أحمد الشرقاوي إقبال، معجم المعاجم ص: ٢٣٥؛ وراجع مادة (تاج العروس) في الموسوعة اليمنية للكاتب.

(٣) الدكتور فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي(بيروت) ١٩٧٩ / ص:١٠٨.

خاتمة

وأخيراً لقد حوت دواوين شعر العصر كله مادةً خصبة للدارسات الأدبية المقارنة، وكذلك مادة واسعة وغنية في وصف ونقد الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وقد قلنا: إن الشعر كان وسيلة واسعة الانتشار- ربما كوسائل الإعلام اليوم- من وسائل التعبير عن الآراء الانتقادية والإصلاحية المختلفة للمجددين اليمنيين، وفي مراجعة ديواني ابن الأمير والشوكاني - كمثال - يجد الباحث الكثير من ذلك.

لقد ناضل الشوكاني كابن الأمير من قبله، بل وجاهد كثيراً بفكره وقلمه، لإزالة أعباء ضريبية ثقيلة عن كاهل المواطنين، كان يرى فيها- فيما يرى تفسيراً لقبول بعض المناطق- فرصة للخروج عن سلطان الإمام في صنعاء، لمن يعده بإلغائها. وعندما حقق مسعاه كان مما قاله متفائلاً عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م:

ذَهَبَ الظُّلمُ والهَرَجْ ... ودَنَا النَّصْرُ والفَرَجْ

خَفَقَتْ رايةُ الهُدى ... طُوِيَتْ رايَةَ العِوَجْ

أقْبلَ العَدْلُ مُسْرِعاً ... أدْبَرَ الجَوْرُ والحَرَجْ

دَخَلَ العِزُّ أرْضَنا ... وأرَى الذُّلَّ قد خَرج

أبْشِري يا رُبا أزا ... لَ بما يُثْلِجُ المُهَجْ[1]

* * *

(١) (ديوانه: ١١٥) وضعها بعد أن صدر المرسوم الخاص بإلغاء الضرائب (سنة ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م) وراجع تفاصيل ذلك في كتابنا: الشوكاني (فقهه وفكره) ص: ١٠٧.

العزي الخالدي يتذكر قبل الوفاة

١ - تمهيد

عرفت المناضل الوطني، الفقيه، العالم، السياسي، الإداري، المغفور له، القاضي محمد بن محمد الخالدي، الآنسي، الحميري، منذ وقت مبكر في حياته، حيث يربطنا به صلة صداقة وجوار. وما زلت أذكر بعض المجالس التي كان يغشاها وهو كهل في نحو الخمسين وأنا طفل صغير. كم كان فرط استغرابي وإعجابي بحافظته المذهلة لما يرويه من حوادث، وأخبار تاريخية، مستشهداً بالشعر والحوار الذي كان يدور، كما ترويه كتب الأدب والتاريخ، وكما لو كانت تلك الكتب مفتوحة أمام ناظريه، ولقد استمرت تلك الحافظة والذاكرة القوية حتى الأيام الأخيرة من حياته وقد قارب الثمانين.

عرفت المرحوم القاضي العزي محمد الخالدي، وجالسته كثيراً عبر ثلاثة عقود، كان يتخللها انقطاع لسنوات حينما كنت أدرس أو أعمل في خارج الوطن، أو حين كان نفسه يعمل في السلك الدبلوماسي حيث عين في عام ١٩٥٨ وزيراً في الاتحاد الثلاثي، الذي كان بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة، ثم عاد إلى مصر مندوباً لليمن في الجامعة العربية، في أواخر الستينات، بعد أن عمل في بعض المناصب الإدارية في الداخل، وتعين مرة وزيراً للتربية والتعليم في عام١٩٦٦م، ثم عمل للمرة الأخيرة في الخارج وزيراً مفوضاً في الحبشة في منتصف السبعينات.

ولم يشغل أي منصب حكومي في سنواته الأخيرة، التي تعرض فيها لبعض أمراض الشيخوخة، فسافر غير مرة للعلاج، رغم نشاطه وحركته الدائمة، حتى وافاه الأجل في أغسطس ١٩٨٥م.

ولقد استمر لقائي بالمرحوم الخالدي خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة بشكل مُنتظِم في كل أسبوع في مقيل أخي في بيتنا القريب من داره، وفي كل مرة كنت ألقاه فيها كان الانطباع الأول ما زال ماثلاً في ذاكرتي خاصة، والرجل كان في أحاديثه غالباً ما يستشهد من محفوظاته بالكثير من الأدب والتاريخ والحكم والأمثال، وكانت شهرة العزي الخالدي ومكانته، والذي عرف بالصلابة وشجاعة الرأي، قد قامت في الأساس على مواقفه الوطنية من الإمام يحيى، وكتبه ربما كانت من أول منشورات مكتوبة ضده مع رفيقه وصديقه القاضي إسماعيل الجرافي، وآخرين بمعزل عنهما، وما لاقاه الخالدي جراء ذلك من سجن وجلد لم يعرف أحد مثله. ومن الغريب أنه وبعد مرور أكثر من خمسة وأربعين عاماً على منشورٍ كتبه، فقد كان رحمه الله يحفظ عن ظهر قلب لفظ ذلك المنشور ونصوص الرسائل المغفلة التوقيع التي كان يرسلها إلى الإمام يحيى.

ولكم ألححت عليه ورجوته أن يكتب مذكراته عن تلك الفترة المبكرة من الكفاح الوطني التي سبقت خروج أبي الأحرار الشهيد الزبيري إلى الخارج، وقبل قيام حركة الأحرار وهروب عدد من الآباء الوطنيين المؤسسين إلى عدن وحتى ثورة الدستور عام١٩٤٨م التي كان ممن أرهص لها وإن كان لم يشارك فيها حيث كان لاجئاً بولي العهد أحمد في تعز بعيداً عن الإمام يحيى، وكان رحمه الله يواعدني مسوِّفاً حتى اشتد به المرض بضعة أشهر، ثم أَبلَّ منه، فكررت عليه من جديد مذكراً إياه بأن ذلك واجب وطني وذكرى له، خاصة وليس بأيدي المهتمين بتاريخ الحركة الوطنية أي صور لما كان يكتب، بل وربما يأتي زمن يذهب فيه من عرف دوره ومواقفه ولم يكتب عن ذلك الدور والمواقف، فيضيع ككثيرين في طيات النسيان والماضي الذي لايكتب عنه لانعدام الوثائق

والحقائق عن بعض أحداثه أو رجاله، وهكذا وبعد طول انتظار أتحفني ببضع ورقات قليلة كتبها بالأسلوب والطريقة التي كان يحدثنا بها على سجيته، حتى الموضوع نفسه الذي يهمنا معرفة تفاصيله وهو الرسالة أو منشوره الأول الذي وضعه عام١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م متأثراً ومستشهداً- كما يذكر- بما سمع مع غيره من المتابعين لما يدور خارج اليمن من أحداث عالمية، ثم ما تلاه من الرسائل الموجهة إلى الإمام يحيى وما كان رد فعل ذلك. ثم كيف اكتشف أمره وما لاقاه من سجن وتعذيب. ورغم اختصار الحوادث والعجلة التي كتب بها المرحوم الخالدي، فإنها مع ذلك مفيدة للغاية، وتكشف لنا جانباً من العمل الوطني ونمطاً من التفكير والأسلوب الذي كان سائداً قبل الحرب العالمية الثانية، كما تظهر لنا أن هنالك أفراداً وجماعات أخرى كانت تعمل بطرق مختلفة ضد نظام الإمام يحيى وطغيانه، ولم يكن بعد قد ربطها أو وحد عملها جمعية أوقيادة، وذلك ما تمخضت عنه السنوات التالية.

وسنورد فيما يلي ما كتبه الوالد العزي الخالدي حرفيّاً، باستثناء ما وجدناه ضرورياً من إضافة كلمات هي بين قوسين للإيضاح، نتيجة التداخل أحياناً أو حذف كلمات مكررة أو مستطردٍ بها، لا علاقة لها بالموضوع، ودون أي تعليقات أو ملاحظات.

* * *

٢- رسالة إلى الإمام يحيى:

كتب العزي الخالدي:

«لما اشتدت وطأة الإمام يحيى وأولاده على الشعب اليمني، وكان فريق من أولاده بالمظالم وفريق بالكبائر والآثام، وفي رمضان سنة ١٣٦٠هـ أخذت الإمبراطورية

البريطانية شاه إيران رضا شاه بهلوي إلى السجن، وأخذت مالية إيران وكتب إلى الإمام يحيى كثير من الناس من العراق وغيرها، يحذرونه من تكديس أموال الشعب وتجميعها في الدور واحتكارها، ولم يتخذها في البنوك ويعطي الناس حقوقهم. لاحت لنا الفرصة، فكتبنا إليه رسالة تحت عنوان (عبد الله بن محمد اليمني) وقلنا فيها نقدم:

بسم الله الرحمن الرحيم.. مصير الظالمين إلى التلاشي، من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، إليكم يا أمير المؤمنين هذه الكلمات القصيرة تحت عنوان الحديث الشريف: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» حتى قلنا له فيها: لتقف معي ساعة من نهار، لتذكر حال ملك الإيران ومصيره الآن، ونتكلم عن الهُوَّةِ التي ابتلعت تلك الجرثومة الخبيثة، التي تصور لك الظلمات بأنواعها، ليس موقفي الآن هو ذم الحكومة البريطانية وذكر مساويها التي لا تحصر بالآلاف، وإنما أريد أن نتكلم عن نتيجة الاستبداد، ليس الأسف الشديد إلا على الدماء التي أهرقت من أبناء قحطان في سبيل تنفيذ أغراضك السيئة ومقاصدك الجبارة. وإنك ستصبح أنت وأولادك أسيراً في أيدي رجال الغرب الظالم، وعندئذ يقول المسلمون بلسان واحد: بعداً لك وسحقاً من قاضٍ على الدين والدنيا، عش ما حييت مدى الزمان طريداً:

فإن تصبك من الأيام جائحة لم نبك منك على دنيا ولا دين

نحن نعلم أنك تقول كما يقول المتوكل إسماعيل: إن اليمن أرض خراجية، وإنه لا يؤاخذني الله إلا فيما أبقيت لكم، بيد أن هذا الزمان لا يقبل هذه الخرافات، ولا يسمح بالتجارة في الرعية، وأخذ المكوس بصورة لا يرضاها رجال الغرب الظالم، الذي جعلتموه مثالكم الذي تحتذونه، وإنما هنالك أمة مسلمة تنقلونهم من طور التكفير إلى طور التفسيق تارة تصريحاً وتارة تأويلاً، والأيام تبشركم بيوم عبوس قمطرير، ترون فيه جزاء عقائدكم وكيف لكم بلا إله إلا الله، وكان يأخذ على الرأس الغنم نصف الثمن،

وكان أهل صنعاء كل بيت يمتلك معزة ثنتين يتمنَّحونها، وأكثرهم يمتلك بقرة، أزبالها للوقيد، واللبن إدام، وأهل صنعاء يسمون البقرة أم البيت إدام من أن الشرع الشريف في الأربعين شاة شاة».

ويوضح العزي بعد هذا النص فيضيف:

« وكان الإمام يحيى يقول: هذه معونة جهادية، فقلنا له في بعض الرسائل: في أي«ثغر من ثغور المسلمين رابطتم؟!» وختمنا الرسالة: « فقد بلغ السيل الزبى وامتلأ الإناء حتى لا يسع قطرة، ولم يبق في قوس الصبر منزع » (!).

وهنا يذكر لنا أن فضيلة الأخ القاضي إسماعيل الجرافي كان شريكاً له، وأن تلك الرسالة ليست الأولى بل العاشرة حيث يستطرد:

« ورعى الله الأخ العلامة الفقيه إسماعيل بن أحمد الجرافي قال: هيا إذا حركت هذه الرسالة الإمام يحيى والينا العمل لأنها عاشر رسالة وإلا تركنا، فأرسلناها في البريد في إحدى ليالي رمضان وقال الأخ إسماعيل: والله ما يسمر إلا عليها - يعني على الرسالة هذه- وكان من جملة السمار عند الإمام في مفرج الروضة النقيب حسن بن صالح الشايف رحمه الله فقد كان من جملة الشهداء في حجة، قال النقيب حسن: لما قرأ الامام الرسالة تنهد نهدة كادت تشق المفرج، وقال النقيب حسن في نفسه: طعنة تشطك! ثم صاح الإمام: من هو هذا الفاعل الجاعل التارك الصانع؟ وسب وشتم.

فلما أثرت فيه الرسالة، استبشرنا، واستبشر الناس كلهم، فحررنا المنشور الاستفتائي إلى كافة العلماء وهذا لفظه:

٣- سؤال: «ما يقول علماء الدين: هل يجوز للأمّة اليمنية أن تهاجم الدورالتي فيها أموال المسلمين، ولو بأن تخوض بحراً من الدماء لإنقاذ أموالها التي قد قبض عليها

الإمام بأيد من حديد، فالإمام وأولاده ينفقونها في ملذاتهم المخزية وشهواتهم البهيمية، ونخشى أن يسبقنا إليها الغرب الجبار فيأخذها كما يعمل بأموال مسلمي إيران؟ أفتونا دمتم للحق مقيمين، ولا تكتموا الحق وأنتم تعلمون».

وجعلناه عشرين منشوراً، ولكن بأرقام كبيرة خمس مئة وخمسين أربع مئه سبع مئه، وهكذا؛ وتولّى توزيعها إلى البيوت السيد العلامة زيد بن علي الديلمي رحمه الله، سيدنا العلامة ثابت بهران، الحاج أحمد جودة بهران، وجودة من الذين يكثرون الولقة، وشيخ الإسلام في وقته القاضي العلامة لطف بن محمد الزبيري رحمه الله، وكان لهذا المنشور صولة وزجلة لا أعظم منها، حتى إن الأحرار القدماء (بيت المطاع، والقاضي علي بن عبد الوهاب الشماحي، والقضاة بيت السياغي) ذهبوا إلى القاضي محمد راغب وقالوا له: نرجو أن لا ينبأ من الإمام أي شيء فوالله ما فعلنا هذه المنشورات ولا علم لنا بمن فعلها(!) فأجاب عليهم: ومن يصنع المنشورات في اليمن غيركم! فرجعوا وقالوا: ذهبنا نبرىء نفوسنا، ففاجأنا القاضي محمد راغب بأنه غيرنا وهؤلاء الإخوان قد حبسوا وأطلقوا.

وصادف أن القاضي عبد الله العمري أفطر ليلة في رمضان عند الشريف عبد الله الضمين. وكان سيدنا العلامة أحمد مهدي رحمه الله أفطر معهم فقال الشريف عبد الله: هذا عمل أولاد المطاع وعيال السياغي وعيال السنيدار؛ أجاب القاضي عبد الله بقوله: لا، هؤلاء علماء! فقلنا لبيت المطاع والشماحي وغيرهم: اطمئنوا واستريحوا، الوهم في غيركم!

ثم إن الإمام كان يحبس كل من يتهمه وأكثرهم من المتخرجين في العراق مثل محيي الدين العنسي وأحمد الحورش والسيد أحمد الروني والمشير عبد الله السلال بالإضافة إلى الصفي أحمد محبوب المقري ومشايخ السبع وسيدنا بهران، ثم إن الإمام

أرسل إلى بيتنا خمسة عشر جندياً ومأمور الضبط حسين أفندي حنش وفتشوا جميع كتبي والأوراق وأخذوها، وقالوا: إن بعض الكلمات خطها يشبه خط المنشورات. فأمر الإمام يحيى بحبسي في القلعة في الحبس الذي فيه المشير عبد الله السلال وأحمد حسين المروني وأحمد الحورش وقالوا لهم قبل وصولي إليهم: سيأتون بقاضٍ عندكم في الحبس لكن اتركوه وشأنه لا أحد منكم يصل إليه أو يتكلم معه، قالوا لهم: أدوا من أديتم فلا نكلمه ولا نحاكيه، وكان أحمد الحورش يسمونه الفيلسوف قال للإخوان: ياخبرة احسبوا القضية ناجحة، قالوا له: لماذا؟ قال: ما دام وقد حبسوا عندنا رجلاً من القضاة المعممين، فلما بديت عليهم قالوا: تمام خلاص نجحت القضية! وأدو لي غرفة وحدي، وقيدت بقيدين عظيمين هما عشرون رطلاً. وفي الصباح وصل إلينا مأمور الأجرا حسين أفندي حنش وبيده أمر من الإمام مأمور الأجرا حسين حنش حماه الله اطلع إلى الخالدي فإن اعترف ببقية أصحابه وإلا ضربته كل يوم عشر ضربات حتى يموت»(؟!)

وما أطلعني على الأمر إلا وقد عرضه على جميع الناس، فارتاع الناس ارتياعاً شديداً حيث لم يفاجؤوا بمثل هذا. فوصل إليَّ مأمور الأجر وعرض علي الأمر وأنكرته عن كل شيء ولا أعلم بشيء فقال لي: راجع نفسك. وفي اليوم الثاني أيضاً وصل إلي وأنكرته عن كل تهمة، فقال: اخرج معي، قلت: بسم الله، فلما وصلنا إلى باب القصر ظننت أنه سيتلعني باب القصر، يعني يضربني، فركب حماره، وقال للجندي: أديه بعدي. ومشينا وما كأنه إلا أخذ قارشة حمول، فعندئذ فتحت فمي وصرخت بأعلى صوتي: « بالله انظروا أيها الناس إلى هؤلاء الطغاة البغاة المستغلين المجرمين يأخذون العلماء ويحومرون بهم ويضربون أبشارهم بدون حجة ولا جريمة» إلى أن وصلنا إلى باب اليمن واجتمع الناس ولا زالت احاججهم وأقول: «يا أمة محمد انظروا إلى هذا الطاغية الإمام يحيى وأولاده الفسقة كيف يفعلون بالناس وبالعلماء بدون أي ذنب ولا حجة، فليصارحنا بأي ذنب أو أي حجة وشرع مقنع للجميع»، فالناس بأجمعهم ضجوا

وتكلموا أن هذا لا يجوز، وأنه حرام، ثم لاحت الفرصة للناس فكان كل واحد يتكلم في الإمام وأولاده ويقول: الخالدي يقول هذا الكلام، وأرجعت إلى القصر وما نَزَلَ مأمورالإجرا إلى عند الإمام إلا وقد أبلغوا الإمام بكل ما قلته وزادوا على ما قلته أضعافاً. ولما وصل حسين حنش لعنه الإمام وقال له: لمه تنزله إلي باب اليمن، كنت اضربه باب القصر. وفي اليوم الثاني أخرجني مأمور الأجرا إلى باب القصر والناس اجتمعوا وأنا أحاججهم وآتي بالاحاديث الشريفة والآيات الكريمة وأتكلم بأعلى صوتي بأعمال الإمام من الظلم وأولاده بالأمور البائرة جميعها، وكلما ضربوني أتكلم بكل مايجرح قداسة الإمام وأولاده، حتى إن الرسول الأعظم محمد ﷺ اطلع على الكعبة فقال: «ما أكرمك، عند الله سبحانه وتعالى، لهدم الكعبة حجراً حجراً ولا هديمة امرئٍ مسلم». وقلت للجلادين: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فألقوا العصي من أيديهم. وقالوا: والله ما نمسه، واستمر التلاع، يعني الضرب، باب القصر أربعة أيام، والعسكر يمتنعون من ضربي، فبلغ الإمام امتناع العسكر من ضربي، وقال وزراء الإمام للإمام يحيى: إن الخالدي يشوه بسمعتكم وأولادكم أكثر مما تشوهون به، ثم إنه أمر بنفيي إلى وشحة، وكانت هذه وشحة أبعد نقطة في اليمن في رأس شاقة من الجبال صحبة أربعة جنود من الحرس الملكي. وإليكم بعض فقرات الأمر الذي إلى عامل وشحة القاضي محمد بن محمد سعد الشرفي.

وكان أب العامل هذا ووالدي رحمهم الله أصحاباً، ومن أنصار الإمام وأعوانه. وكان والدي رحمه الله يجمع للإمام زكوات التجار والمعونة من الناس في الحرب ضد الأتراك، حتى إن الإمام قال لي ذات مرة ونحن عنده في المواجهة في دار السعادة: والدك صاحبنا وصديقنا، وكان يحول بثلاثة ريالات أربعة ريالات في بعض الأحيان. فقلت له: صحبة الآباء متصلة بالأبناء.

وهذا لفظ بعض فقرات الأمر إلى عامل وشحة: «لايغركم رونق شبابه ويخدعكم بدماثة أخلاقه، فالرجل ذو حيل ومكر وسياسة، وقد وظفناه في عدة وظائف حتى جعلناه في الحضرة الشريفة، وقد سب الإمام وأولاد الإمام، وقد عاملناه بالشدة فما زادته إلا عتواً ونفوراً لا يزيد عليكم ضعوه في قيد وثيق» وكان هذا الحصن حصيناً، وكان العامل قد جمع العسكر كلهم وقرأ عليهم أمر الإمام، فبلغني بعض الحاضرين هذه الفقرات وكان يدرس عندي.

والخلاصة: أني لاقيت من الشدة في السجن هذا مالا أقدر على وصفه، ولكن العسكر كانوا يحترمونني بسبب صدور الأمر الذي هول فيه الإمام، وأني كنت موظفاً في الحضرة الشريفة، وقد كان الناس بأجمعهم يكرهون الإمام وأولاده ولكنهم كانوا يخافون حقد الإمام وبطشه، وكان الناس مغفلين إلى غاية ونهاية، وإن الفضل للإمام يحيى وابنه الامام أحمد في إيجاد الثورة (١٩٤٨م) وتشجيع الناس، فإنهما قد سجنا أكثر الناس من شمالي اليمن وجنوبه، فاختلط بعضهم ببعض في السجون وتوحدت كلماتهم وآراؤهم وتعاهدوا وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وكانوا يخرجون إلى ساحة الإعدام وهم ينشدون الأشعار الحماسية بكل شجاعة وإقدام فاشتعلت النار وانتهى الباطل ورجاله.

* * *

٤- الإمام يتاجر في الجاز:

هذا ونعود إلى مجريات الإمام يحيي وأولاده، فحررنا للإمام رسالة أن الناس جميعهم يقولون: إن الإمام قد أصبح تجارياً وزراعياً أكثر منه ملوكياً وسياسياً، ونحن لا نشك في فساد هذا الاعتقاد، بيد أن الاعتقاد سيقضي على القوة المعنوية التي هي المحبة،

ويضرنا لمستقبل النزاهة، فرعى الله الأخ القاضي إسماعيل الجرافي حيث قال لي: ما سيجوب علينا الإمام؟ فقلت له: وهل يتصور أن يمسكنا بقلمه في شيء، ولكنه سيرمي بهذه الرسالة إلى الأرض ويقول: منكرين لا عندنا ولا عند الولد أحمد ولا عند الولد عبد الله واسألوا وابحثوا ولو لاحنا أن قد الصندوق الجاز بخمس وثلاثين ريالاً فوالله العظيم إنه قال - أي الإمام يحيى- هذه التي قلتها للأخ إسماعيل.

* * *

٥- منشور ضد يحيى لسجنه الزبيري وأبي طالب:

ولما حبس الإمام يحيى الأخ القاضي محمد محمود الزبيري ومحمد قاسم أبو طالب عندما كانا يخطبان ضد الإمام يحيى فعلنا منشوراً هذا نصه:

«لقد برأت ساحة الأخ القاضي محمد محمود الزبيري ومحمد قاسم أبو طالب، فإن الإمام أطلقهما، وإلا فلا بد من إعمال مذابح ينتصر فيها جند الحق ويذهب الباطل ورجاله، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» ولما بلغ المنشور الظالم أمر بإرسالهما إلى حبس الأهنوم تحت نظارة أبو نيبة وهو ابن الإمام عشيش، فجعل أبو نيبة تنكة قطران في باب الحبس، بمعنى أن الذي سيراجع لهما سيطليه بالقطران، فأرسل إليه الأحرار برسالة من صنعاء وهددوه، وقالوا له: إنه صنم الجزيرة وإنه ما يكفيه ما قد فعل في بلاد الشام، يعني لواء صعدة، وأراق الدماء في لواء صعدة، ولما وصلت إليه الرسالة وقرأها قال: وأنا ما عليّ من هذا الأمر. وأرسل بالرسالة إلى الإمام يحيى، فقال الإمام يحيى: عندنا مثل هذه الرسالة مثل زنين المطر.

وعندما وصلت إلى سجن القلعة قبل إبعادي إلى وشحة أرسل الإمام يحيى الحاج حمود المحفدي، وكان من جملة الموظفين في المقام في الحضرة الشريفة، أرسله الإمام

إلى السيد أحمد حسين المروني، وقال له: اطلب إليك الولد أحمد المروني وقل له: «هؤلاء يشتوا يخرجوا أهل البيت من اليمن» ولما رجع أحمد حسين المروني قال له الإخوان المشير عبد الله السلال، والأستاذ أحمد الجورش: هيا ما قد به ما قال لك المحفدي؟

أجاب عليهم: اصبروا، الرجل قد أصبح في بير من حلبة والله أعلم ما قد فعل به الفقهاء، فقد قال لي المحفدي: إن الإمام يقول لي: هؤلاء يشتوا يخرجوا أهل البيت من اليمن فقالوا له: وأنت ما رأيك؟ قال: يخرجوه عرض قليل الخير ما فعل شيء ولا يصلح لشيء.

* * *

٦- خاتمة

ذلك كل ما كتبه المرحوم العزي الخالدي الذي سألني بعد أيام رأيي فيما كتب، فقلت له: ذلك غَيضٌ من فَيْض. فأجاب على البديهة: قصدكم(بَرض من عِدّ)، وهو بنفس المعنى أي قليل من كثير، فقلت له: نعم. وكنت قد أعددت له قائمة من الأسئلة والاستفسارات رجوته الإجابة عنها، فوعد خيراً إذا منحه الله العافية والوقت، لكنه بعد ذلك بقليل لزم داره، ثم رفع إلى الرفيق الأعلى ولم أتسلم منه أي إجابة ولن نتسلم، رحمه الله وعفا عنه.

* * *

* *

*

اتصال الغرب باليمن

وأهم بعثاته في العصر الحديث (*)

١- الاهتمامات الأوروبية المبكرة :

شهدت الشطآن اليمنية وجزرها في البحر الأحمر وخليج عدن والبحر العربي في بداية القرن السادس عشر صراعاً بين الأساطيل البرتغالية والعثمانية حُسِمَ لصَالح العثمانيين بعد أن كان(الفرنسوا البوكيرك) AL-Buquerque نائب ملك البرتغال في الهند قد احتل جزيرة(سُقطرة) عام ١٠٠٧م، وفشل في احتلال ميناء عدن في مارس ١٥١٣م فاستولى على جزيرة (كَمَران) المقابلة لمدينة الحديدة. وإذ أصبحت اليمن بعد ١٥١٧م جزءاً من الإمبراطورية العثمانية لقرن من الزمن، فقد قام بزيارتها حفنةمن الأوروبيين المغامرين في الشرق، قبل أن يصبح ميناء المخا مركزاً تجارياً هاماً في مطلع القرن السابع عشر تتسابق إليه السفن الأوروبية، وتنتشر فيه وكالاتها المتخصصة بتجارة البن اليمني الذي شكل الحصول عليه صراعاً وتنافساً بين الكثير من الشركات الأوروبية الاحتكارية التي نشأت باسم شركات الهند الشرقية : (الهولندية) و(الإنجليزية) و(الفرنسية)[1]، وقامت بأدوار احتكارية واستعمارية مشهورة. ولعل أول ما عرفه

(*) دراسات يمنية العدد(٤٢) شتاء ١٩٩٠م.

(١) تأسست(شركة الهند الهولندية الشرقية) عام ١٦٠٢م في هولندا للتجارة مع البلادالواقعة في ما بعد(رأس الرجاء الصالح) وتمتعت بامتيازات كثيرة، وقد دخلت في صراع مع (شركة الهند الشرقية الإنجليزية) التي كانت قد تأسست قبيل الأولى في عام ١٥٩٩م وتمكنت من كسر الاحتكار البرتغالي في المحيط الهندي، وقد انتهى أمر الهولندية بنهاية القرن الثامن عشر(١٧٩٩) بعد أن تعاظم الدور البحري والاستعماري للإمبراطورية البريطانية. أما(شركة الهند الشرقية الفرنسية) فقد تبلور تأسيسها على نفس النمط الإنجليزي والهولندي سنة (١٦٦٤م) راجع اليمن والغرب : ٣٨ .

الغرب عن اليمن في العصر الحديث هو مانشره في روما عام ٩١٥هـ/ ١٥١٠م أول زائر أوروبي لصَنْعآء (لوندوفيكو دي فاريتما Lundovico de varitema) من انطباعات زيارته وأخباره عن « المدينة الجميلة ذات الأسوار المرتفعة والبساتين الفيحاء». وقد ذكر أن عدد بيوتها حين زيارته كانت خمسة آلاف بيت. ومع الأهمية التاريخية لما نشر دي فاريتما فقد وقع كعدد آخر من الرحالة في ذلك العصر في أوهام، ووصف خرافات لا أساس لها، وقد عزا بعض البحَّاثة الأوروبيين المعاصرين ذلك إلى أنه كان فيما ذكر فَريسة معلومات كاذبة عن الشرق، أو مروجاً لحكايا وأساطير سمعها من بعض رحالة ذلك الزمان[١].

وفي الفصول الأولى من كتاب إريك ماكرو (اليمن والغرب)[٢] تفاصيل دقيقة وشيِّقة لا هتمامات الأوروبيين المبكرة باليمن من بداية القرن السادس عشر.

* * *

٢- النشاط التجاري الهولندي:

ومن ذلك النشاطُ التجاري الهولندي من أوائل القرن السابع عشر بعد أن أصبح مركزهم التجاري في (المخا) من أهم مراكز تجارة البن الذي كانوا يصدرونه إلى فروع الشركة في شمال غربي الهند وبلاد فارس، وبدء بيعه لأول مرة في(أمستردام) في عام ١٦٦١م ثم في الأسواق الأوروبية، ومع أن الهولنديين فقدوا مركزهم كقوة كبرى احتلها الإنجليز بنهاية القرن فقد بقيت وكالة الممثليّة الهولندية في المخا حتى عام ١٧٢٤م

(١) راجع: مقالنا(صنعاء في مرآة الغرب) مجلة الاجتهاد، بيروت، العدد السابع ١٩٩٠م/ ١٤١٠هـ ص: ٢٨١.

(٢) Erico Macro: Yemen And The Western World، وقد عربناه بعنوان (اليمن والغرب) وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٨م والطبعة الثانية ١٩٨٥م.

قبل إقفالها، واستمر تردد السفن الهولندية بعد ذلك محدوداً، ولم يقفل مركز الشركة في المخا إلا سنة ١٧٣٨م، وذلك أنه بحلول عام ١٧٣٠م «كانت الأسواق الأوروبية مكتظة بالبن إلى درجة جعلت الهولنديين لا يجلبون إلا القليل منه من المخا، ومع ذلك فإن الهولنديين احتفظوا بمبنىَ المركز التجاري طوال القرن الثامن عشر، رغم أنه قد يمر عامان أو ثلاثة دون مرور سفينة هولندية بالمخا»(١).

ولم تكن تجارة البن المزدهرة وحدها هي كل تجارة الشركات والتجار الأوروبيين، فالتوابل المختلفة وغيرها مما كان يُنقل من الشّرق والغَرب يُشَكّل مصادر ربح كبير للأوروبيين، ففي تقرير لأشهر أوائل قادة الأسطول التجاري الهولندي الذي بدأ استكشاف جنوب الجزيرة عام ١٦١٤م وهو (بيتر فان دن بروكه P. Van den Broecke) جاء فيه ما كتب بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٦١٦م ما يلي:

«إن تجارة المخا ذات أهمية كبرى للشركة، إذ إن كميات كبيرة من التوابل تباع هناك سنويا مقابل النقد، مُدرَّةً الأرباح الهائلة؛ وذلك إن أخذنا بعين الاعتبار أعداد التجار الغفيرة والسفن فقط»(٢).

أما بداية العمل الجدي الهولندي لتأسيس مركز تجاري للشركة، فقد جرى منذ

---

(١) اليمن والغرب: ٣١-٣٥.

(٢) اليمن في أوائل القرن السابع عشر: (مقتطفات من الوثائق الهولندية المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لجنوب الجزيرة العربية ١٦١٤-١٦٣٠م) اختيار وتعريب وتعليق ك.خ براور، وأ. كبلانيان (ليدن ١٩٨٨م)؛ وقد قام أحد المؤلفين، وهو المستشرق الهولندي براور C.G. Brouwer في العام الماضي بنشر بحث مفيد بالإنجليزية عن (شركة الهند الهولندية الشرقية في اليمن: ١٦١٤-١٦٥٥م):

The Dutch East India Company in Yemen: 1614 - 1655

C.G. Brouwer, Amsterdam, 1988

وقد تلطف المؤلف العالم فأرسل لي نسخة منه بعد لقائي به حين كان في زيارة علمية لليمن في صيف نفس العام.

وصول (يخت) بروكه إلى عدن في ٣٠ أغسطس عام ١٦١٤م حيث استقبله القائد العثماني في عدن استقْبالاً رسمياً في أول سبتمبر عام ١٦١٤م لكنه أبعده ومرافقيه فتوجه إلى(الشّحْر) الذي وصله بيخته يوم ١٩ سبتمبر، وكان عليه أن يقابل الوالي العثماني في صنعاء ليسهل له أي عمل تجاري.

ولم يتم له ذلك إلا بعد رحلة ثانية قدم فيها من سَيْلان، فوصل المخا في ٢١ أبريل عام ١٦١٦م، فتوجه مع خمسة من رجاله برفقة جَمَاعة من الجنود الأتراك عن طريق تعز، واستقبله الوالي العثماني جعفر باشا في صنعاء يوم ٤ مايو عام ١٦١٦م، ورغم الاستقبال والترحيب بفان دن بروكه إلا أن الوالي «رفض رفضاً قاطعاً السماح له بتأسيس محطة تجارية ثابتة وذلك لعدم حيازة الهولنديين على فَرمان من السُّلطان، ومع ذلك أذنَ لهم بالتجارة في غُضونِ المَوْسِمِ الجاري وخَفّض لهم المكُوس، ولكنَّه منعهم من العَوْدَةِ إلى اليَمَن من دون الفرمان المطلوب . . »[1] وقد تم ذلك فيما بعد.

لقد كانت الشّركاتُ الأوروبيّةُ المختلفةُ تُمثّل المصَالحَ والمطَامع الغَربيَّة المتصَارعةَ للسّيطرة على الشَّرق، وإذا كانت المطَامع البريطانيّة قد تطورت بالتّحَول من التِّجارَة إلى السِّياسَة في المنطقة ليصبح الاحتلال العَسْكري آخر مَراحلها في القرن التاسع عَشَر، ولتطلق يد فرنسا في المغرب العربي بموجب ماعرف بالاتفاقِ الوُدّي بينهمَا عام (١٩٠٤م)، فإن ما يهمُّنا من اتّصالِ اليَمَنِ بالغرب هنا، هو جانبٌ آخَرُ يتعلّق بالتجارةِ والرَّحّالة والبِعثاتِ العلميَّة الاستكشافية، وهو وإن كان وجهاً آخرَ لنفسِ المطامع، إلا أنَّ الغرضَ منه استكمالُ الصورةِ العامَّةِ التي ترسم خُطوطاً عريضةً لها عن اليمن في هذا العصر.

* * *

(١) المصدر السابق في الصفحة السابقة: ص ٢٣.

٣ – الفرنسيون والإنجليز يقصفون ميناء المخا ثم يحتل الإنجليز عدن :

إننا وفي هذا السياق نجد من المفيد- وقبل ذكر بعض الاهتمامات العلمية الغربية وأهمها بعثة نيبور الدانماركية- الإشارة إلى حادث فريد تميزت به العلاقة التجارية الفرنسية مع اليمن عبر (المخا) في الربع الأول من القرن الثامن عشر، فالمطامع الفرنسية في الشرق شأنها شأن تلك الإنجليزية، ولكن الفرنسيين جاؤوا في وقت متأخر نسبياً إلى البحر الأحمر.

ففي الثالث من يناير سنة ١٧٠٨م رست أول سفينتين فرنسيتين في ميناء المخا «وقام مدير المركز التجاري الهولندي بضيافة الفرنسيين، وتم عقد اتفاق تجاري بين الفرنسيين وحاكم المخا في عام ١٧٠٩م وأُسِّسَ بذلك مركز تجاري فرنسي. . . »[١].

وفي السنوات العشر التالية كان النشاط التجاري الفرنسي يسير قدماً، فقد وصلت إلى (المخا) عدة بواخر مباشرة من(سانت مالو) بفرنسا، وعادت محملة بالبن ومختلف التجارة، كما جاءت سفن فرنسية وهي في طريقها إلى الهند أو عائدة منها للتزود من تجارة المخا الرابحة.

وعلى إحدى تلك السفن وصلت أول بعثة فرنسية رسمية ضمنها طبيب، قامت بزيارة الإمام المهدي محمد بن أحمد(ت١١٣٠هـ/ ١٧١٨م) في عاصمته(المواهب) شرقي ذمار في مطلع عام ١١٢٤هـ/ فبراير١٧١٢م ونشر المستشرق الفرنسي (جان دي لاروك Jean de la-Roque) نتائج وانطباعات زيارة البعثة ووصفها المبالغ فيه لبلاط المهدي، بعد أربع سنوات بعنوان(رحلة إلى العربية السعيدة، باريس ١٧١٦م)[٢] غير أن

(١) اليمن والغرب: ٣٩.

(٢) راجع: مقال الدكتور يوسف شلحد حول الموضوع، (مجلة دراسات يمنية: العدد ١٨/ شتاء ١٩٨٤م ص: ٦٧-٨٠).

العلاقات بين فرنسا والسلطات اليمنية في المخا توترت بعد ذلك بسنوات قليلة، وذلك حينما تبين لعامل المخا أن الفرنسيين كانوا يدفعون بمقتضى الاتفاق المبرم معهم عام ١٧٠٩م، $\frac{1}{4}$ ١٪ فقط ضريبة على الصادرات والواردات، في حين يدفع الأوروبيون الآخرون٥٪، فَقُرِّرَ رفع الرسوم على الفرنسيين بنفس النسبة مما أغضب(شركة الهند الشرقية الفرنسية) وعَدّت ذلك التّصَرف مُتعسفاً. وهكذا قررت أن تقوم بإجراء تأديبي كانت نتيجتة توجيه أسطول فرنسي ضم أربع سفن حَربيّة قامت بقصف المخا سنة ١٧٣٧م وأجبرت السلطات المحلية بقبول الالتزام باتفاقية ١٧٠٩م[١].

وقد استمرت العلاقات التجارية الفرنسية مع المخا بشكل متقطع إلى أواخر القرن الثامن عشر وذلك في إطار العلاقات التجارية مع مصر بعد أن باتت من أهم مراكز التجارة الفرنسية التي كانت تفوق حجم التجارة الإنجليزية بخمس وعشرين مرة، وتمكن الفرنسيّون من فرض احتكار أوروبي حقيقي على تجارة مصر، كما كان لهم دور هام آخر بعد حَمْلَةِ نابليون بونابارت في خريف عام ١٧٩٨م. وشكل الصراع الفرنسي-البريطاني في السيطرة على التجارة والمواقع الاستراتيجية في البحر الأحمر بداية فصول الاحتلال للمشرق والمغرب العربي في القرن التاسع عشر. وكما قصف الفرنسيون المخا قبل قرن تقريباً فقد فعل البريطانيون الأمر نفسه عام ١٨٢٠م وأنزلوا قوة صغيرة في محاولة للاستيلاء عليه، وتم الاتفاق مع حاكم المخا على إنشاء ممثلية تجارية، لكن الإمام في صنعاء لم يقرها[٢]، غير أن الأخطر من تلك المحاولة هو تنفيذهم لمخطط أقدم حين احتلوا عدن عام ١٨٣٩م ولم يكن لإمام صنعاء وقتها أي سلطة فعليّة عليها.

* * *

---

(١) اليمن والغرب: ٤٠-٤١.

(٢) اليمن والغرب: ٥٩.

٤- حجم تجارة بُنِّ المخا المصدر إلى أمريكا:

وفي إطار التجارة واتصال اليمن بالغرب كانت أمريكا متأخرة في اتصالها التجاري بالموانئ اليمنية حتى مطلع القرن التاسع عشر، **لكنه من اللافت للنظر حقاً كميات البن التي اشتراها التجار الأمريكان سنوياً، مما يدل على غزارة الإنتاج المحلي فيما لوقورن بما كان يصدر أيضاً إلى غير أمريكا**. لقد تم للأمريكيين الحصول على موافقة الإمام في إنشاء مركز تجاري لهم في المخا عام١٨٠٥م لكن سُفناً تجاريّة سبق لها قبل ذلك التاريخ الوصول وشراء البن اليمني، ولعل أول صفقة كانت عام ١٨٠١م حين جلبت إحدى سفينتين لأربعة من تجار ميناء سيليم الأمريكي ٣٢٦,٠٠٠ ثلاث مئة وستة وعشرين ألف رطل من بن المخا. وإذ ترددت زيارات السفن الأمريكية على المخا معظم سنوات العقد الأول نجد أرقاماً إحصائية لما نقلته بعضها في ثلاث سنوات متتالية. ففي أكتوبر سنة ١٨٠٧م عادت السفينة(مارجريت) بشحنة كبيرة من البن لا يُعْرَف مقدارها إلاّ أن صفقة وصفت «بأنها أكثر جرأة واستطاعت السفينة (فرانكلين) أن تحمل في العام التالي(٥٣٢٣٦٥ رطلاً من البن) إلى سيليم حيث تسلمها جوزيف بيبودي في ديسمبر سنة١٨٠٨م».

كما تم في العام التالي (١٨٠٩م) استيراد مليوني رطل من البن من المخا. لقد تعرقلت التجارة الأمريكية بين عامي ١٨١٢م و١٨١٥م بسبب إعلان أمريكا الحرب على بريطانيا، ولما عادت التجارة الأمريكية ثانية مع البحر الأحمر وانتظمت - ولو أنها متباعدة - كان في ميناء المخا في يناير سنة ١٨١٩م أربع سفن أمريكية تشحن بالبن، لكن هذا الأمر لم يتكرر كثيراً بعد ذلك إذ إن السفن الأمريكية من أواخر العقد الرابع كان ترددها عَرَضِيّاً على المخا وهي في طريقها إلى المحيط الهندي أو شرق إفريقية، وكانت الهَيْمَنة الأوروبيّة والبريطانيّة على وجه الخصوص هي سيدة البحار وقبل أن يقدر لأمريكا دَورها الخطير في القرن العشرين.

* * *

٥- نيبور وبعثته الدانماركية إلى العربية السعيدة (عام ١٧٦١-١٧٦٧م):

سجلت التجارة الأوروبية مع(المخا) رقماً قياسياً في العقد الثالث من القرن الثامن عشر(١٧٢٠- ١٧٣٠م) وذلك نتيجة لاشتراك الكثير من الدول الصغيرة فيها، ومن ذلك نشاط شركة(أوستند النمساوية، وشركة الهند الشرقية السويدية). وقد أجبرت حكومات الدول الكبرى الاحتكارية (فرنسا، بريطانيا وهولندا) رغم خلافاتها، الإمبراطور النمساوي للحدِّ من تجارة (أوستند) الواسعة مع المخا. أما مملكة الدانمارك التي كان لها معاملات تجارية متقطعة مع المخا خلال القرن السابع عشر رغم العداء الهولندي، فقد أسهمت كذلك بالمشاركة في فترة ازدهار تجارة المخا قبل بداية تدهورها مع بدايات منتصف القرن الثامن عشر[1]، لكن مملكة الدانمارك في ظل حاكمها المستبد المستنير الإمبراطور (فريدريك الخامس) قامت بدعم وتمويل بعثة علمية تاريخية هامة بقي أثرها، ودخلت الدانمارك بها على صغرها في سجل الريادة العلمية وليس الاحتكار أو المغامرة السياسية في علاقات الغرب بالشرق في العصر الحديث. **تلك هي البعثة الدانماركية إلى العربية السعيدة (١٧٦١-١٧٦٧م) التي ارتبط اسمها بواحد من أعضائها الستة، لم يكن أعظمهم شأناً، لكنه الوحيد الذي حقق أهداف البعثة وعاد بمفرده إلى الدانمارك في قصة درامية مؤثرة كان بطلها عالم المساحة المهندس الألماني المغمور (كارستن نيبور C. Neibuhr) (ت١٨١٥م) علَماً قومياً يتنازع الألمان والدانمركيون شرف انتسابه إليهم.** ولأهمية تلك البعثة التي كتب عنها الكثير[2] نختم موضوعنا عن اتصال اليمن بالغرب بالحديث عنها وعن نيبور الذي ارتبط تاريخها باسمه.

* * *

(١) راجع: اليمن والغرب: ص٤٢.

(٢)من ذلك قصة البعثة التي كتبها الكاتب الدانماركي(توركيل هانس) عام ١٩٦٢م ونقلها إلى العربية الأستاذ محمد أحمد الرعدي بعنوان(من كوبنهاجن إلى صنعاء ١٩٦٩م) وقد أعاد طبعه مصوراً مركز الدراسات والبحوث اليمنية بصنعاء(١٩٨٨م) وكتب مؤخراً الدكتور أحمد الصايدي الأستاذ بجامعة صنعاء بحثاً مفيداً صغيراً بعنوان: (المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن)، (دار الفكر١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)

البعثة الدانمركية إلى «العربية السعيدة»

١٧٦١-١٧٦٧م

فكرة البعثة:

تعد البعثة التي أوفدتها الحكومة الداناماركية إلى(العَربيّة السّعيْدة) في عام ١٧٦١م واحدة من أشهر الرحلات الاستكشافية إلى الشرق. وتعد كذلك أول بعثة علْميّة أوروبية إلى ذلك العالم النائي المجهول. وقد استمرت الرحلة إلى حين عودة عالم المساحة التطبيقية كارستن نيبور إلى الداناماركي عام ١٧٦٧م وحيداً من أصل أعضاء البعثة الستة سبعة أعوام. وكان قد بدأ رحلة العودة من مدينة بومباي بالهند ماراً عبر الخليج العربي وإيران وآسيا الصغرى، وقطع المسافة مابين القسطنطينية وكوبنهاجن وحيداً على ظهر جواد. وعلى الرغم من المخاطر والمحن التي توحي بها الوفيات الكثيرة، فقد حققت البعثة- ومازالت تعطي- مردوداً طيباً لأهمية ماجمع فيها من مخطوطات قديمة وموارد لها أهميتها في مجال الآثار والتاريخ الطبيعي. هذا إضافة إلى خرائط مسح من الطراز الأول لسواحل(العربية) بمقياس ذلك الزمن.

وكان ملك الداناماركي قد رعى هذه البعثة، وتكلف بجميع مصاريفها، ونسبها إليه فسميت«بعثة فريدريك الخامس العلمية الداناماركية إلى العربية السعيدة» ولكنها تعرف اليوم **ببعثة نيبور**، نسبة إلى الرجل الوحيد الذي حالفه الحظ بالعودة سالماً منها. وكانت البعثة قد أثارت في وقتها اهتماماً وتعاطفاً كبيرين في الأوساط الثقافية والعلمية في أوروبا.

كانت فكرة البعثة في أصلها من بنات أفكار المستشرق الألماني الأستاذ جي. دي. ميخائيليس من جوتينجن، الذي كان قد توجه بطلب إلى وزير الخارجية الداناماركي

بيير نستوف يرجوه فيه أن يلعب دور الوسيط، ويقدم إلى الملك خطة تقوم الداغارك بموجبها بإرسال عالم شاب إلى بلاد العربية السعيدة من أجل تولي مهام إنجاز دراسات ميدانية لمنفعة العلوم الشرقية عامة والدراسات الدينية بشكل خاص. فرحب الملك بالطلب عن طيبة خاطر، إذ كان يستطيب مناشدة الآخرين له برعاية العلوم والفنون الجميلة. كما كان رئيس الوزراء إيه. جي. مولتكه-الصديق المقرب من الملك - قد صادق أيضاً على المشروع. وبفضل هذين الوزيرين أصبح ممكناً تَطبيقُ خطة الأستاذ الألماني عَمَليّاً. وعوضاً عن إرسال عالم واحد، تشكلت بعثة من خمسة خبراء، بمرافقة ملازم يتمتع بمؤهلات عديدة إضافة لكونه جندياً سابقاً في سلاح الفرسان. وقع الاختيار على هذا الملازم، وانضم إلى البعثة على أمل خدمة أعضائها عند الحاجة.

وتبين للعيان منذ الأيام الأولى للرحلة أنها لن تكون رحلة سهلة، فالسفينة الحربية التي كان مقرراً لها أن تحملهم إلى القسطنطينية أجبرت على العودة إلى المرافئ الداغاركية مرتين: وفي المرة الثانية، أجل موعد الإبحار بسبب مرض خطير أصيب به كارستن نيبور، واحتاج إلى الراحة والعناية. وقبل بدء الرحلة من الداغارك، وقعت عدة خلافات مَهّدت فيما بعد لتَفَجُّرِ العِدَاء والحَسَد بين أفراد البعثة في القسطنطينية؛ إذ إن كلاً من عالم فقه اللغة فردريك كريستيان فون هافن وعالم النبات السويدي بيتر فورشكول كان يتولى وظائف رئيسية في البعثة، ويعد نفسه قائداً لها. كما كان كلاهما يشعران بالمرارة وخيبة الأمل لتعيين نيبور مسؤولاً عن الخزانة، فهو كان في رأيهما شخصاً جاهلاً تماماً! ومع ذلك فإن نيبور هو الذي كان يلعب دور الوسيط ومصلح ذات البين. وقد أصبح بعد وفاة رفيقيه قائداً طبيعياً للبعثة. ويمكن الاطلاع على مدى جدية وخطورة الوضع بينهما في الوثيقة المتعلقة بفترة الإقامة في القسطنطينية؛ فقد اشترى فون هافن كمية من الزرنيخ كافية لقتل ثلاثين شخصاً، وهذا ماجعل رفاقه في حالة ذعر شديد لفترة طويلة بعدها. ومع ذلك فقد كان بإمكان فون هافن التعويض عما فعله، وصيانة

سمعته، لو أنَّهُ كرَّس ميله للمخطوطات القديمة والنادرة، ولدراسة وجمع الكتب القيمة التي كان قد نشر منها مجموعات كبيرة في القسطنطينية؛ ولكنه خلال سنة كاملة من مكوث البعثة في القاهرة، تصرف على هواه، ولم يكلف نفسه زيارة رئيس أساقفة سيناء لدى وجوده في القاهرة، فخسر بذلك التسهيلات التي كان يمكن أن يحصل عليها، لزيارة دير سانت كاترين على جبل سيناء التابع للكنيسة الشرقية. وأخيراً، حين قام بزيارة الدير رفض الرهبان إطلاعه على مجموعاتهم الضخمة من المخطوطات العربية النادرة، ناهيك عن عدم بيعه أيّاً منها. وكان يفترض فيه أيضاً المرور بجبل المكاتب، ونسخ منقوشاته المكتنفة للأسْرار، ودراسة مدى علاقة مضمونها بالتقليد والحكايات المتوارثة، ولو أدى الأستاذ الدانماركي هذه المهمات لكان اكتسب شهرة عالمية، وحقق لملك الدانمارك شأناً عظيماً. فالشعر واللغة العربية كانا الموضوعين الوحيدين اللذين اقتصر اهتمامه عليهما. ولم يندب أحد حين توفي إثر إصابته بالملاريا في اليمن. وكان فون هافن أول المتوفين من أعضاء البعثة.

أما بيتر فور شكول أكثر أعضاء البعثة ثقافة، فقد أظهر قدرة أكبر على الاستفادة من الفرص التي أتاحتها له الرحلة قبل وفاته في مدينة يَريم مصاباً بالملاريا في صيف عام ١٧٦٣م. وقد كان معجباً بمعاصره عالم الطبيعة الموقَّر كارل فون لينيه وتلميذاً له. وعمل جاهداً على إفادة أستاذ ه مما اكتشفه وجمعه من مختلف النماذج النباتية، وحقق بذلك إفادة أيضاً لملك الدانمارك وشعبه.

وحين وصول خبر وفاة فورشكول إلى السويد، كَرَّمه وخلّده لينيه بإطلاق اسمه على نبتة من فئة القراص المصرية. ووصف العالم لينيه «نبتة الفورشكول» بأنها عنيدة، قاسية، برية، مستعصية وخشنة.

وقبل التحاقه بالبعثة إلى (العربية السعيدة) كان كارستن نيبور غير معروف بالمرَّة،

وكـان طموحـه لا يتـعدى منصب مسّاح أراض. وفي جـوتينجن سُمح للشـاب الذكي بالانضمام إلى دائرة المستشرق الألماني الأستاذ ميخائيليس، صاحب فكرة بعثة الملك فريدريك الخامس العلمية هذه، إلا أن الذي لعب الدور الأهم في بَلْوَرَةِ اهتمامات نيبور كان أستاذ علم الفلك توبياس ماير، إذ عَلَّمه طريقة تشييد ما كان يعرف بالإسطرلاب، التي طورها لتحديد المسافة الجغرافية بواسطة الأبعاد القَمريَّة، وأصبح نيبور باستعماله الآلة المصممة لقياس أبعاد الأجرام السماوية عن الأفق خير مطبِّق لطرق مَاير العلميّة. وكان نيبور بالنسبة لماير كما كان فورشكول بالنسبة للينيه. كان الأستاذان الألمانيان قد شدَّدا في توصياتهما على ضم نيبور إلى أعضاء البعثة إلى الشرق، لقدراته في ملاحظة ووصف العادات، ووفائه وتكتمه وموضوعيته واقتصاديته، وحسن تفهمه وتقويمه للأمور، وفوق كل ذلك حرصه الشديد على العناية بالتفاصيل الدقيقة، وإخلاصه تجاه الأمور المعهودة إليه، وعدم ادّخاره أي جهد ممكن لحل كافة المشاكل التي تواجهه. وحقيقة إن نَيبُور هو الوحيدُ الذي تغلَّب على مِحَن الرِّحلة وحافظَ على صحَّةٍ جَيّدة نسبيّاً، لا يمكن تحليلُها بنشأته الفلاحيَّةِ فحَسْب، بل وبقدراتِه الفَذَّة على التكيُّف واتّباع تقاليدِ الحياة الشّرقيّة التي راقَبها عن كَثَب، فهو كان يَعدّ ارتداء الثّياب العَربيّة التّقليديّة مَسْألةً في غَاية الأهميَّة، وقد ساعدَتْه في التَّغلُّبِ على ظُروفِ الطَّقس القاسيَةِ وغيرِ المألوفة، وسَهَّلتْ له مَهمّة رَسْمِ المُدُنِ وتحديدِ مواقعِها بالنسبةِ لبعْضِها، فَتنقَّل في طولِ البلادِ وعَرْضِها دونَ أن يَلْفتَ الأنظارَ إليه.

* * *

نيبور في صنعاء :

وصل نيبور إلى صنعاء مع الثلاثة الباقين من البعثة فدخلها في السادس عشر من يوليو عام ١٧٦٣م/ ٦ محرم ١١٧٧هـ، حيث أمضى عشرة أيام نزل فيها مع زملائه ضيفاً على الإمام المهدي عباس(ت١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م) آخر أهم الأئمة من آل القاسم، والذي استقبله يوم ١٩ يوليو في داره(بستان المتوكل) وترك لنا نيبور وصفاً طريفاً ومفيداً لبلاط المهدي عباس وحاشيته في ذلك الاستقبال[١] الذي تم فيه ترحيب المهدي بالبعثة ومعرفة غرضها، وبعد ذلك أرسل إلى أعضائها حيث ينزلون ضيوفاً عليه بعض المال والأغنام وملابسَ عربيةً وخنْجراً يمنيّاً (جَنْبِيّة) وقد رسمَ زميلُ نيبور الرّسّامُ (باورينفايند) لوحةً مشهورةً لنيبور وهو يرتَدِي تلكَ الملابِسَ ويتمنْطَقُ بالجَنْبِيَّة[٢] .

حصل نيبور على ترخيص من الإمام بالإقامة في اليمن ما شاء، وهذا ما سمح له ولأعضاء البعثة تقويم النتائج المحققة حتى ذلك الحين. ولم تُثْبِط وفاة عالميَ البعثة من عزيمته، واستمر بحزم وثبات استكشاف اليمن طيلة الأشهر الثمانية اللاحقة لوصوله. إلا أنه اضطر في نهاية الأمر للرحيل إلى بومباي، بسبب من مرضه، ومن أجل حماية ماجمعه فورشكول من النماذج النباتية والحيوانية، ووفرة مذكراته التي سجلها. إلا أنه فقد عضو البعثة السويدي الذي فارق الحياة بسبب الملاريا قبل الإقلاع من ميناء المخا

---

(١) نقلنا ترجمة لوصف نيبور لذلك الاستقبال وغيره عن كتابه : Travels Throug Arabia, I, 368-9 في كتابنا(مئة عام من تاريخ اليمن(ط٢) : ٢٩-٣٢) فليراجع.

(٢)ما زالت تلك الملابس والجنبية وغيرها من أشياء خاصة برحلة نيبور محفوظة في قسم خاص بالمتحف الوطني القومي بكوبنهاجن في الدانمارك الذي زرته في أوائل شهر أغسطس عام ١٩٨٩م. واطلعت عليها، وكانت قد نقلت قبل ذلك للمعرض الناجح(اليمن ثلاثة آلاف سنة من الحضارة والفن) الذي افتتح رسمياً في ميونخ وتشرفت مع رسميين يمنيين وألمان بالمشاركة في افتتاح المعرض في أبريل سنة ١٩٨٦ . وصدر بالمناسبة مجلد كبير يحمل نفس العنوان باللغتين الألمانية والإنجليزية ساهم الكاتب في تحرير بعض مواده.

مباشرة. كما فرّق القَدر بينه وبين آخر رفيقين له من أعضاء البعثة أثناء الرحيل على ظهر السفينة التجارية الإنكليزية المتوجهة إلى بومباي، وهما زميله الرسام باورينفايند، والطبيب كريستيان كارل كرامر.

ولم يكن يشعر هو نفسه بصحة جيدة بعد الرحلة البحرية الشاقة فاضطر للبقاء أربعة عشر شهراً في الهند قبل استعادته الشعور بالقدرة على الشروع برحلة العودة. وكان في مدينة بومباي فعالاً ونشيطاً كعادته، وأمضى وقته في استكشاف كهف المعابد الشهير على جزيرة الفيل.

* * *

عودة نيبور إلى كوبنهاجن:

وعاد نيبور إلى وطنه بالباخرة مروراً بمسقط في عمان وبوشير وشيراز وأنقاض مدينة بيرسيبوليس في إيران (فارس). ورغم المعاناة الجسدية الطائلة، فقد نجح نيبور في نسخ القسم الرئيسي للمذكرات والنقوش التي يرجع تاريخها إلى عهود أقدم ملوك الفرس المعروفين، علماً بأنه لم يكن قادراً على قراءة كتابات داريوس وزيريكسيس، ولكنه نسخها بعناية ودقة متناهيتين. وهي لا تزال النسخ الدقيقة الوحيدة الموجودة حتى الآن. وهذا ما مكّن الأسقف مونتر وراسموس راسك والألماني جروتفيند من فك طلاسم الكتابة المسمارية، ووضع الأسس لتفهم أعمق للحضارة السومرية والبابلية والآشورية. وبسبب من ممارسته الرسم تحت أشعة الشمس الساطعة، تأثرت عيناه، مما أدى إلى تضررهما بشكل دائم، جعله يعيش ضَريراً أواخر حياته.

وفي نوفمبر عام ١٧٦٥م، لخّص رحلة عودته إلى بوشير والبصرة وبغداد، ثم الموصل وحلب وقبرص، عن طريق يافا والقدس إلى دمشق، ومروراً بآسيا الصغرى

والقسطنطينية. وامتطى ظهر جواده عبر أوروبة، ووصل أخيراً إلى كوبنهاجن في نوفمبر عام ١٧٦٧م، فاستقبل بمظاهر الحفاوة والتكريم وعين نقيباً للمهندسين. وفي وقت لاحق، منح العضوية في عدد من الجمعيات العلمية والثقافية. وأحدثت كتب رحلاته الأربعة- التي نشرها على حسابه في ألمانيا، وكذلك نشره لأعمال فورشكول النباتية والحيوانية- أثراً كبيراً، وأكسبته شهرة واحتراماً في معظم أنحاء أوروبة. وفي عام ١٧٧٣م كان يعتزم القيام برحلة ثانية إلى السودان عبر طرابلس هذه المرة، ولكن زواجه[1] أدى إلى تغيير مخططات سفره، وعندما سئم منصبه العسكري، تقدم بطلب وحصل على وظيفة أمين سجل ريفي في المنطقة التي ترعرع فيها. وقضى بقية حياته في قرية ميلدورف الألمانية، شاغلاً نفسه في قضاء المهمات الرسمية والعمل في حديقته ومزرعته. وكان قد أقلع عن النشاطات الأدبية لعدد من السنين. إلاأنه عاد واستأنف نشر المقالات والدراسات في المواضيع الشرقية، بباعث من سيل الزيارات الذي لم ينقطع حتى وفاته في عام ١٨١٥م، وتهافت كثيرين على تلقي العلم عن(العربية السعيدة) على يديه.

* * *

(١) أنجب ابناً حمل اسمه، واشتهر في الجامعات الألمانية بصفته أستاذ التاريخ الأوروبي، الدكتور كارستن نيبور.

انطباعات من إيران الإسلامية
بعد رحيل الإمام الخميني
ومطلع التسعينات من القرن [1]

تمهيد :

1 - مرجع الذاكرة إلى أواخر سنوات الشاه :

لم يكن يدور بخلدي قبل إبلاغي التوجه إلى طهران قبل أسبوعين منَ الرحلةِ أنني سأزور هذا البلد الإسلامي الكبير في هذه الأيام الصعبة والخطيرة من تاريخ المنطقة التي وقفت فيها قبل عامين حرب طويلة بين العراق الشقيق وإيران الإسلامية لتعلن الأخيرة وقوفها بصلابة مع عدو الأمس- بغض النظر عن موقفها من الكويت- فالمسلمون عرباً وفرساً معرَّضون جميعاً لخطر صليبي داهم، أوكما أعلن الرئيس الإيراني حجة الإسلام علي هاشمي رفسنجاني في خطبة يوم الجمعة (١٩/ ١٠/ ١٩٩٠) أن مقدسات المسلمين يدنسها الصهاينة في القدس الشريف ويذبحون الفلسطينيين، في ظل دعم وحشد أمريكي وغربي يقصد به الشعوب الإسلامية في المنطقة ومقدساتها في مهبط الرسالة، ودعا للتوحُّدِ والوقوف جبهة واحدة. كان هذا قبل يومين من وصولنا إلى مطار طهران واستقبال وفدنا البرلماني بحفاوة ظاهرة من قبل حجة الإسلام أسد الله

---

(١) نشر على حلقات في صحيفة (الميثاق) الأعداد(٤١٨-٤٢١) الصادرة بين ٥/ ١١/ ١٩٩٠ و٢٦/ ١١/ ١٩٩٠.

بيّات، نائب رئيس« مجلس الشورى الإيراني» بعد عصر يوم الاثنين٢٢/ ١٠/ ١٩٩٠، وكان لنا معه فيما بعد لقاءات وحوار صادق سواء في العلاقات الثنائية أم في قضايا الإسلام والمنطقة في هذه الظروف الخطيرة.

لم أكن قد تهيأت عند السفر بمعلومات دقيقة، ولم يُسْعِفْني الوقت للإعداد لما كنت أرغب في البحث أو التحقق منه فيما كنت قد قرأت عنه ككتاب صديقنا الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ فهمي هويدي (إيران من الداخل) وسبق لي مناقشته حين كان في صنعاء غير مرة، آخرها حين مشاركته في ندوة شيخ الإسلام الشوكاني في ربيع هذا العام. وفي الطائرة بين إستا نبول وطهران وجدتني أرجع القهقرى لأكثر من عشر سنوات، فعند ما كنت في جامعة (كمبردج) في بريطانيا جمعتني كلية الدراسات الشرقية لأكثر من عامين حتى اندلاع الثورة الإسلامية في إيران عام١٩٧٩ بثلاثة من الباحثين الإيرانيين يمثلون ثلاثة توجهات متناقضة أتاحت لي وقتها معرفة الكثير من الأمور التي ما كان في الوسع معرفتها إلاّ عن طريق القراءة الجادة لما كان يصدر خارج (إمبراطورية الشاه) وكان كثيراً بكل اللغات- ماعدا العربية!- بداية من السلاسل الموسوعية والأكاديمية (المتخصصة) في بريطانيا وأوروبة وأمريكا، مروراً بتحليلات الصحف ومقالاتها التي لم تخلُ - في تلك الفترة- من موضوع عن إيران وحكم الشاه، ونهاية بمنشورات وملصقات قوى المعارضة التي برز منها - غير مجاهدي خلق وبشكل متسارع قبيل سقوط الشاه - الحركة الثورية الإسلامية التي قادها الإمام (آية الله روح الله الخميني) وسار في ركبها عدد من زملائه من الآيات وتلاميذهم من حجج الإسلام وفقهاء الحوزات ومؤيديهم من مثقفين وسياسيِّين إسلاميين وليبراليين متحررين كان يعيش الكثير منهم في العراق الشقيق، وآخرون غيرهم في أوروبة اختياراً أو نفياً، وكانت الجامعات الأوروبية تحوي أعداداً ملحوظة منهم طلاباً وباحثين وأساتذة، بعضهم مختصون مرموقون.

كان أول الثلاثة الذي ربطتني به صداقة وصلة طويلة (الدكتور مرتضى آية الله الشيرازي) أستاذ اللغة العربية وآدابها في كلية (الإلهيات بجامعة طهران وعميدها الآن) الذي أذهلني بطلاقة عربيته وغزارة علمه وسرعة بديهته ولطف معشره، وسرعان ما عرفت منه أنه تخرج في جامعة القاهرة وأدرك عميد الأدب العربي المرحوم الدكتور طه حسين في آخر أيامه، ومن الجامعة نفسها نال الدكتوراه عن العلامة الزمخشري (ت٥٣٨هـ) (لغوياً ومفسراً) [١] وقد جاء إلى جامعة كمبردج في شهر أكتوبر عام ١٩٧٦ نفسه الذي التحقت فيه بالجامعة المذكورة، أستاذاً متفرغاً لعامين يتوفر فيهما على دراسة أصول ومصادر العلامة والفيلسوف والأديب العربي الكبير (عمرو بن بحر الجاحظ) (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) صاحب البخلاء والحيوان والبيان والتبيين وغير ذلك من عيون الأدب العربي في القرن الثالث.

أسوق هذا لعلاقته بموضوع مهم كان ولا يزال في صلب العلاقات التاريخية العربية- الفارسية التي كانت في القرون الأولى في ظل الأخوة الإسلامية ولغة القرآن الكريم، ذلك النسيج الحضاري المتكامل الذي بلغ ذروته في القرن الرابع للهجرة، ولم تكن الشعوبية (العنصرية) والملل والنحل الغريبة قد انتشرت في (دار الإسلام) وكان الجاحظ من أول المتصدين لها، وكان صديقي الدكتور الشيرازي يجادلني قبل قيام الثورة الإسلامية بقليل حول ذلك مردداً أن ثورة إسلامية ستهب قريباً لتطيح بعرش الطاووس ليكون من أهم أهدافها القضاء على ما كان يطلق عليه الجاحظ ومعاصروه من شعوبية تفرق بين العرب والفرس.

---

(١) صدر الكتاب مطبوعاً في القاهرة (دار الثقافة-١٩٧٧) بهذا العنوان وبتقديم الأستاذ الدكتور حسين نصار أحد أساتذته في كلية الآداب، والذي أثنى في مقدمته على مقدرة الدكتور الشيرازي «على الكتابة بلغة عربية سليمة سلسة . . ويكشف عن رجل قادر على البحث في التراث العربي . . » كل ذلك «بالرغم من اختلافي مع المؤلف في بعض ما قال، وفي خطأ بعض المنهج الذي سلكه . . » مقدمة/ ٣.

لقد فارقت الدكتور الشيرازي بعد عودته لعشر سنوات، وكنت متشوقاً لأن أسمع منه قبل أسبوعين عندما فوجئ باتصالي به في طهران، رأيه فيما كان يطرحه من قضايا العلاقات خاصة وقد عاد السلام بين العراق وإيران، وهو موضوع ناقشته مع آخرين كبار من رجال الدولة الإسلامية، وسأعود إليه.

بعد ذكر ما استرجعته الذاكرة وطائرتنا تعبر أجواءَ الهضبة الإيرانية من الجانب التركي، وليس من طريق الشرق الذي مرّ منه العرب عند الفتح قبل أربعة عشر قرناً. لقد استرجعت كذلك لقائي وتزاملي مع الإيرانيين الآخرين- غير الدكتور الشيرازي- وهما الدكتور فضل اللّه الذي كان يُدَرِّسُ اللغة الفارسية في قسم الدراسات الفارسية المجاور مباشرة لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية الذي كان يرأسه المستشرق الكبير المختص باليمن البروفسور (روبرت سرجنت) أما الآخر فهو زميلي في الدراسات العليا (لطيف) وهو في الأصل شاب طبيب متخرج في الجامعة لفت نظري التحاقه بالدراسات الإسلامية العليا البعيدة عن مجال اختصاصه.

كان الدكتور فضل الله شخصية اجتماعية لها علاقات واسعة خاصة مع العرب، وكان المحافظون من البريطانيين في الجامعة وعلى رأسهم البروفسور سرجنت يضيقون بتحرره ويساريته ومهاجمته الصريحة للشاه ونظام حكمه. وكان مُطَلّقاً لسيدة إنجليزية أنجب منها ولداً وهوفي الخامسة عشرة من عمره يتنازع معها الإشراف عليه، ومنه كنت أسمع أموراً وآراء لم يكن يتفق معها الدكتور الشيرازي الإسلامي المحافظ، وقد اختفى الدكتور فضل الله بعيد الثورة، وانقطعت عني أخباره، وكم استغربت لـمّا سألت عنه صديقي الدكتور الشيرازي في طهران فأجاب باقتضاب أن الرجل بات منذ فترة لا يذكرها ترجماناً كبيراً برئاسة الدولة له لحية بيضاء طويلة، مضيفاً بأسلوب جاحظي ظريف « أنه يراهنني لو أستطيع أن أميّز بينه وبين أي آية من الآيات الأجلاء! ».

أما الطبيب (لطيف) الذي كان يحُضرّ معي هو وزميل إنجليزي آخَر ذكي مهذب اسمه (مارك) دراسة (الكامل للمبرد) وفيه كما هو معلوم أخبار الخوارج، و (المنقذ من الضلال) لأبي حامد الغزالي، وكذا (مقدمة ابن خلدون)، فكثيراً ما كانت اللغة العربية تُشْكل عليه، فكنت أساعده في فهمها كما كان يساعدني في ترجمتها إلى الإنجليزية التي كان يجيدها كالإنجليز تماماً، وكان وضعه لغزاً احترت فيه طويلاً، ولم أجد عند الدكتور الشيرازي ما يفيد، حتى كان ذات يوم آخر العام الدراسي الأول عندما طلب مني مساعدته في فهم بعض معاني نص عربي يُعدُّ ترجمته إلى الإنجليزية (وقد نشره فيما بعد)، وكان ذلك الحكم الشرعي الصادر بإعدام (علي محمد الشيرازي) الملقب (بالباب) وهو المؤسس للبهائية وقد قتل عام١٨٥٠م ورغم أن الموضوع كان في إطار البحث إلاّ أن ذلك نبهني على أن غموض الشاب الطبيب ربما كان بسبب تعلقه أو انتمائه إلى (البهائية) التي استمدت اسمها من ابن صاحب ذلك المحكوم عليه (بهاء الله) الملقب بميرزا حسين علي نوري خليفة (الباب) والمدعي بأنه (من يظهره الله!) وقد أفشى إليّ الزميل الإنجليزي مارك بأنه قد اعتنق البهائية عن طريق (لطيف) ووافاني بكتيب بالإنجليزية فيه خلاصة لأهم ترهات وتجديفات المذكور باسم (كتاب الأقداس) و(الإيقان).

وكانت المصادفة بعد أيام أن عرض التلفزيون البريطاني في القناة الثانية برنامجاً عن (البهائية) شاهدنا فيه حجّ آلاف من الناس من (إيران) وجنسيات مختلفة إلى ضريح ضخم منصوب على هضبة مرتفعة في مدينة (عكّا) بفلسطين التي دفن بها سنة١٨٩٢م، حيث ترعاه وتقدم إسرائيل له ولحجاجه كل التسهيلات !!

سألت الدكتور الشيرازي عن دور البهائية في دولة الشاه، فأجاب وقتها بما معناه: سيتحدث الغرب عن حقوق الإنسان عندما نصبح دولة إسلامية بإذن الله ونقدم للمحاكمة كل من لا يؤمن بالله، وأن محمداً ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين، وبظرف زائد

أضاف: «لكنني سأتحفظ فيما لو عاد لطيف» مستشهداً بأنني ربما قد أفلحت في هدايته! . . فأجبت: ولكن من سيهدي نحو مليون بهائي لديكم يقال: إن منهم رئيس الوزراء عباس إحسان؟ . .

كل هذا وغيره كثير جال بخاطري ولم أتنبه إلاَّ بعد الإعلان عن الهبوط في مطار طهران الدولي ليكون أول برنامجنا في صباح اليوم التالي زيارة (مرقد الإمام آية الله الخميني) وياله من مشهد يفوق الوصف.

* * *

2 - زيارة مرقد الإمام الخميني:

ليس جديداً القول بمدى الدور القيادي الهام والكبير الذي قام به الإمام الخميني قبيل انتصار الثورة الإسلامية وبعده، ليصبح المرجع الأول والأخير في أهم القضايا المصيرية، بما فيها «الحرب والسلام». يتضح هذا من ذلك القلق الذي كان يبديه الفريق الجانح للسلام مع العراق، فيما لو جاء أجل الإمام الطاعن في السن (كان قد تجاوز ٨٦ وقتها) قبل أن يقول كلمته في الأمر. وبعد رحيله قبل أكثر من عامين ترك بصماته على مختلف أوجه الحياة، بداية من تثبيت (ولاية الفقيه) في الفقه السياسي الشيعي الإيراني وليصبح (مرشد الثورة) نائباً عن الإمام الغائب الذي طالما تركت أمور الدولة والسياسة وكثير من شئون الدين والدنيا لغير العلماء، في انتظار تلك العودة التي مضى عليها قرابة اثني عشر قرناً. . وبات اليوم العمل بوصايا الإمام الخميني واجتهاداته المكتوبة أو المتداولة من أقوال نهجاً يُردد ويُعمل به دستوراً للدولة الإسلامية، بل وربما أعظم خطراً.

كان على رأس برنامج الزيارة المقرر، وقبل الذهاب إلى (مجلس الشورى

الإسلامي) لإجراء محادثات مع فضيلة حجة الإسلام الشيخ أسد الله بيات نائب رئيس المجلس، الانطلاق في تمام الساعة الثامنة صباحاً « لزيارة المرقد الطاهر لسماحة الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه ووضع إكليل من الزهور على مرقد سماحته » كما نص (البرنامج) الذي كان قد أعد مطبوعاً باللغتين الفارسية والعربية، وسلم لنا في المطار حين استقبالنا بحفاوة في اليوم السابق.

استغرقت رحلة رتل سياراتنا الرسمية ثلاثة أرباع الساعة خارج العاصمة طهران، وربما كان الزمن يطول كثيراً لو لم تكن تقودنا سيارات الشرطة بأزيزها المعروف وإيقاف رجال المرور لحركة المرور في الشوارع والمداخل التي بدت فيها زحمة المدينة في هذه الساعة المبكرة من الصباح، وبعد اجتياز المدينة طهران بأحيائها الحديثة المترامية الأطراف مررنا معظم الوقت بأراضٍ زراعية معظمها شبه مهجور، وتبين لنا تباشير الاقتراب من (مرقد الإمام) عندما بدأت تظهر طلائع حُرّاسِه من (الحرس الثوري) منتشرين على أرض واسعة، فهمنا فيما بعد أن مساحتها ٥٠٠ هكتار (يساوي الهكتار ٤٠٤٧ متراً مربعاً) جرى تخصيصها لتكون مشهداً ضخماً سيضم في المستقبل العديد من المباني والأماكن الخاصة بالزوار والإدارة والحدائق ومواقف الحافلات والسيارات، وربما مدرسة أو حوزة يرتادها الطلاب، وغير ذلك فيما يعدون له ليصبح أحد أبرز معالم إيران الإسلامية، وبما يتناسب مع رمز قائد ثورتها المدفون في عاصمتها (طهران) وليس في مدينة (قم) مَحَجّ الشيعة حيث قبور أئمتهم ومقر علمائهم، ومنها كان منطلق الإمام الخميني في بداية أمره أوائل الستينيات ولا في مدينة (مَشهد) مزارهم إلى قبر الإمام الثامن علي الرضى، ولربما يأتي يوم يفوق فيها تلك المشاهد والقبور التي كانت كما هي (النجف) و(كربلاء) مصادر عقائدهم بين المغالاة والاعتدال.. والخروج أو الثورة..

كان قد أنجز - في زمن نسبي - الجامع الكبير الذي ترتفع في وسطه قبة ضخمة مصفحة من الخارج بالذهب الخالص، ويقع تحتها ضريح الإمام الخميني يحيط به قفص

كبير من القضبان التي تسمح برؤية القبر وإلقاء الزوار الأموال إلى داخله تبركاً . . ومن هذه الأموال التي ترتفع في بعض الأيام أكثر من متر يتم جمعها والإنفاق منها لاستكمال بقية المنشآت التي تم منها إقامة متحف متواضع جميل على مقربة من الباحة فرش (كالمسجد) بالسجاد، وزينت حيطانه بصور - معظمها زيتية - تحكي حياة الإمام الخميني وأشهر المواقف التي ظهر فيها - وتنتشر في أركانه كراس وموائد مرمرية وضع عليها أوعية كبيرة مليئة بالفواكه المختلفة من بينها أنواع كثيرة من أجود ماذقت من العنب. وبعد أن سجلنا في دفتر الزوار كلمة تناسب ذكرى الإمام وجلال مرقده الذي بدأ عدد قليل من الزوار يتوافدون عليه، عدنا إلى طهران لتكون بداية أي حديث مع من قابلناهم عن حكمة الإمام وتعاليمه . .

* * *

مجلس الشورى يناقش

قانون الرياضة والألعاب!

3- حوار مع حجة الإسلام بيّات :

بعد زيارة مرقد الإمام الخميني عدنا مباشرة إلى مقر (مجلس الشورى الإسلامي)- البرلمان- يرافقنا السيدان عباس أبو طالبي نائب رئيس لجنة التجارة وأرسلان بورزماني عضو لجنة السياسة الخارجية في المجلس ولم يفارقانا من ساعة االوصول إلى لحظة المغادرة.

كان في استقبالنا حجة الإسلام الشيخ أسد الله بيّات نائب رئيس المجلس والقائم بأعمال الرئيس حجة الإسلام (كاروبي) الذي كان مريضاً يعالج في المستشفى، ويعتذر عن عدم قدرته على استقبال الزوار فلم نتمكن من لقائه.

تبين لنا منذ استقبال الشيخ بيات لنا في المطار في اليوم السابق مدى الاحترام والتقدير العالي الذي يحظى به الرجل من قبل زملائه والمحيطين به، وهو بالفعل كما ظهر لنا من هذا اللقاء وغيره على درجة من الدماثة، لاتكاد الابتسامة تفارق شفتيه، وكان بملابسه المتواضعة (زي الفقهاء) وجسمه النحيل وقامته القصيرة، كثير الحركة، عميق التفكير، منتظماً في سلك العمل السياسي من وقت مبكر ولعله مصاقب لمرحلة دراسته والتحاقه بالمؤسسة الدينية، كنت قد عرفت من زميلي الأخ الأستاذ سعيد الحكيمي- رئيس الوفد- أن الشيخ قد زار صنعاء وعدن قبل بضع سنوات (خلال الحرب العراقية- الإيرانية) وأن تلك الزيارة لم تكن موفقة، لهذا لم أفاجأ عندما بدأ حديثه بعد الترحيب وكلمات المجاملة بإعجابه بمدينة صنعاء التاريخية، وبشكل خاص أن بها مسجد الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) الذي تبرك بزيارته والصلاة فيه بصفته أقدم مسجد في الجزيرة بعد مسجد رسول الله ﷺ في المدينة، وأضاف رابطاً الموضوع أن علاقة إيران باليمن قديمة منذ القرون الإسلامية الأولى، لكنها انقطعت في العصر الحديث حتى تم فتح سفارتين في العاصمتين أوائل السبعينيات، ثم فترت العلاقات كثيراً في السنوات العشر الأخيرة، وأنهم سعداء الآن لتطوير العلاقات الأخوية بين الشعبين المسلمين خاصة بعد أن تحقق لليمن إعادة وحدته، وأن حكم الشورى الإسلامي هو القائم في البلدين، وهو ما يسمى في الغرب بالنظام الديمقراطي. . وقبل أن يستطيل الحديث في مسائل كثيرة تولى الرد وشرح وجهة نظرنا في معظمها زميلي رئيس الوفد الذي تلطف فطلب مني الحديث عن العلاقات التاريخية وهو ماكنت أعرض له بشكل خاص مع من التقينا بهم كنائب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء الدكتور حبيبي ووزير الخارجية الدكتور علي أكبر ولايتي وغيرهم.

قدمت لحجة الإسلام بيات نسخة من كتاب (تاريخ مدينة صنعاء للرازي الصنعاني المتوفى عام٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م) مستهلاً حديثي بالقول: إن هذه الطبعة هي الثالثة من هذا

الكتاب الذي سبق أن نشرته محققاً قبل نحو عقدين، وأصل مؤلفه من مدينة (الري) الإيرانية، التي خرج منها كثير من أعلام الحضارة الإسلامية، ومنها ومن (الجيل والديلم وطبرستان) وغيرها من أصقاع فارس جاء إلى اليمن مئات بل ألوف من القرنين الثالث والرابع بل والخامس، واستقر معظمهم في اليمن، فقد كانت داراً للإسلام واحدة ولغة القرآن هي السائدة. هذا غير أولئك الفرس الذين جاؤوا قبل الإسلام لمناصرة اليمنيين بزعامة القَيْل الملك الحميري سيف بن ذي يزن ضد المدّ الحبشي المدعوم من (بيزنطة) التي كانت وقتئذ القوة الكبرى المتزعمة للعالم المسيحي في ذلك العصر. ولقد استقر أولئك في صنعاء وغيرها، وهم من عرفوا (بالأبناء) وبرز منهم عدد مشهور من التابعين ومن تلاهم من علماء وقضاة أمثال طاووس الصنعاني الأبناوي، ووهب بن مُنَبِّه الذماري الأبناوي (ت١١٤هـ) قاضي صنعاء، المشهور بغزارة علمه ومعرفته بلغات قديمة منها لغة التوراة والإنجيل وإليه يعزى إقحام (الإسرائيليات) في تفسير القرآن الكريم، وستجدون عشرات من تراجم وأخبار كثيرين آخرين من الأبناء اهتم بهم الرازي سواء لأنهم من مشاهير علماء صنعاء أو لأنهم في جذورهم الأصلية من أبناء جلدته، وهو ما أوضحته بالتفصيل في مقدمة الكتاب.

كان حديثي بالعربية الفصحى واضحاً، وهو ما جعله يطلب من المترجم أن ينقل رده فقط، فقد فهم الحديث كله، وقد استغربت عدم تحدثه معنا بالعربية مادام فهمه لها عالياً خاصة وأن درجة (حجة الإسلام) درجة علمية لا يبلغها إلاَّ من كان قد تدرج في مدارج العلوم الشرعية والأصول الفقهية، وعلوم العربية وآدابها، وقد عزوت ذلك في البداية إلى حضور زملائه الآخرين وهم لا يعرفون مثله اللغة العربية. شكرني على الكتاب الهدية وأظهر اهتماماً واضحاً بالحديث، وبالكتاب الذي بدأ يقلب صفحاته، وخلال رده بالفارسية تذكرت أنه كان لفت انتباهي ذكره لمسجد (الإمام علي) وما إذا كان قد زار (جامع صنعاء الكبير) أيضاً؟ وسنحت الفرصة حين سأل أين دفن طاووس

ووهب؟ أجبت: إن الأول دفن بمسجده المعروف حتى اليوم باسمه (مسجد طاووس) في حيّ طلحة، وإن الآخر كذلك في مسجد وهب المعروف الآن (بجامع العرضي)، وإن المؤرخ الرازي ذكر بإسهاب كل مساجد صنعاء القديمة حتى عصره وخص منها (جامع صنعاء الكبير) بصفته مع جامع الجَنَد أقدم مسجد بُني في اليمن في حياة النبي الكريم، وقد تهلل وجهه، حين أضفت أن الجامع بني في (بستان باذان) آخر حاكم من الأبناء الفرس لصنعاء، وبإسلامه أمره رسول الله ﷺ بالبقاء والياً من قبله على صنعاء وما حولها. أما مسجد الإمام علي كرم الله وجهه فلم يذكره الرازي، ولم أجد ضرورة، بل لم يكن من اللائق أن أشكك في صحة بناء الإمام علي لما يعرف بمسجده، فعللت إهمال الرازي لتضارب الروايات والأخبار حول دخوله صنعاء، لكن المؤكد عوده من اليمن ولحاقه برسول الله ﷺ بعد حجة الوداع.

مضى الوقت سريعاً وكان على الشيخ بيات أن يرأس جلسة المجلس وقد تأخر افتتاحها بسبب هذا اللقاء، وقبل أن يودعنا عرض علينا أن نحضر جانباً من الجلسة إذا مارغبنا، توجهنا معه فدخلنا مقصورة الضيوف ونزل هو إلى قاعة المجلس مرتقياً طاولة الرئاسة، وبعد قليل تقدم مترجمنا البارع مودعاً لتكليفه التوجه فوراً لينضم إلى الوفد الإيراني المتوجه إلى بغداد حيث تجري استعدادات في ذات اليوم وفي العاصمتين لإعادة فتح السفارتين. وحتى وصل خَلَفُهُ لم يتسن لنا فهم ما يدور في قاعة المجلس من نقاش. وتبين لنا بصعوبة من أنّ مجلس الشورى الإسلامي يناقش قانوناً قدمته الحكومة خاص بالألعاب الرياضية والنشاط الرياضي للشباب!

* * *

4 – لقاء بثلاثة من أعيان إيران

(رجل دولة، ورئيس القضاء.. وأستاذ جامعة)

لا أدري– في أول الأمر– لماذا قفز إلى ذهني المقارنة بين أوجه الشبه فيما تعمد إليه الثورات والانقلابات العسكرية في المشرق والمغرب العربيين، بل وعالمنا الثالث بشكل عام، ومنها (الثورة الإسلامية في إيران) حين تُسلم تسيير دولاب الدولة من إدارة واقتصاد وسياسة خارجية إلى ذوي الاختصاص من (تكنوقراطيين وسياسين هواة أو محترفين، متعلمين، ومثقفين..) لم يكن لهم في الغالب أي دور في تفجير تلك الثورة أو صناعة الحدث، لكنهم يصبحون جزءاً من النظام الجديد عينه التي يرى بها وأداته التنفيذية في جهاز الحكم، ويتفاوتون في القرب أو البعد عن مركز صناعة (القرار)، لكنه من النادر أن يصل بعضهم إلى المشاركة في تلك الصناعة، لهذا يكتفي من يستمر مدة أطول في حُسن تنفيذ (القرار) بغض النظر عن قناعاته أو عدم مشاركته..

لقد تبين لي أن ما جال بذهني من مقارنة سريعة هي تلك الدقائق المعدودة التي مضت، ونحن في إحدى قاعات (مبنى رئاسة الجمهورية) بعد عصر يوم الثلاثاء الموافق ١٤/ ١٠/ ١٩٩٠ في انتظار أن يستقبلنا الدكتور حسن حبيبي النائب الأول لرئيس الجمهورية حجة الإسلام هاشمي رفسنجاني، وقبل أن أستكمل تذكر مصير بعض الأسماء لما كنت أفكر فيه، أمثال بني صدر أول رئيس للجمهورية، وقطب زاده وزير الخارجية الذي أعدم.. دخل علينا الدكتور حبيبي، كهل تجاوز الخمسين بسنوات، يرتدي بذلة أوروبية من دون ربطة عنق ككل من يرتدي الملابس الغربية في إيران الإسلامية، وكان مظهره وشخصه وهو يرحب بنا بحرارة، ثم حديثه معنا يدل على أن

الرجل كان أكاديمياً من أساتذة الجامعة، وقد تبين لنا ذلك فيما بعد، فقد أمضى فترة يحاضر في السوربون ويحمل شهادتي دكتوراه في القانون والآداب.

* * *

فلسفة البراءة من المشركين :

لم يخرج حديث الدكتور حبيبي، الذي يقوم أيضاً بعمل رئيس الوزراء، عمّا نشرته الصحف الإيرانية عن المقابلة في صدر صفحاتها الأولى في صباح اليوم التالي. فقد أعرب عن تهانيه لليمن قيادة وحكومة وشعباً بمناسبة تحقيق الوحدة اليمنية، وقال: إن العلاقات بين الشعب الإيراني المسلم والشعب اليمني المسلم لها جذور تاريخية تعود إلى بداية العهد الإسلامي. وأعرب عن أمله في أن تحقق لجنة التنسيق الوزارية المشتركة نتائجها المرجوة في توسيع وتعميق العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية... وعندما دار الحديث حول أزمة الخليج ووجود القوات الأجنبية في المنطقة لم يتحدث بإسهاب بل أكد موقف إيران المعلن والداعم للعراق فيما لو شُنّت أي حرب ضده وأنه يأمل في حل سلمي تتولاّه دول المنطقة ويؤدي إلى انسحاب مشرف للعراق لأن غير ذلك- كما قال- «سيؤدي إلى حالة من الفوضى والاضطراب في الكثير من المقررات الدولية» ثم أضاف- كما نقل المترجم ونشرته الصحف أيضاً: «أننا أعلنا بما نؤمن به من فلسفة البراءة من المشركين، فالجمهورية الإسلامية الإيرانية آمنت وتؤمن بالمبدأ القاضي بوجوب رحيل الأجانب من منطقة الخليج وتسوية مسائل المنطقة بمشاركة دولها.» وقد أمّن الأخ رئيس الوفد على كلامه واستذكر معي بعض الآيات القرآنية الكريمة التي لا تحتمل أي لبس أو تأويل كقوله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾

[سورة المائدة ٥١]، وإذ عقب الدكتور حبيبي مؤمناً بالعبارة «صدق الله العظيم» لم يتبين لي طيلة المقابلة الرسمية ما إذا كان الرجل يعرف اللغة العربية أوله إلمام بها أو ربما أنه يحذقها.

* * *

آية الله يزدي (الاجتهاد) و (المحكمة الإسلامية):

لعل (تشريفات مجلس الشورى الإسلامي) استنسبت أن تكون مقابلاتنا متعادلة بحيث يستقبلنا في فترة دوام بعد الساعة الثانية نفر غير من قابلناه في الصباح أوالعكس. فصباح يوم الأربعاء ١٧/ ١٠ كان لنا لقاء سياسي مع وزير الخارجية الدكتور علي أكبرولايتي، في حين استقبلنا في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر سماحة الشيخ آية اللّه محمد يزدي رئيس السلطة القضائية، كان منتظراً في صالة واسعة مفروشة، في صدرها مكتبة وفي أدناها صالة فيها كراس جلس على واحد منها في الرأس، وكانت أجهزة التصوير والتسجيل معدة عند دخولنا، استقبلنا الشيخ ببشاش متوكئاً على عصى ورحّب بنا بعربية سليمة، وحرص أن يستمر الحديث بها حيث تشعب إلى مسائل كثيرة بداية من الاجتهاد ونهاية بدعوته إلى إنشاء محكمة إسلامية محايدة. تطرق آية الله يزدي إلى موضوع اختصاصه بصفته أعلى سلطة قضائية في البلاد قائلاً: إن القضاء في الإسلام هو نظام خاص مستمد من كتاب الله دونما حاجة إلى مصادر أخرى، وإن هذا النظام قادر على تسوية مختلف المشاكل وإيجاد الحلول لها على أساس الأصول (الفقهية) في كل زمان ومكان، وإن التشريع الإسلامي لم يتخلّف إلاّ لمّا «أقفلت بعض المذاهب باب الاجتهاد» وليس هذا حال مذهبهم (أي الجعفري) كما استدرك. وهنا قلت مازحاً: ولكن من أقفل باب الاجتهاد ؟! أئمة تلك المذاهب أم جهلاء المتعصبين المقلدين بعدهم بزمن طويل ؟! قال: هذا صحيح إنه التقليد والتعصب الأعمى. إن أستاذنا وإمامنا الراحل- يقصد الإمام الخميني- قد أوصانا بأهمية وواجب الاجتهاد، حتى لو خالفنا

أقواله في بعض المسائل . قلت له : هذا هو نفس موقف الإمام الشافعي مع تلاميذه الذي اعتبر (الاجتهاد) ابتلاء للخلق في طاعة الله كما ابتلى طاعتهم في غيره. وللأئمة الآخرين أقوال- كما تعلمون- كثيرة في نبذ التقليد والحث على الاجتهاد، وقد قام الإمام شيخ الإسلام الشوكاني مجدد القرن الماضي بدور هام في إعادة الاجتهاد إلى مكانته الأولى حين كانت الأمة تتلمس حلّ مشاكلها السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي واجهتها بعد ارتفاع الرسول العظيم ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وحين كانت النصوص لا تجيب كان دور الاجتهاد. . تبسَّم مؤيداً قولي، ثم ضرب أمثلة متعلقة ببعض أحكام الحدود - غير القصاص- ومدى دور الاجتهاد فيما يثار من السبل والطرق المؤدية إلى تطبيق ما فيه نص ولا مجال للاجتهاد فيه . . . إلخ

وبعد نقاش مفيد وطويل كان خلاصة رأيه: « أن الأحكام والتعاليم الإسلامية قادرة وحدها على تغيير أمور المجتمع الإسلامي والأخذ بيد المسلمين إل منازل رفيعة ومتقدمة» .

وعندما انتقل بنا الحديث إلى أوضاع العالم الإسلامي اليوم وحاجته إلى التعاون الصادق والتكامل المثمر، عبّر عن أسفه، لكنه حمد الله على توقف الحرب بين الجارين المسلمين: إيران والعراق، وقال مقترحاً: إن العالم الإسلامي ودوله في حاجة ماسة إلى تشكيل (محكمة إسلامية محايدة) بغية النظر في الخلافات القائمة بين الدول الإسلامية، وذلك لكي لا يكون ثمة حاجة للجوء إلى منظمات التحكيم الدولية [سواء في لاهاي- محكمة العدل الدولية- أو غيرها] على أن يخول لهذه المحكمة (القدرة ليس في الإدانة فحسب أو إصدار حكم عادل، بل المعاقبة واتخاذ الإجراءات الكفيلة بالردع) .

كان الحديث شيقاً لصدق لهجة الشيخ ومحاولته تفهم الرأي الآخر فيما يثار، رغم علو قدره وغزارة علمه ومكانته .

* * *

أية الله يزدي وجمال الدين الأفغاني :

كان قد دار بيننا وبين سماحة الشيخ آية الله يزدي- رئيس السلطة القضائية العليا- حين اللقاء به جوانب متعددة منها حول اجتهاد فقهاء الإسلام وعلمائه على اختلاف مذاهبهم عبر العصور وما لاقاه الكثير منهم من عنت المتعصبين وجهل العامة والمتفقهين وغيرهم ممن يطلق عليهم في عصرنا « المتطرفون » وإذا كانت عصور الظلام التي سادت فيها مقالة « إقفال باب الاجتهاد » وتعددت عبرها « ديار الإسلام » بعد أن بليت أولاً بحكم الظلمة، وساد الجهل وتعطل العقل فيسر ثانياً لحكم المستعمر واحتلاله. . فإن عالمنا الإسلامي اليوم يعيش مرحلة عالمية لامكان فيها إلا للانفتاح الثقافي والعلمي والتعاون والتكامل بين دوله، وإن عصر الخلافات المذهبية وما سببته من تصدع وتعصب كان يقود إلى اقتتال. . كل ذلك وغيره قد مضى منذ زمن بعيد. . وقد استذكرنا في «اللقاء- الحوار» تلك الجهود الإصلاحية التي بذلها أواخر القرن الماضي الشيخ جمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧م) وتلميذه الإمام الشيخ الأستاذ محمد عبده (ت١٩٠٥م) وامتدت بعد ذلك إلى مدرسة التجديد والإصلاح الإسلامي التي وضع أسسها الأخير، وتلاها لجنة في القاهرة شارك فيها عدد كبير من علماء المسلمين من بينهم سنة وشيعة لا من اليمن فقط كانت تهدف إلى التقريب بين المذاهب وإزالة الفرقة وسوء الفهم بين علمائها. لقد لفت نظري أنه كلما ذكرت اسم الشيخ جمال الدين الأفغاني (في هذا اللقاء وغيره مع الآخرين) يتم التصحيح لي مباشرة بأن اسمه «الأسترابادي» وليس « الأفغاني» وذلك نسبة إلى مدينة «أستراباذ» الواقعة شمال إيران، وهذا موضوع آخر كان قد أثير حديثاً من قبل عدد من الباحثين منهم عرب أمثال الدكاترة شلق والمرحوم لويس عوض وآخرين. . لقد تعمدت ذكر اسم الشيخ جمال الدين بلقب (الأفغاني) لأرى رد فعل الشيخ الوقور بعد أن تكرر على مسمعي هذا التصحيح الذي كان آخره قبل دقائق

من اللقاء من قبل مرافقي- أحد أعضاء مجلس الشورى- حين مررنا ونحن في طريقنا إلى مقر السلطة القضائية العليا بشارع يحمل اسم (جمال الدين الأستراباذي) فلما سألت مرافقي عما إذا كان المقصود بذلك تخليد اسم السيد (جمال الدين الأفغاني) أجاب بما استوحيت منه تجهيلي (أو هكذا فهمت من المترجم): إن (أستراباذ) مدينة فارسية في إيران وليست في (أفغانستان) حتى ينسب الشيخ جمال الدين إليها، علقت على الإجابة بأنني أعلم أن «أستراباذ» اشتهرت لأن القائد اليمني المشهور يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة والي خراسان اتخذها قاعدة له في حملته الحربية على جرجان وطبرستان، وقد عمرت فيما بعد بالمساجد والمدارس الإسلامية حتى لقبت (بدارالمؤمنين) لأن أهل السنة المضطهدين لجؤوا إليها قبل أن يدمرها (تيمورلنك) وكان واضحاً أن مرافقي لا يعلم شيئاً مما ذكرت له، لهذا لم يجب عندما استفسرت منه ما إذا كان يظن أن آراء الفيلسوف الثائر جمال الدين (الأستراباذي) لها علاقة بتقاليد مسقط رأسه المتسامحة، أم أنها كانت نظرة إسلامية جديدة، واكتفى بالقول بعربية تعتريها لكنة بعد أن سمع الترجمة: الله أعلم. . !

وبالعودة إلى الحديث مع سماحة آية الله يزدي- في نفس الموضوع - قال بعد أن صحح لي بلطف بقية اسم الشيخ (جمال الدين)! إنه يحمد الله أن طرق الاجتهاد قد وجدت طريقها في العصر الحديث، أما في مذهبهم فهو قاعدة أصيلة منذ القدم. فأوضحت له أن الأمر كذلك في اليمن حيث نمت منذ القرن الثامن للهجرة/ الثالث عشر للميلاد مدرسة الاجتهاد اليمنية التي نبذت التمذهب والتعصب، والتقى فيها وتتلمذ عليها علماء كبار من المذهبين الواسعين في اليمن الزيدية والشافعية، كان لهم إنتاج فقهي وعلمي معروف في العالم العربي والإسلامي. وفي آخر الحديث قدمت له كتاب الإمام الشوكاني (درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة) الذي سبق أن نشرته محققاً عام١٩٨٥م بعد حديث عن شيخ الإسلام الشوكاني ذاكراً أن هذا نموذج لمعالجة أحد

علماء تلك المدرسة الاجتهادية لما كان مثار خلاف وغلو وخصام لا مُسَوِّغَ له بين أبناء الأمة الإسلامية . .

* * *

كتابان هدية :

وفي صباح اليوم التالي أرسل إلي سماحة الشيخ هدية أودعها في الفندق . وكانت كتابين بالعربية ، ذيل كلمة الإهداء اللطيفة فيهما بتوقيعه بخطه الفارسي الجميل . كان أحد الكتابين للعلامة عبد الحسين شرف الدين الموسوي (توفي عام١٩٥٧م) أحد علماء الشيعة في جنوب لبنان الذي ترعرع ودرس في العراق على علماء النجف أواخر القرن الماضي ، وقد نزح إلى مصر عام١٩١٠م وكان له فيها لقاءات ومناظرات مع علمائها بغية التعريف بالمذهب (الإمامي) من الشيعة والتقريب بين المذاهب ، وكان له من نتائج ذلك أحد كتبه الذي عنونه « بالمراجعات» والمهدَى من الشيخ آية الله يزدي ، بعد أن أعيدت طباعته حديثاً في طهران عن طبعته الثانية الصادرة عام١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م والكتاب معروف في الأوساط العلمية بصفته أحد أوائل جهود علماء الشيعة في « إطار محاولة إشاعة الفهم والتفاهم بين الشيعة والسنة» وقد أشار إليه الأستاذ فهمي هويدي في كتابه (إيران من الداخل) ولا يتسع المجال لتناول (مراجعاته) التي حوت / ١١٢/ مراجعة يرد فيها موضحاً ما عرض من مسائل مختلفة من وجهة نظره الشيعية . . كانت رسالة «الهدية» واضحة من الكتابين (الآخر بعنوان المذاهب الخمسة) وذلك بأن الإجابة أو التفصيل لما دار سريعاً مع سماحة الشيخ في ذلك اللقاء نجدها أكثر إيضاحاً فيهما ، كما أنها ردّ كريم على تقديمي له كتاب الإمام الشوكاني . .

* * *

الدكتور الشيرازي . .وبحثه حول الجاحظ :

كنت مشتاقاً للقاء بصديقي الدكتور مرتضى آية الله الشيرازي الأستاذ في كلية (الإلهيات) بجامعة طهران. فقد انقطعت عني أخباره منذ غادر بريطانيا عائداً إلى بلده إبان إرهاصات الثورة الإسلامية قبل عشر سنوات . . ووجدته - بعد بحث- في آخر ليلة لنا في طهران، فزرته في داره في أحد أحياء طهران الحديثة، وكان لقاءً حاراً سعدت فيه بلقاء صديق قديم يضفي حديثه الشيق بهجة فكرية خاصة. كان فيما سألته استفسار عن خلاصة ما توصل إليه بحثه العتيد عن الجاحظ الذي كان قد جاء إلى جامعة كمبردج متفرغاً لإعداده . . وكانت دهشتي بالغة حين أفاد أنه لم يفرغ منه وبالتالي لم يطبعه حتى الآن . . فهل معنى ذلك أنه لم يتوصل إلى إثبات الفرضيات التي كان قد وضعها عن الأصول الفارسية في فكر الجاحظ؟ لم يتضح لي ذلك تماماً لكنه عزا الأمر إلى انشغالات علمية وأخرى خاصة . .

لقد تأثرت الجامعات الإيرانية والحياة الأكاديمية كثيراً بالأوضاع الجديدة التي أحدثتها الثورة، ثم سنوات الحرب مع العراق، وكان لنا في ذلك حديث طويل، سألته عما إذا كان يتردد على الندوات أو المؤتمرات الدولية المتخصصة التي تتم في بريطانيا أو في غيرها ولها علاقة بالدراسات الإسلامية؟ عبر عن أسفه لعدم تمكنه في السنوات الأولى من المشاركة للظروف الخاصة التي أحاطت بإيران، وكان في العام الماضي في لندن شارك في مؤتمر رعته إيران حول أحد المواضيع الخلافية بين الشيعة والسنة وهو: «حديث غديرخم» أو «حديث الموالاة» . .

ولما استفسرت منه هل ثمة جديد في هذا الموضوع القديم . . ؟ أو بمعنى آخر هل كشفت مصادر جديدة عما يؤيد ما ذهب إليه النافون أو الجازمون بصحة ذلك الحديث الشريف الذي طال الخلاف والنزاع حوله قروناً؟ أجاب بمنطق العلماء: «إنك تعلم أن

كل المصادر قد سكتت ولم تحدثنا بأي شيء من أقواله أو أفعاله ﷺ منذ قفل عائداً إلى المدينة بعد انتهائه من حجة الوداع، حتى وصل إلى المدينة ». ثم تساءل: « هل يعقل أن رحلة العودة الطويلة هذه لم يَجْرِ بها أخبار أو تعليمات عن النبي ﷺ؟» قلت ممازحاً: وإذا لم تذكر المصادر كما تفضلت أي أخبار صحيحة فهل تنطق مالم تقل ؟!.. أجاب جازماً: «لا بالطبع، لكن هذه هي المسألة التي شغلت بها منذ زمن، وقد قدمت إلى ذلك المؤتمر ورقة بحث بالإنجليزية سوف أرسلها إليك.» فعسى أن تصل ليتيسر الحديث حول هذا المعنى على ضوء ذلك.

* * *

* *

*

قراءة في نص فتوى غير منشورة للعلامة المَقبلي (ت ١١٠٨هـ/١٧٢٨م) في حُكم البَاطِنيّة (الإسماعيلية) من (أهل هَمْدَان)[(١)]

١- مدخل إلى النص وتاريخه:

النص الذي وصل إلينا في ورقتين حوتا ٤١ سطراً كتب بخط النّسخ: يمني ثخين واضح، ولم يذكر الناسخ اسمه ولا تاريخ النسخ أو تاريخ الفتوى التي يجيب فيها العلاّمة المَقْبَلي معاصراً له هو أحمد بن عبد الهادي المَسْوَري، إلاَّ أنه بالإمكان تحديد زمن هذه الفتوى بإيراده ذكر علي بن أحمد بن القاسم وإضافته عبارة «هذه الأيام»؛ وعَلَيٌّ هذا كان أميراً على (صَعْدَة) قَبْلَ وَبَعْدَ مغادرة المَقْبلي البلاد عام١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م ليقيم مُجاوراً بقيَّة عُمره في مكّة، فتكون الفتوى قبل هذا التاريخ بقليل، أي قبل مايزيد عن٣٣٢عاماً من يومنا هذا.

ورغم أن العَلاَّمة المَقْبَلي أشهر من أن يُعرَّف، كما أن النّص الذي يبرئُ فيه فرقة الإسماعيلية من الكفر، واضحٌ فيه رأيه ومُجَادلته الكلامية، لهذا فسوف نكتفي بذكر نُبذة عن المَقْبَلي وماله عَلاقةٌ باجتهاداته في الموضوع، مع ذكر عُجالة عن الإسماعيلية الباطنية نثبت بعدها تحقيق النص نفسه، وبهوامشه تثبيت مَصَادره واستشهاداته أو اقتباساته.

(١) بحث منقح ينشر مترجماً للمرة الأولى في العدد (٢) من الإصدار الجديد لمجلة الدراسات العربية New Arabian Studies الصادر في كمبردج، بريطانيا ١٩٩٢ بتحريرالمرحوم البروفسور ا ر بي سرجنت وزميله المرحوم الدكتور ر وبن بدول.

٢- العلامة صالح بن مهدي بن علي المَقْبَلي (١٠٤٧- ١١٠٨هـ/ ١٦٣٧-١٧٢٨م):

عَلَمٌ شَامخٌ من أعلام الفكر والفقه والاجتهاد في اليمن[١] ولد ونشأ بمدينة (ثُلا) شمال صنعاء، وبها وبكوكبان وشبام كان تتلمذه وأخذه مختلف علوم العربية والفقه والحديث والتفيسر على كبار مشائخ عصره وعلمائه.

في الثلاثين من عمره، وكان قد بلغ من العلم مبلغاً كبيراً، رحل إلى صنعاء سنة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م للاستزادة من طلب العلم. وفي صنعاء - كما يذكر الإمام الشّوكاني[٢] - «جرت بينه وبين علمائها مناظرات أوجبت المنافرة لما فيه من الحِدّة والتصميم على ما تقتضيه الأدلة، وعدم الالتفات إلى التقليد، وكان عظيماً قَويّ النفس، شجاعاً في الـمُجاهرة بالحق، وعدم المبالاة بأذية الناس، حيث أدى به الأمر إلى ترك اليمن والرحيل إلى مكة سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٦٩م فلم يسلم من الإيذاء بها..»

كان العلاّمة المَقْبَلي واحداً من كبار أعلام مدرسة التجديد والاجتهاد التي استقام «تيارها الزّيدي المتفتح على أهل السنة» منذ أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بداية بالعَلاّمة الكبير محمد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م) ومعاصريه، ونهاية بشيخ الإسلام محمد بن علي الشّوكاني (ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٦م) ومدرسته في القرن الماضي[٣].

---

(١) انظر مصادر ترجمته في(مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني) للكاتب: ٢٨٣-٢٨٥.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع١/ ٢٨٩.

(٣) د. حسين عبد الله العمري: الإمام الشوكاني رائدُ عَصره -دراسات في فقهه وفكره. دار الفكر- دمشق، دار الفكر المعاصر- بيروت١٤١١هـ/ ١٩٩٠م(ص: ١٥٤-١٥٥).

لقد كان منطلق تلك المدرسة الاجتهادية إبطال مقولة «إقفال باب الاجتهاد» ورفض «التقليد» ومن ثَمَّ «التمذهب» المؤدّي إلى التعصب والجهالة، ومن ذلك تكفير بعض الفرق للبعض الآخر.

ومثّلت أبحاث واجتهادات العلامة الـمَقْبَلي مقاصد هذا التيار بشكل واضح في جُملةٍ من كتبه المشهورة والمطبوع معظمها[1] (كالأبحاث المسددة، والمنار، ونجاح الطالب، والأرواح النوافخ، والعلم الشامخ، والإتحاف) وغيرها، وعنها وعن صاحبها أوجز ذلك الإمام الشوكاني بقوله شعراً[2].

لِلَّهِ درّ المَقْبَلي فإنّه	بَحْرٌ خِضَمٌّ دَان بالإنصافِ
(أبحاثه) قد سَدَّدت سَهْماً إلى	نَحْر التَّعصُّبِ مُرهف الأطرافِ
(فمنارُه) (عَلَمُ) (النجاح) لطالبٍ	مُذْ رَوّح (الأروح) بـا(لإتحافِ)

كان كتابه (العلم الشامخ) الذي أضاف له عنواناً إضافياً له مغزاه: (في إيثار الحق على الآباء والمشايخ)، من أوائل ما طبع من كتبه في مصر عام (١٩٢٨)، وهو من أعظم الكتب اليمنية التي كان لها أثرها في أوساط التجديد العربي الإسلامي الحديث؛ حيث ناقش المقبلي في كتابه هذا وذيله (الأرواح النوافخ) أصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة حاثاً على الاجتهاد نابذاً للفرقة، داعياً لترك التقليد. وفي بحثه لأسباب الخلاف

(١) كان آخر ما طبع بعد (العلم الشامخ) وذيله (الارواح النوافخ) مصر (ط١) ١٩٢٨، (ط٢) دار الحديث بيروت ١٩٨٥م كتاب (الابحاث المسددة في فنون متعددة) مع ذيله للعلامة ابن الأمير بعناية وتحقيق العلامة الرئيس القاضي عبد الرحمن بن يحيى الارياني (وزارة الإعلام والثقافة- صنعاء) ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، و(المنار في المختار من جواهر البحر الزخار) مؤسسة الرسالة (بيروت) مكتبة الجيل الجديد (صنعاء) ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. وعلى هذه الطبعات كان اعتمادنا في الإحالات.

(٢) ديوان الشوكاني (أسلاك الجوهر) والحياة الفكرية والسياسية في عصره تحقيق ودراسة د. حسين بن عبد الله العمري، (دار الفكر- دمشق/ ط٢/ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٤م) ص: ٢٥١-٢٥٢.

والاخـتـلاف يذكـر في (العلـم الشـامخ) بعـد تدليل لما نهى عنه النبي الكريم من «مظان الخلاف» يشير إلى أن المسلمين في مناظراتهم عند الأمراء والملوك في قضايا كلامية بداية من موضـوع « القدر ومسألة خلق القرآن . . . » حتى صارت « عـصبيّة والدعوى من الجانبين أن ذلك تديُّن، وماهو إلاّ أنهم لـمّا تعدَّوا أطوارهم ولم يقفوا على حدهم الذي وقفهم الله ورسوله ﷺ، تركهم الله وشأنهم ولبسهم شيعاً وأذاق بعضهم بأس بعض . . حتى استحكم الشر وصار الناس شيعاً، يولد المولود في قوم فلا يَسْمَع من الإنصاف شيئاً، بل يجد شيعته مُطبِقين على أن مخالفهم ليس على شيء، وإنما هي فتنةٌ وحَادثةٌ في الإسـلام، ويمدحون نفوسـهم بكل خَيْرٍ، وينزهونهـا من كل شَرّ، ويعـزون إلى المخالف نقيض ذلك! »[1].

ثم يبسط آراءه في مناقشاته لأصحاب الفرق من متكلمين (معتزلة وأشعرية) وصوفية (ابن عربي ومدرسته) وكذا (الباطنية- الإسماعلية) والإمامية وغيرهما من فرق الشيعة، كل ذلك وغيره بقوة عَارضة وحُجج شَرْعيّة بالغة الاجتهاد والإنصاف (الموضوعية). مع عِلْمٍ غزير فيما يتناوله من قضايا شائكة سبق بحثها، وحدث الخلاف حولها بين مختلف العلماء وأهل المذاهب. وفي رأيه عن «الباطنية»- كما سنرى في فتواه -أنهم ليسوا كفاراً- لأنه لا يرى جواز تكفير مسلم- بل ينطبق عليهم ما ينطبق على المتكلمين من«الزنادقة» أو المنتحلين نحلة ابن عربي من المتصوفين، ففي نقاشه لحقيقة (الكسب) عند الشعراني (ت٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م) الذي قال: «لا يمكن الاطلاع على حقيقة الكسب لا بالعقل ولا بالشرع ولا بالكشف لا في الدنيا ولافي الآخرة . . » يقارن المَقْبَلي أقوال مختلف الفرق وينص « فإنهم» - أي الباطنية- « إنما أبطلوا العقل ليبطل الشرع المترتب عليه . . »[2].

(١) العلم الشامخ(ط٢): ١٩٥-١٩٦.

(٢) الارواح النوافخ: ٤٤١.

وفي كتابه (الأبحاث المسددة في فنون متعددة) الذي جمع فيه مباحث تفسيرية وحديثية وفقهية وأصولية مختلفة يأتي رده على آراء الباطنية في أكثر من عشرة مواضع مُبطلاً لتفاسيرهم واحتجاجاتهم فيما وقف عنده العلماء من تَأويلٍ و«مُتشابه» الذي هو عند المَقْبَلي : «منه ماإليه طريقٌ يتوصل إليه بردّه إلى المُحكم والعَقْلِ، ومنه مالايمكنه فيه ذلك، كأوائل السُّور وشيءٍ من الصِّفات . . »[1] .

٣- الإسماعيليون (أوالإسماعيلية) :

هم القائلون بإمَامة إسماعيل بن جعفر الصَّادق بعد أبيه (ت١٣٣هـ/ ٧٥٠م) وقبل أن تنقسم الفرقة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد بعد خلافة المستنصر الفاطمي لم يختلفوا عن بقية الفرق الشيعيّة إلاّ بقولهم: « نحن الإسماعيلية لأننا تميزنا بهذا الاسم وهذا الشخص» واشتهر للإسماعيلية ألقاب (كالقرامطة) نسبة إلى رأسهم في الكوفة حمدان قِرْمَط (منتصف القرن الثالث) ومنهم قرامطة اليمن أيام علي بن الفضل الخنفري (ت٣٠٣هـ/ ٩١٥م) أول حاكم ونَاشرٍ لمذهبهم في نهاية القرن الثالث حين خرج مع المنصور إسماعيل بن فرج بن حوشب داعياً من الكوفة للهادي الإسماعيلي، لكن لقب (الباطنيّة) أكثرُ شُهرةً واستمراراً عبر القرون، لقبوا به ولزمهم- كما يذكر الشهرستاني [2] - « لحكمهم بأن لكل ظَاهرٍ بَاطناً، ولكلِّ تَنْزيلٍ تأويْلاً» .

ومع ذلك فللإسماعيلية ألقاب أخرى غير هذه، حسب البقع التي نشؤوا بها والمقالات التي دَعَوا إليها، أو الزعامات التي التفوا حولها، ومن ذلك في اليمن

---

(١) الابحاث المسددة: ٤٧٤-٤٧٥ .

(٢) الشهر ستاني : الملل والنحل١/ ١٩٢ ؛ وانظر عن (الإسماعيلية) ومنصور اليمن وعلي بن الفضل وبعض أقوالها في (الحور العين) لنشوان بن سعيد الحميري(ط٢): ٢٠٠؛ ٢١٦, ٢٥١-٢٥٤ .

(الـمَكارِمَة) من (يـَـام) في نَجْران و (هَمْدَان) شـمـال غـرب صنعـاء وشرق حـراز (غَرْبَ صَنعـاء)، وهـم بقيـة باقيـة إلى اليـوم من أسـلافهم الهـمدانيين والصليـحيين الـذين بلغ مذهبهم ذروته على يد الملك الداعي الكبير علي بن محمد الصُّلَيْـحي منذ اعتنق الدعوة الإسماعيلية وأعلنها عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م وانطلق من قمة جبل (مَسَار) بحَراز ليوحِّدَ اليمن كُلّه تحت حُكمه، بيد أن الدعوة دخلت أواخر حكم السيِّدة بنت أحمد الصُّليحي في دوامة الغموض الفاطمي في مصر حول الإمام المستور وانتمت إلى فكرته، وبوفاتها عام ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م[1] أسدل الستار على الحكم الصليحي والدعوة الفاطمية التي لم تجد لها صدىً عند جموع اليمنيين إلا في تلك الأقليّة المتوارثة من بعد حكم نواب الصليحيين (آل حاتم الهمدانيين)، الذين قضى على مركزهم الأيوبيون عام٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، خاصة وقد دخلت الدعوة بعد ذلك في دور الستر وانتقل مركز ثقلها إلى الهند، وبقي بين باطنية الهند من (البُـهْرة) وباطنيّة اليمن (الـمَكارمة) صلاتٌ وتواصلٌ لم ينقطع حتى اليوم.

كانت الباطنية القديمة«قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصَنَّفوا كتبهم على هذا المنهاج» ثم أوغلوا في الغموض والتهويمات، وأحاطوا علمهم بالسرية، وحصروه في درجات أعلاها داعي الدُّعاة، وقد كان الـمَقْبَلي مصيباً حين ذكر في جواب (فتواه) أن ابن عربي وأمثاله كان ذكياً و (أشْطَرَ منهم) في كتاباته ومصنفاته فأمكن ظهور كتبه ودونهم، وتداولها الناس، بغض النظر عن القبول لها أو الخلاف معها.

أما الباطنية فرغم ظهور أعلام مبرزين منهم في ميادين العلم والمعرفة والأدب، فقد اتسمت كتبهم الخاصة بالسريَّة ومَحْدودية التداول، وذلك لما تحويه من أباطيل وتفاسير لا يقرها الشّرْعُ أوالعَقْلُ. وكانت بهذا عرضة للمصادرة والحرق في مختلف العصور، من

(١) راجع كتاب الدكتور حسين فيض الله الهمداني (الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن) مصر: ١٩٥٥.

قبل أئمة الزيديّة وغيرهم من حكام الدول الأخرى التي حكمت اليمن، كما حدث في غيرها، وهذا ما يفسر لنا أمرين:

الأول: اندثار الفكر الإسماعيلي نتيجة اختفاء عشرات بل مئات المؤلفات المعروفة أسماؤُها لعَدَدٍ كبير من دعاة وعلماء ومؤرخي الفرقة، بداية من عصر الازدهار (القرن الخامس والسادس للهجرة/ الحادي والثاني عشر للميلاد) حتى عصر المَقْبَلي، حيث عاش ثم رحل إلى الهند بعد ظهور الفرقة السليمانية أشهر مُتأخريهم ذوي التصانيف كالدّاعي سُليمان بن حسن (ت١٠٠٥هـ/ ١٥٦٩م) وحسن بن إدريس بن علي بالهند أيضاً مات عام (١٠٢١هـ/ ١٦١٢م)[١].

الثاني: أن الكثير الشائع مما وصل إلينا عن الفرقة وآرائها كان عن طريق المخالفين[٢] لها إلى درجة العداء أو التكفير، وذلك في معرض طرحهم لأقوالهم وردهم عليها.

ومع ذلك فما زالت بعض مؤلفاتهم المخطوطة محفوظة في الهند وبعض المكتبات الأوروبية ومكتبة الجامع الكبير بصنعاء وبعض مكتباتهم الخاصة[٣] ولم ينشر منها إلاّ القليل من الرسائل والأجزاء المتفرقة من بينها (كنز الولد) للداعي إبراهيم بن حسين الحامدي (ت٥٥٧هـ/ ١١٦٢م) الذي اعتنى بتحقيقه ونشره في (فيسبادن - المانيا ١٩٧١) الأستاذ مصطفى غالب صاحب كتاب (أعلام الإسماعيلية) المطبوع في بيروت عام ١٩٦٤م والذي نَشَر رسائل أخرى لهم، كما فعل أيضاً الأستاذ محمد حسن الأعظمي في نفس الفترة وغيرهما.

---

(١) راجع مصادر الحبشي: ٩٤و١٢٥و٢٨٨.

(٢) انظر- على سبيل المثال- ما كتبه مسجلاً لحادثة متعلقة بالفرقة في اليمن المؤرخ والفقيه والمحدث الشافعي عبد الرحمن بن الديبع الزبيدي اليمني (ت٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م) وهو من المتأخرين قبل المقبلي بنحو قرن فيما: «حصل من الاختلاف والتنازع بين العلماء في تكفير المعاهدين الذين يقال لهم الإسماعيلية..» كتابه: (نشر المحاسن اليمانية)، تحقيق: أحمد راتب حموش، دمشق، ١٩٩٢، ص: ٢٤٢-٢٤٨.

(٣) راجع مصادر الحبشي: ١٢٥و٢٨٨.

٤- نصّ الوثيقة (جواب الفتوى):

بسم الله الرحمن الرحيم

جواب سيدنا وشيخ إسلامنا صالح بن مهدي بن علي بن عبد الله المقبلي رضي الله عنه، عَلَى أحمد بن عبد الهادي المسوري رحمه الله:

«وذكرتم أهل همدان[1]، وما حكمهم وحكم عوامهم، وأنكم اطلعتم على كتبهم في هذه الهَيْضَة، قد اتفق لهم نحوها[حين] غزاهم مطهر بن الإمام شرف الدين[2] على غرّة، فأصاب كتبهم وأحرقها، واستبقى من خاصها فطالعه ذلك؛ ووضح لي مثل الشمس أن القوم ليسوا على مِلَّةٍ من مِلَلِ الكفر، بل هم من نمط الزّنادقة[3] لا يتقيدون

---

(١) المقصود بهم(الباطنية) من همدان يسكنون ناحيتها(مديرية همدان) شمال غرب صنعاء على بعد نحو ١٠كم منها.

(٢) هو القائد المشهور الذي دوّخ العثمانيين الأتراك، توفي بثلا عام ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م.

(٣) يوضح المقبلي في كتابه (المنار) ٢/ ٤١٠ معلقاً على صاحب(البحر الزخار) ٦/ ٢٠٧ شرح (كتاب الازهار) للعلامة الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (ت ٨٤٠هـ/ ١٤٣٧م) في قوله: «تقبل توبة الزنديق» بما يلي: معنى الزّنديق: هو من لا يفرّق بين صدق ولا كذب، ولا حقٌ ولا باطل، وكلٌ ما عَنّ له، فهو ومقابله مَنْ ضدٍّ ونقيض وخلاف بمنزلةٍ واحدة. فقال مانعو توبته: لا طريق إلى توبته؛ لأنها لا تقبل لو وقعت، لكن لا طريق لنا إلى وقوعها؛ إذ عنده أنَّ لفظه بالتوبة ولفظه بالكفر أمرٌ سواءٌ، فلم يتحقق وقوع توبة، لا في الباطن ولا في الظّاهر ولا نظنٌ ذلك؛ لأنَّ علمنا بحاله وصِفَتِهِ يمنع حصول الظَّنّ. إذا عرفت ذلك، أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] لم ينطبق على المدّعي؛ إذا لم ينته الزّنديق، لا بحسب علمنا، ولا بحسب ظنّنا، فكأنَّ كلمته بالتَّوبة ليس تحتها معنى.

والحاصل أنَّ الانتهاء والتَّوبة أمرُ قلبيٌّ، وطريقنا إليه الألفاظ، والزّنديق قد أبطل هذا الطَّريق، وليس لنا طريق سواه، فبقي وصفه الأوَّل سالماً، فيُؤخذ به

لكنَّه يقال: قد قبل النبي ﷺ مِنَ المنافقين ما تظهروا به مِنَ الإسلام مع علمه بنفاقهم، واستمرَّ أصحابه بعده على ذلك. =

بقانون، وقد ارتبوا على كافر- من فلسفي وغيره- إلاّ مازاده ابن عربي[1] وأهل نحلته، فإنهم أشطر منهم، ولذا أمكن ظهور كتبه دونهم.

أما حكمهم فكما ذكرتم في حكم المنافقين. ولكن العترة[2] لم يفصلوا أحكام المنافقين. والظاهر منهم أنهم اعتصموا بكلمة الشهادة عن القتل والسبي وغنيمة الأموال لحديث: «عَصَمُوا مني دماءَهم وأموالهم»[3]، فلهم هذا من أحكام المسلمين. ولقوله ﷺ: «أولئك الذينَ نُهيتُ عن قتلهم»، وقد استُؤْذِنَ في قتل مُنافِقٍ فقال: «أليس يشهد أن لا إلَهَ إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله؟

قالوا: بلى يشهد ولا شهادة له!

قال: أليس يُصَلي؟

قالوا: بلى يصلي ولا صلاة له!

قال أولئك الذين نهيت عن قتلهم»[4] ولهم من أحكام غير المسلمين: أن لا يُصَلَّى

= كان عمرُ إذا مات مَنْ يتّهمه بالنّفاق، قال: انظروا حذيفة هل تبع جنازته؟ فيقتدي عمر بحذيفة؛ لأنَّه كان يعرفهم بتعيين النبي ﷺ ذلك له، ولا شكَّ أنَّ الزّنديق يحتمل صحَّة إسلامه في نفس الأمر، فقبوله ومعاملته معاملة المسلم أولى من المنافق، والله أعلم».

(١) ابن العَربي محيي الدين، محمد بن علي، الحاتمي الطائي (ت٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، صوفي يلقب بالشيخ الأكبر، ولد وعاش بالأندلس ثم رحل إلى المشرق حيث توفي بدمشق، كان ظاهريّاً في العبادات باطنيّاً في الاعتقاد، له مصنفات كثيرة من أشهرها (الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية) و(فصوص الحكم) و(ترجمان الأشواق) و(جامع الأحكام) وغيرها من المطبوع والمشهور.

(٢) العِتْرة: هم (آل البيت) والمقصود بهم هنا أئمتهم وعلماؤهم المصنفون الفقهاء.

(٣) من حديث متواتر عن أبي هريرة ومعاذ وأنس أوردته كتب الصحاح، انظره بمختلف رواياته في كنز العمال (أحكام الإيمان والإسلام): ١/ ٨٦-٩٠.

(٤) الحديث في (مصنف عبد الرزاق الصنعاني) عن رواية عبد الله بن عدي الأنصاري، وقد ورد فيه «أن رجلاً جاءه يستأذنه..» بصيغة المفرد بدل الجمع في «قالوا» (راجع كنز العمال الفصل الخامس: في حكم الشهادتين): ١/ ١٤٥٨، ومنه أضفنا بلى.

﴿ على أحَدٍ منْهم مَاتَ أبداً ﴾[1] و لا تقبل منهم الزكاة ﴿ قُلْ أنفقوا طوعاً أو كرهاً، لَنْ يُتَقَبَّل منْكم، إنكم كنتم قوماً فاسقين[2]. وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاَّ أنهم كفروا بالله وبرَسوله . . ﴾ (الآية)[3].

ورد رسول الله ﷺ زكاة ثعلبة بن حاطب عليه، وردها بعده ﷺ أبو بكر وعمر وعثمان. وهل يجعل الأصل الكفر لأنه متيقن، كما هو فرض المسألة، ونجعل عصمة الشهادة كالمختص للأصل أن يقال كلمة الشهادة تقتضي الإسلام على العموم ومنع صدقاتهم والصلاة عليهم والاستغفار لهم كالمختص؟. وإلى هنا بحثنا في حاشيتنا على (البحر)[4] وبقي علينا تفتيش الواقعات حتى يترجح أحد الأمرين.

ذكرنا ذلك في بحث (الزنادقة) وحكمهم واحد، ثم عوامهم كعوام اليهود والنَّصارى حُكْمُهُم حُكْمُهُمْ لإخلاصهم الموالاة، وتحليلهم ما حَلَّلُوا وتحريمهم ما حرموا، ولا يؤثر عند أحدهم الترك على ما هم عليه.

وكذلك سائر ملل الكفر، فلا ينبغي للحريّ في دينه، ذي الذوق السليم أن ينكحهم أو ينكح منهم. وقد كنت أظن أن غَلَبة الجهل قد أنستهم الضلالة، حتى كشف الله حالهم. وقد اتفق لأهل حراز (جبل بني إسماعيل) مثلهم. وأما نجران فأمرهم أظهر

---

(١) الآية «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره»(سورة التوبة٨٤) وقد نزلت في المنافقين عقب وفاة كبيرهم ابن أبي.

(٢) الآية(٥٣) من سورة التوبة.

(٣) الآية(٥٤) من سورة التوبة، وتمامها «ولا يأتون الصلاة إلاَّ وهم كسالى ولا ينفقون إلاَّ وهم كارهون».

(٤) ناقش العلامة المقبلي الموضوع - كما أشار- في (المنار) في موضعين، الأول: في(كتاب الصلاة): ١/١١٧-١١٩ وقد أنهاه بقوله: «وأما إطلاق لفظ الكفر أو الحكم عليه بحكمه الدنياوي أو الأخراوي، فلم يجئنا الشرع بذلك، وليس من متصرفات العقل فنقف حيث وقفنا والله العاصم». والثاني: في (كتاب الزكاة) في تعليقه على صاحب (البحر) أن من شروط وجوبها (الإسلام) وأن أحداً لم يقل بهذا في الأصول إلاَّ الحنفية على احتياط لهم في المسألة . .»٢/ ٢٨٢.

لعدم استحكام دولة أهل الحق عليهم. ونقل إلينا من فضائل[1] علي بن أحمد بن الإمام القاسم[2] هذه الأيام، أنه أكرم (المكرمي) وأرسله إلى يام يستنصر بهم، وهذا مصداق قوله ﷺ: «إن لحماً نبت بالسحت النار أحق به». فهؤلاء الولاة الذين يأكلون أموال الفقراء، وينزلونها منزلة ميراثهم من آبائهم يظهر في بعضهم مثل هذه الخاتمة.

نسأل الله التوفيق، ودع عنك سائر أحوالهم المخالفة للشريعة.

اللهم إن هذا جهدنا من الإنكار عليهم. والله المستعان» (انتهى).

* * *

* *

*

---

(١) هذا تهكم ونقدٌ من المقبلي يتضح من بقية العبارة والحديث الشريف المروي عن طريق جابر بن عبد الله في سنن الدارمي: ٢/ ٣١٨ ومسند أحمد: ٣/ ٣٢١, ٣٩٩ من حديث طويل عن الظلمة من الأمراء ولفظه فيهما «.. لا يدخل الجنة من نبت لحمه من سحت، النار أولى به..»

(٢) هو حفيد الإمام القاسم بن محمد مؤسس حكم الأسرة القاسمية في اليمن حتى عام١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، كان والياً على لواء صعدة بعد والده أحمد بن القاسم الذي اشتهر بلقبه(أبو طالب) ومن سلالته أسرة أبي طالب في الروضة وصنعاء، وهو الذي عمر جامع الروضة الشهير وقد توفي عام ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م أمّا ابنه المذكور والمعاصر للعلامة المقبلي، فقد كان طموحاً للسلطة عرف بالدهاء والعلم خرج على طاعة عمه المتوكل علي ابن اسماعيل حين عزله عن صعدة، وفعل ذلك بعد وفاة المتوكل حين دعا لنفسه وتلقب بالداعي أيام المهدي صاحب المواهب، لكنه هزم في حروبه معه وهرب، وهو ما يشير إليه المقبلي من استعانته بالإسماعيلية من قبائل يام- وقد اصطلح مع صاحب المواهب وعاد إلى صعدة وولاياتها حتى مات عام ١١٤١هـ/ ١٧٠٩م بعد أكثر من عقد على وفاة المقبلي، وكان قد جاوز الثمانين من عمره (انظر: تاريخ اليمن للمؤرخ محسن أبو طالب نشرة الحبشي صنعاء١٩٩٠، ص٣٣٥؛ زبارة: ذيل البدر الطالع٢/ ٢١٥٦).

الفَصلُ الثّاني

في

التُّراثِ والتّاريخِ والآثار

الإحياء «قضية للنقاش»(*)

من الواضح أن أهداف هذه الندوة- شأنها شأن ندوات مشابهة عقدت في أوطان عربية متفرقة خلال العقدين المنصرمين - هي :

١- الحفاظ على المخطوطات اليمنية وحمايتها .

٢- إحياء المخطوطات اليمنية في العناية بالكشف عنها ومن ثم تحقيقها ونشرها .

أما ما يتعلق بالحفاظ والحماية، فقد تم تبادل الرأي والاستماع إلى السبل والطرق، التي نأمل أن تخرج الندوة بحلول ناجعة مفيدة، وبتوصيات تساعد كل الجهات المعنية والمختصة على تنفيذها في وقت قريب.

بيد أننا نجد صلةً وثيقةً بين الحفاظ والحماية من ناحية، والإحياء والتحقيق والنشر من ناحية أخرى، فبقدر الصعوبات والقصور البالغ أحياناً حد العجز في الحفاظ والحماية . . . ، فإن الإحياء كمصطلح وفكرة للنهوض والتجديد ترددت من بداية الدعوة للنهضة العربية المعاصرة من أواسط القرن الماضي، مروراً بالقرن العشرين الذي دخلنا في آخر عقوده، مازالت متعثرة تعثُّر المشروع العربي النهوضي نفسه. ذلك أن عصر النهضة العربي طال ولم يصبح(الإحياء) بعد مُتمَثّلاً في الوعي المعرفي والثقافي بالمعنى الواسع لتراث الأمة العربية الضخم والهائل في شتى ميادين المعرفة والعلوم المختلفة، والذي يشكل المخطوط منه في اليمن جزءاً عزيزاً من ذلك الميراث الحضاري

(*) ورقة قدمت إلى«ندوة حماية المخطوطات اليمنية» المنعقدة بدار الكتب بصنعاء من ٧-٩ سبتمبر ١٩٩٢م ونشرت في العدد الأول من مجلة الثوابت الصادر في صيف عام١٩٩٣م.

والثقافي المتراكم عبر القرون في إطار الثقافة العربية الإسلامية. ولعل مما يزيد الإشكال أن الكتاب، وكان دائماً مخطوطاً، كان يجد العناية والاهتمام به في مختلف أرجاء الوطن العربي في عصور الازدهار الثقافي العربي، وحتى عندما كان يشيع ضرب من الإرهاب الفكري في مركز الخلافة العربية الإسلامية أو غيره من المراكز، كان الكتاب يجد ملجأً وحفظاً في أماكن أخرى، كما حدث على سبيل المثال لبعض كتب المعتزلة وأصولها الفكرية التي وجدت أماناً في خزائن الكتب اليمنية منذ القرنين الخامس والسادس الهجريين. واستقرت أخيراً في مكتبة الجامع الكبير، حيث أمكن بعد قرون للمحققين والباحثين في النصف الثاني من القرن العشرين نشرها محققة، وأخص بالذكر مصنفات بعض كبار متكلمي الاعتزال، كالقاضي عبد الجبار بن أحمد (ت٤١٥هـ) صاحب(المغني) وأبي الحسن البصري المعتزلي(ت٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) مؤلف(المعتمد في الأصول)، الذي نشره المعهد الفرنسي بدمشق(١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م) بتحقيق العلامة الدكتور حميد الله، وساعده مهتم كبير بقضية التراث هو الأستاذ الدكتور حسن حنفي الباحث اليوم عن نظرية متكاملة في التراث. إن الإشكال المقصود هنا في أن المحافظة على المخطوطات(الكتب) كان في الأساس تقليداً وجزءاً من تراث ثقافتنا العربية الإسلامية، وكلنا نعرف إلى أي مدىً كانت حفاوة الخليفة أو الأمير أو الحاكم هنا أو هناك باقتناء المخطوطات(الكتب)، ومنح الجوائز للمؤلفين حتى ازدهرت الوراقة وتجارة الكتب بين المغرب العربي ومشرقه، وكذا من الأندلس في أقصى الغرب حتى بخارى ومدن آسيا الوسطى في أقصى الشرق، كل ذلك تعلمونه في حين كانت أوروبة ماتزال تعيش في ظلمات قرونها الوسطى التي تزامنت مع عصور ازدهار ثقافتنا السائدة في العالم القديم، حتى القرن السادس للهجرة الثالث عشر للميلاد تقريباً؛ ثم ماذا حدث؟

لقد بادر للرد بعد نحو قرنين من دخول مرحلة الغيبوبة والسبات الذي طال أمده، ربما حتى الآن شخصية تاريخية تمثل الاستثناء بين المعاصرين لها؛ ذلك هو العلامة

المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون (ت٨٠٤هـ - ١٤٠٦م)، حين شخَّص أوضاع الثقافة وأحوال الأمة في المغرب والمشرق بقوله :

« . . وأما لهذا العهد - وهو آخر المائة الثامنة - فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدون وتبدلت بالجملة». ثم يضيف: « وكأني بالمشرق قد نزل به مانزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانيته، فكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة !» (المقدمة ١/ ٤٠٥-٤٠٦).

أجل لقد تبدلت الأحوال بالجملة، ومنها قضية المخطوط، فالكتاب وسيلة الثقافة وأداتها . . . في حين حدث العكس أو النقيض في أوروبة، فقد دلفت فيما عرف بعصر النهضة Renaissance، وهو عهد الانبعاث الذي شهد تجديداً أدبياً ودينياً وعلمياً شاملاً. انطلق من إيطاليا، وعمَّ أوروبة في القرنين ١٥ , ١٦ وكان من أهم مرتكزاته الانفتاح والدرس الواسع للحضارات والثقافات القديمة، ليس الإفريقية واللاتينية فحسب، بل وحضارات الشرق ومنها الحضارة العربية الإسلامية، فتأسست في أوروبة مدارس وكليات استشراقية، يرجع تاريخ بعضها إلى عصر النهضة وقبل تبلورالقوى الحضارية الأوروبية الكبرى للانتقال من احتكار التجارة إلى الاستعمار الحديث، بزمن طويل.

إن ما حدث ببساطة، ودون تعقيد للأمور، أو ترديد لما سبق أن قيل، وكتب عنه كثيراً، إن عصراً من النهوض الحقيقي قد دخلته شعوب أوروبة متسلحة بالكتاب المخطوط والحجر المنقوش، حتى اكتظت مكتباتها ومتاحفها بتراث الشرق والغرب على السواء، منذ عصر النهضة؛ في حين لم تعرف المدن العربية المكتبات العامة(دورالكتب) والمتاحف الحديثة إلا في عهد قريب يطول قليلاً في مصر أو الشام، ويقصر تماماً في قطر كبلادنا اليمن.

ولقد ساعد - كما هو معلوم - اختراع الطباعة في تلك الفترة، وهو ما مثَّلَ الثورة الحقيقية لما وصف بعصر النهضة. فكانت العودة أكثر عمقاً وانتقاء لكل المخطوط من تراث الإنسانية، حيث شكل ذلك الأمر وغيره - من أسس عصر النهضة- الانطلاقة الكبرى لعالم الكشوف والاختراع، وعصور لاحقة تجاوزت عصر النهضة، وشكلت حضارة الغرب وثقافته الحديثة والمعاصرة التي نجري لاهثين لمحاكاة بعض جوانبها، دونما قدرة أو وعي كافٍ في العودة الجادة مثلها إلى تراث أمتنا قبل غيره من تراث الإنسانية، معملين النظر والجهد من حيث فرغ الآخرون، مستفيدين من كل إنجازاتهم، وفي طليعتها كل مثمر ومشرق من تراث الأسلاف، ومانعرفه قليل من كنهها. والسؤال المطروح: هل قطعنا بعد شَوطاً في هذا السبيل؟

إنها فرصة للمراجعة والتأمل قبل إعلان المزيد من التوصيات التي قد تلحق بمثيلات سابقة لأكثر من محفل أو ندوة ! .

* * *

حاجتنا إلى البحوث والدراسات في الثقافة والتراث اليمني(*)

- 1 -

ما زالت الأبحاث والدراسات في الثقافة العربية والإسلامية في اليمن قاصرة كل القصور في شتى المجالات الواسعة لمفهوم الثقافة من أدب ولغة وتاريخ وجغرافية وعلوم القرآن والشريعة من أصول الدين والتفسير والفقه وأصوله وفروعه، إلى غير ذلك من علوم الحديث والمنطق والفلك، وكل ما كتب فيه اليمنيون وأبدعوا عبر أربعة عشر قرناً من تاريخ الأمة العربية والإسلامية الغني أسهم في صنعه والتأثر به أبناء اليمن خارج وطنهم الصغير وداخله؛ وإذا كان تاريخ بعض الصحابة والتابعين، أو القادة والأمراء والفقهاء أوالشعراء وغيرهم من اليمنيين في صدر الإسلام، قد كتب عنهم، ووصلتنا أخبارهم، بل وضعت دراسات وأبحاث حولهم، فلأن ذلك كان جزءاً من تاريخ الأمة العام، قبل أن تتميز الكيانات الإقليمية من جديد في ظل الإمبراطورية العربية الإسلامية الفتية، وقبل أن تتبلور المدارس الفقهية واللغوية، ومن ثم المذهبية والسياسية التي أعقبتها أخصب حقب الأزدهار الفكري والعلمي، من نهاية القرن الهجري الثاني إلى نهاية القرن الخامس وبعض السادس.

ففي تلك الفترة المبكرة كانت الرحلة من اليمن وإليه لطلب العلم، وتقصي الحديث النبوي، عامل تواصل واتصال، وبالتالي اشتهار عالم أو فقيه أو شاعر أو لغوي، فترجمته كتب الطبقات وذكره مصنفو الجرح والتعديل، إن كان من رجال الحديث،

(*) سبق نشر الموضوع في حلقتين في مجلة (اليمن الجديد) التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام بصنعاء قبل الوحدة (١٩٩٠).

ويندر بعد ذلك ذكر عالم أو شاعر أو حاكم يمني، إلا أن يكون قد نبه خارج بلده، كما حدث للشاعر والمؤرخ(عمارة الحكمي) الذي طار صيته وعلا قدره في مصر، وبها أعدم سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م فجاءت أخباره وأشعاره، وكذلك تاريخ اليمن الذي وضعه في كثير من كتب التاريخ والأدب[١].

وكما نشر كتابه(المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) أكثر من مرة فقد نشر ديوان شعره، وكتب عنه أكثر من رسالة وكتاب، بل ونال الباحث العراقي(جواد أحمد) درجة الدكتوراه عنه في رسالة له من إنجلترا، وطبعت في بغداد عام ١٩٧٢م[٢].

أما مئات الشعراء والعلماء، وتاريخ اللغة والأدب والفقه والتفسير اليمني عبر القرون، فلا نجد دراسة وافية لبعض ذلك أو لحقبة منه[٣]. فكم من دواوين الشعر وكتب العلم والتاريخ والأدب واللغة- على كثرتها- قد حققت ووضعت عنها دراسات، ووجدت طريقها إلى النور والنشر، فعلم شامخ كالحسن بن أحمد الهمداني(توفي بعد ٣٦٠هـ/ ٩٧١م؟)عالم اليمن والجزيرة على كثرة الحديث عنه وعن إكليله الناقص وعبقريته في (صفة الجزيرة) وتعدد معارفه وعلومه، ما زال في واقع الدراسات والأبحاث مجهولاً، باستثناء بعض المقالات التي كتبها العلامة الشيخ حمد الجاسر في مجلته(العرب) ومقدمته لطبعة صفة الجزيرة التي أشرف عليها بتحقيق العلامة المؤرخ القاضي محمد بن علي الأكوع، وبعض المقالات القليلة التي اعتمدت في مجملها على

---

(١) انظر على سبيل المثال: خريدة العصر٣/ ١٠١-١٤٤، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٣٧٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٤، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٠.

(٢) راجع مصادر التراث اليمني للكاتب ص: ٣٩.

(٣) للأستاذ الأديب والشاعر أحمد بن محمد الشامي(قصة الأدب في اليمن) وهو كتاب على فائدته عام غير متخصص، لكنه نشر حديثاً كتاب هام في ثلاثة أجزاء عن تاريخ الأدب اليمني في العصر العباسي، وللشاعر الكبير الأستاذ عبد الله البردوني(رحلة في الأدب اليمني قديمه وحديثه). كما طبع مؤخراً مجموع مقالاته في الصحف والمجلات اليمنية بعناوين مختلفة (دار الفكر: . . .).

مقدمات ما طبع من كتبه. أما العلامة الهمداني، الشاعر، اللغوي، المؤرخ، النسابة، السياسي، فلا نجد أية دراسة مستوفاة لأي جانب من هذه الجوانب الكثيرة التي يستحق كل منها مؤلفاً مستقلاً، ثم ماذا عن عصره وشيوخه وأقرانه الذين زخر بهم نصف القرن الثالث ونصف القرن الرابع، وذكر هو نفسه بعضهم علماء ولغويين وشعراء وكتاب، بل إننا لانكاد نعرف إلا القليل عن أمراء عصر الهمداني وحكامه كالأمير أسعد بن أبي يعفر (ت٣٣٦هـ) الذي سجن الهمداني في صنعاء بأمر إمام صعدة الناصر أحمد بن الهادي(٣٠١-٣٢٥هـ/ ٩١٣-٩٣٧م) وكذلك الأمر عن علي بن الفضل (ت٣٠٤هـ) وحكمه الذي يحاول البعض إلباسه ثوباً أحمر، في حين صوره آخرون إباحيّاً لايفرق بين الحلال والحرام، ولم يُتَحْ بعد الباحث المتواضع والموضوعي الذي ينقب عن المادة التاريخية ليبرز الحقائق كما هي بحياد، لا كما يحب هو بهواه أن يخرجها.

فعصر الهمداني ودويلاته، والصراعات المذهبية التي حدثت، بل وطبيعة تلك الصراعات، ودعاوى كل فرقة وأبعاد فكرها ومصادره، أشياء مازالت في بطون الكتب المخطوطة، وما نتداوله من نتف عنها نجده مكروراً عند معظم المهتمين بهذا الأمر ![1].

شمس العلوم قيد التحقيق والنشر:

وما قلناه عن الهمداني وعصره يمكن أن يقال عن أي علم أو عصر آخر؛ ومن اليسير الاستشهاد بمثال قريب للأول، ذلك هو الأمير العلامة باللغة والأدب والفقه والتاريخ نشوان بن سعيد الحميري (ت٥٧٣هـ/ ١١٧٨م)، الذي ولد في حُوث شمال

(١) صدر عن مركز الدراسات والبحوث بصنعاء دراسة لعلي محمد زيد عن(معتزلة اليمن/ دولة الهادي وفكره) وللأستاذ محمود الصغيري كتيب عن الهمداني بعنوان (الهمداني مصادره وآفاقه العلمية) دمشق ١٩٨٣م وصدر بتحرير الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد الله وثائق (ندوة الهمداني) التي أقامتها جامعة صنعاء في صيف ١٩٨٢م، انظر ص: ٢٢٥، فيما يأتي.

صنعاء، وبات علماً مشهوراً مؤثراً في الحياة الفكرية والسياسية، فهل نَبت كالهمداني وغيرهما في الخلاء، ونزل عليه الوحي، فكتب عشرات الكتب مازال أعظمها شأناً معجمه (شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم) بأجزائه الضخام الأربعة مجهولاً لم يطبع منه إلا جزء من قبل أكثر من ثلاثين عاماً بعناية المؤرخ المرحوم القاضي عبد الله الجرافي، وكان قبله بقليل قد نشر المستشرق Zettersteen في ليون من أول الكتاب حتى باب الجيم، وذلك بين عامي ١٩٥١-١٩٥٣[١] ولم يكن العلامة نشوان بن سعيد نكرة عبر القرون، فقبل أن يحقق وينشر في القاهرة عام ١٣٧٨هـ العلامة القاضي إسماعيل ابن أحمد الجرافي، وزميله المرحوم السيد علي المؤيد قصيدته الحميرية وشرحها المسمى(خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار ملوك التبابعة) سبق نشرها في ألمانيا في القرن الماضي عام ١٨٦٥م وفي إنجلترا عام ١٨٧٩م، وفي الجزائر في بداية الحرب الكونية الأولى عام ١٩١٤م، وبعد عامين نشر في ليدن عظيم الدين أحمد خان(سنة١٩١٦) كتيباً مفيداً أسماه (منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم) وهو الذي قامت مشكورة وزارة الإعلام والثقافة بإعادة تصويره ونشره في سلسلة مطبوعاتها التي صدر منها (٣٢)كتاباً من مشروع الكتاب . . .

إن من يطلع على(شمس العلوم)[٢] يتبين له أي سفر جليل هو ، إذ يعد بحق عديم النظير في معاجم اللغة التي جاء معظمها لغوياً جامداً، في حين أن شمس العلوم أشبه شيء بالموسوعة العلمية أو دائرة المعارف، فهو بالإضافة إلى اللغة وترتيبه على حروف المعجم، قد جعل لكل كلمة من الأسماء والأفعال وزناً ومثالاً للأمن من التحريف،

(١) راجع كتابنا: مصادر التراث اليمني ص: ٤١-٤٥ .

(٢) يقوم الكاتب مع صديقيه العالمين الأستاذ مطهر بن علي الأرياني والدكتور يوسف محمد عبد الله منذ أكثر من أربعة أعوام في العمل على تحقيق ونشر هذا السفر الجليل بالتعاون مع نخبة من النساخ بإشراف العلاّمة اللغوي الأستاذ الدكتور عدنان درويش مدير إحياء التراث في وزارة الثقافة السورية .

وضمن معجمه - وهو المهم- فوائد علمية وطبية وفقهية وتاريخية وجغرافية وفلكية وأدبية، مستشهداً بالآيات القرآنية، متعمقاً في التفسير متعرضاً لذكر القراءات المختلفة، وأوجهها الإعرابية[1]، وتبرز أهميته الخاصة في توضيحه وإشارته إلى الكلمات والأوزان التي قد تكون يمنية خالصة لم ترد في معاجم اللغة، أو وردت بمعنى وجهل من سبق معاني واستخدامات أخرى، فيوضح ذلك مستفيداً من علمه الغزير، وتنوع معارفه وعلومه، فالبيح (بالحاء) مثلاً لا يقتصر على المعنى المعروف لها أنها (العز والشرف) بل يستشهد كعادته بالشعر فيورد قول طرفة مستشهداً:

يحـــسب من جـــاورنا أننا حمير من صوت الوغى والبيوح

ويشرح البيت ويقول: «شبَّه قومه بحمير لعزهم وشرفهم وكثرة عددهم وأموالهم» ويستطرد مفيداً مادة تاريخية: « وذو بيح : اسم ملك من ملوك حمير، مأخوذ من ذلك، أي ذو الشرف والعز، وهو ذو بيح بن ذي قيفان بن شرحبيل بن أساس بن يغوث بن علقمة ذي جدن . . ». وهذا شأنه في كل مادة مشابهة لها أصل أو معنى خاص في تاريخ اليمن أو لغته.

وهكذا نجد أن (شمس العلوم) أهم بكثير من عشرات بل مئات مما قد نشر في الوطن العربي وخارجه من المعاجم، وهو إن نشر - وذلك ما كان جديراً أن نفعله لوزارة الإعلام والثقافة بإذن الله - فإن مادته ومعارفه لفي حاجة إلى عشرات من البحوث والدراسات المقارنة، وكذلك الحال مع كتب نشوان المخطوطة والمجهولة(كالفرائد والقلائد) و(أحكام صنعاء وزبيد) و(التبيان في تفسير القرآن) وغيرها.

ومثال آخر على التقصير في مجال التحقيق والبحث والدراسة نسمعه عن علم التفسير والمفسرين في اليمن، فليس بين أيدينا إلا تفسير شيخ الإسلام محمد بن علي

(١) شمس العلوم ١/ ٣٠١[كتاب الباء].

الشــوكــاني (ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) (فــتح القــدير) المطبــوع في القــاهرة عام١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م . . وهو لا شك من أحسن التفاسير الجامعة بين الرواية والدراية . وقد لاقى قبولاً في مختلف الأرجاء العربية والإسلامية ، ووضع عنه باحث عربي سعودي فاضل رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود[1] . إلا أن المفسرين والكثير من كتبهم ، وبعضها على درجة بالغة من الأهمية ، لم تزل مخطوطة موزعة في عدد من المكتبات العربية والغربية ، ومنها ماهو موجود - ولحسن الحظ - بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء[2] فعِلم التفسير في اليمن مرَّ بمراحل كثيرة بدءاً بأقدمها على يد العالم اليمني التابعي المشهور وهب بن منبه (ت١١٤هـ ٧٨٢م) وصولاً بالعالم المحدث المفسر عبد الرزاق الصنعاني (ت ٢١١هـ/ ٨٢٧م) حتى القرن الخامس حيث ظهرت الآراء الاعتزالية في كثير من التفاسير ، وتبلورت مدارس للتفسير ، وما مر قرن إلا وظهر فيه أكثر من عالم له تفسير ، ومن أشهرهم العلامة الأمير نشوان بن سعيد كما تقدم ، وبعده الإمام عبد الله بن حمزة (ت٥١٤هـ/ ١٢١٨م) وفي منتصف القرن السابع وضع العالم ابن أبي النجم (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) تلميذ العلامة المعتزلي المشهور القاضي جعفر بن عبد السلام مصنفه (التبيان في الناسخ والمنسوخ في القرآن) ، ومعاصره علي البناء الصباحي (ت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وضع (المنهج القويم) في أربعة مجلدات ، وكذلك (البيان في التفسير) لمجدِّد زيدي معاصر له أيضاً هو عطية بن محمد النجراني الصعدي (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) ومن مفسري القرن الثامن كثيرون أمثال العلامة الحسن النحوي(ت٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) ومعيض بن مفلح على رأس القرن (ت ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م) في زبيد ، والذي كان تفسيره مشتهراً أيام الإمام الشوكاني[3] .

(١) هو الدكتور محمد الغماري ، وكتابه(الإمام الشوكاني مفسراً) ١٩٨٣م .

(٢) راجع مصادر الفكر الإسلامي لعبد الله الحبشي ؛ وفهرسها المطبوع له وللعلامة الأخ القاضي أحمد عبد الرزاق الرقيحي .

(٣) الشوكاني : البدر الطالع ١/ ١٦٦ .

ولقد تعددت واختلفت مذاهب المفسرين اليمنيين في مختلف هذه الفترات وماتلاها، فالمنحى السلفي، والاهتمام اللغوي، أو التأثير الاعتزالي، وغير ذلك كله وجدله مهتمون أو معارضون، وعندما اشتهر (كشّاف) الزمخشري (ت ٦٢٣هـ/ ١٠٢٥م) لم يجد له كبير صدى عند معظم مفسري أهل السنة ورجال الحديث، لميوله الاعتزالية ونظراته اللغوية العميقة، في حين تلقفه كثير من علماء اليمن، وظهر أثره واضحاً عند كثير من أمثال يوسف بن أحمد الثلائي(ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م) في تفسيره المشهور المخطوط (الثمرات اليانعات) الذي اقتصر في مجلداته الثلاثة على آيات الأحكام، وجاء بعده آخرون نذكر منهم العلامة مهران الصعدي (ت ٩٩٧هـ/ ١٥٥٠م) الذي وضع تفسيراً وفّق فيه بين (كشاف) الزمخشري والتفسير الكبير لابن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) وتطول بنا الأمثلة- وهي كثيرة جداً- حتى نصل بعد قرنين إلى تفسير الإمام الشوكاني، وما نقصده هو التدليل والإشارة إلى ميادين وأبحاث كثيرة وواسعة في شتى المجالات تنتظر تحقيقاً وبحثاً ونشراً.

* * *

- 2 -

استعرضنا فيما تقدم بعضاً من حقول العلم والمعرفة، كالتاريخ وتاريخ الآداب وعلوم اللغة والفقه والحديث والتفسير وغير ذلك مما أبدع فيه اليمنيون عبر أربعة عشر قرناً من تاريخ الأمة العربية الإسلامية، وذكرنا أن الأبحاث والدراسات، وكذلك التحقيق العلمي ونشر ذخائر التراث اليمني، لازالت قاصرة عن المؤ مل والمرجو. إن هذا لا يعني بالطبع – وبعد مرور ثلاثة عقود على قيام الثورة – أنه لم تنشر بعض الدراسات ويطبع العديد من الكتب خاصة بعد أن عنيت وزارة الثقافة والإعلام منذ أكثر من عشرين

عاماً بمشروعها في طبع سلسلة من كتب التاريخ والتراث اليمني بلغ عددها ٣٢كتاباً قبل أن تتوقف قبل بضع سنين، كان معظمها من كتب التراث غير المحققة، ولنا ولآخرين من المهتمين عليها بعض الملاحظات، كما تزامن ذلك - تقريباً - مع مسيرة (مركز الدراسات والبحوث اليمني) الذي قفز بأعماله ونشاطاته وإعادة تصوير بعض مطبوعات قديمة منذ اضطلع الكاتب الناقد الشاعر الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح برئاسته والتي استطالت حتى يوم الناس هذا.

لقد قام المركز بأعمال توثيقية مفيدة وأصدر مجلته الفصلية[1] وطبع عدداً من الكتب (تراثية وعلمية وسياسية وأدبية)، لكنه بقي يعاني مع وزارة الثقافة والإعلام مشكلة وجود الرأس وضعف من يعتمد عليه أو بمعنى آخر افتقار الجهتين للباحثين والمحققين وللأطر الفنية من مختصين في شئون الثقافة، وفن الطباعة، وأنشطة السكرتارية المدربة والدؤوبة وما شابه ذلك.

وقبل الدخول في بعض التفاصيل الأخرى في موضوعنا لابد من الاعتراف بأننا نواجه أزمة من نوع خاص تختلف عن الحديث حول مايقال عن أزمة الثقافة العربية التي نحن في الواقع جزء منها، ولم تكن هاتان المؤسستان اللتان يمكن أن نضيف إليهما الجامعة، بمسئولة عن ذلك التخلف، فهي في جوهرها نتاج طبيعي حصدناه من سنوات التخلف وعقود الانغلاق والعزلة التي عاشتها بلادنا في عهد ماقبل الثورة، فمواليد ما بعد عام ١٩٦٢ جيل جديد لم يصل عمر أي نابغ أو ممن يرجى منه الإبداع أو التأليف السن التي يمكن أن ينتج فيها، فيسهل الحكم على هذا الجيل(الواعد بإذن الله) رغم الصعوبات وضعف الأسس والمرتكزات التعليمية والثقافية التي ندرك جميعاً مخاطرها

(١) تعثر للأسف انتظام صدورها في السنوات القليلة الأخيرة، وتدنى مستواها العلمي لأسباب كثيرة منها ما أشرنا إليه.

الآن، وبالتالي واجب الإسراع في وضع الخطط وبذل الجهود وتسخير الإمكانات للتغلب عليها.

ومثل ذلك- في كل الأحوال- لم يكن متوفراً في بلادنا في العقد السادس حتى لو كان بإمكان رجلين في مكانة الأستاذين العطار وغالب التخلي عن المسئوليات الرسمية الكبيرة التي ألقيت على كاهلِهما بعد الثورة مع عدد آخر، قليل جداً، ممن كان يتوفر فيهم الكفاية العلمية، فكان ذلك واجباً وطنيّاً وإسهاماً مُجداً ولازال عطاؤهما فيه مستمراً.

ليس من شك إذا في أنّ انعدام المؤسسات والمراكز العلمية في العقد السادس سبب مهم في الأزمة التي نتحدث عنها، فأعداد المتخرجين من مختلف الجامعات العربية والأجنبية الذين عادوا إلى الوطن آنذاك كان متواضعاً للغاية، وبغض النظر عن التباين في مستوياتهم العلمية والثقافية فقد كان من بينهم ومن جاء بعدهم من لديه الخلفية الفكرية أو العلمية مع وجود الاستعداد والموهبة، ولكن عدم وجود تلك المؤسسات من ناحية، والظروف العامة الصعبة التي واجهتها الثورة والجمهورية حتى مطلع العقد السابع، بل والتي جرت ذيولها وآثارها المدمرة والسيئة(اقتصادياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً) سنوات أخرى حتى تحقق الاستقرار وخيَّم السلام، وتنفس المثقفون كغيرهم من فئات الشعب رياح الحرية والأمن في حقبة جديدة عمرها خمس أو ست سنوات.

لقد كانت تلك الظروف سبباً آخر حمل في طياته عوامل إحباط وقلق وتشتت فكري وسياسي، وإن جرفت الحياة اليومية بمتطلباتها التي ينوء بحملها الكثيرون، فانصرف البعض نهائياً حتى عن القراءة الضرورية، وانخرط آخرون في سلك الوظائف والأعمال صعوداً و هبوطاً، وبقي الأقل يتحدى الصعاب(عَبس له الحظ أو أسعد) هو ممن بقي يتابع الثقافة وشئون الفكر بقدر ماهو متاح في غضون سنوات تلك الدوّامة التي

تضيع فيها أيضا ويومياً ساعات النهار في مجالس القات(وربما ساعات طويلة من الليل لمن اعتادها)، يتخللها كثير من النقاش المفيد نادراً المكرور أحياناً كثيرة. . . ،ويستوي في هذا من تخرج في جامعة وذهنه مرتب لعمل أكاديمي أو من لم يتح له الدراسة في الجامعة وكان مخضرماً أو عصامي الثقافة، فمناخ مثل ذلك لا يساعد على البحث الرصين ولا يشجع على التفرغ للكتابة. صحيح -رغم ذلك -أن حياتنا الفكرية والثقافية لم تتوقف أو تختنق، لكن ترجمتها إلى الواقع لم يكن كتباً وأبحاثاً بل كان في أحسن صورة قصائد ودواوين شعر أبدع فيها شعراؤنا الكبار، وانتقل بعضهم من الدائرة المحلية إلى المحيط العربي الأوسع لمعاصرتهم ولصدق نواياهم وجهودهم.

لقد بقيت الجهود الفكرية من تأليف ودراسة وتحقيق متسمة بالإنتاج الفردي المحدود بطاقاته وأسبابه الخاصة، حتى مع وجود المؤسسات الكبيرة الثلاث المشار إليها، بل قد لانتجاوز الواقع كثيراً إذا قلنا: إن الطاقة الإبداعية والإنتاجية لواحد من المعدودين بأصابع اليد الواحدة من المفكرين والكتاب في بلادنا قد كتب وألف ونشر، ومازال -منحه الله القوة والوقت- أكثر مما نشر وطبع في مؤسستي الجامعة ومركز الدراسات المشرف عليهما بمافي ذلك المتابعة والمراجعة والتقديم لكثير من تلك الإصدارات، وبات في حقل الأدب والشعر والنقد واحداً من المشهود لهم بالإسهام الحقيقي في الثقافة العربية الجديدة في الوطن العربي، نسوق هذا المثل الحي ليس بغرض الثناء أو حتى الإشادة الجديرة بالدور الفكري والأدبي الريادي لصديقنا الأستاذ الدكتور المقالح، فهو في غنى عن ذلك، ولكن التدليل العملي بوجود أزمة حقيقية فرض علينا هذا الاستشهاد الذي صعب بضربه أو حتى بإغفاله وجود نظائر(بغض النظر عن الخصائص الذاتية) لنذكره. لكننا مع الأسف الشديد الذي يشاركنا فيه الدكتور المقالح لا نجد ذلك. ولسنا هنا بالطبع بصدد حصر مفكرينا وكتابنا للمقارنة أو المفاضلة بينهم حتى يسرع من يظن ذلك فيخطر بباله اسم أو اثنان أو حتى ثلاثة، وقد يجد بقدر فهمه لما نناقشه وحسن ظنه

فيمن يراه. لكن الأمر قد يتضح أكثر بالانتقال إلى مجال آخر من شئون الثقافة والمعرفة كالتاريخ والاقتصاد - مثلاً - لنسأل: كم لدينا من الدراسات والكتب اليمنية المنشورة في هذا الحقل؟ فنكتشف أن مؤلفات قليلة جداً - نعرفها جميعاً - قد تفرد بها أصحابها وكانت نتاجاً علمياً متميزاً، في مطلع الستينات بل أصبح بعضها مصدراً من مصادر التأليف ونيل الدرجات الجامعية العليا كدراسة التخلف الاقتصادي في اليمن للأستاذ الدكتور محمد سعيد العطار، أو رسالة الماجستير للأستاذ محمد أنعم غالب، وقد نجد المسوغات للرجلين في عدم الاستمرار في البحث ونشر الدراسات، وأولها أن الكتابين هما في الأصل رسالتان جامعيتان نال كل من صاحبيهما درجة علمية بها وليس بالضرورة أن كل من قدم بحثاً أكاديميا في أي فرع من فروع العلوم أو المعرفة سيستمر موطناً نفسه على البحث والمتابعة وملاحقة كل جديد، لأن ذلك له أجواؤه وشروطه العلمية والمادية والنفسية، وهذه وغيرها مرتبطة كلها بوجود مؤسسة أو مؤسسات كالجامعة والمكتبات والمراكز العلمية المختلفة ومتابعة المؤتمرات والندوات أو الحلقات الدراسية العلمية والمشاركة فيها والاستفادة من كل جديد يصدر بحث فيه.

وبالإضافة إلى الفوائد والأهمية الخاصة والعامة لمثل هذه الترجمات فإنها بالتأكيد ستشجع من يمكن أن يجد في نفسه أهلية وتعويضاً لجوانب أخرى، وربما نواة لظهور حركة نشطة للتعريب يتجه نحو التخصص والانخراط فيها بعض شباب الجامعات، في الداخل والخارج، ممن يدرسون في أقسام الآداب واللغات. ولعله من الغريب حقاً أننا لا نعرف من بين مئات ممن درس وتخرج من الاتحاد السوفييتي (سابقاً) (على سبيل المثال على كثرة من درس هناك) قد نقل شيئاً عن اللغة الروسية أو كتب في اختصاصه أو في أي موضوع علمي أو أدبي تعلمه أو فهمه ينبغي الكتابة فيه، بل أكثر من ذلك لم تنقل إلينا أبحاث ودراسات طلابنا عن اليمن، والتي لا بد أن أصحابها قدموها إلى جامعاتهم سواء في الاتحاد السوفييتي أو في الغَرْب، وكل الناس يعلمون مدى أهمية النقل

والترجمة في تقدم الشعوب وتوسيع آفاق المعرفة والثقافة، ولكننا فيما طرحناه لايتجاوز إطار الأزمة في أبسط صورها.

وبعد: لقد ذهبت تلك السنين العجاف بكل ما سببته وأحدثته من إحباطات ومخاوف من المستقبل، وإجهاض للطموحات وقصر أو تحديد للأحلام وغير ذلك مما كان سبباً في قصورنا أو تقصيرنا وضياع طاقات كان من المقدر والمأمول أن تنهض بدور فاعل في حقل الثقافة والمعرفة، وقد آن الأوان للتقويم والاستفادة من الماضي لاستشراف المستقبل وتجنيب الجيل الجديد الذي يتخرج منه في جامعة صنعاء وحدها في هذا العام ١٥٠٠٠[1] طالب، ولدينا خمسة آلاف طالب يدرسون في الجامعات خارج الوطن؛ تجنيبه ما عاناه جيلنا المعاصر الذي خاض التجربة، ولا زال الأمل معقوداً على القادرين منه.

* * *

(١) يعاد النظر على ضوء إحصائيات عام ١٩٩٤-١٩٩٥م.

اليمن عند المؤرخين والجغرافين العرب والمسلمين

حفلت كتب المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين، من وقت مبكر بمادة واسعة ونصوص كثيرة مبثوثة في كتبهم، وموثقة في أسفار رحلاتهم، (في صفة بلاد اليمن)[1] وتحديد حدوده، ووصف جغرافيته، وطبيعة أقاليمه، من مرتفعات شاهقة، إلى نجود وهضاب، فأودية وتهائم، إلى غير ذلك من معلومات بحسب المقصد أو الغاية عند المؤلف. فكتب البلدان التي عرف عدد منها بكتب(المسالك والممالك) تختلف عن كتب المؤرخين الذين يذكرون - على سبيل المثال - عدد مخاليف البلاد، أو أقسامها الإدارية، حين ذكرهم من عُيّن على كل منها أو كلها من العمال أو الولاة، أو يذكرون أسماء أماكن طريق البريد بين اليمن والحجاز، حتى مركز الخلافة، بعد أمر الخليفة المهدي عام ١٦٦هـ/ ٧٨٢م إقامة البريد بين صنعاء وبغداد[2]. أو المسافات بين محطات قوافل التجارة، أو طريق الحاج اليماني. في حين تكون عناية الأولين بالدرجة الأولى وصف البلدان وحدودها، وجوانب أخرى مفيدة، يدخل فيها التاريخ والأدب والتجارة والأعلام والإنسان، بالإضافة إلى المعالم والمشاهدات الشخصية، لمن زار منهم اليمن؛ فتم لبعضهم الجمع بين كل ذلك أو جله، وهو الأمر الذي جعل الغلبة في أن يكون كثير

(١) بعنوان(في صفة بلاد اليمن عبر العصور) نشر للكاتب وصديقيه العالمين: الأستاذ مطهر بن علي الإرياني والدكتور يوسف محمد عبد الله، نصوص محققة(دار الفكر المعاصر ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، يشار إلى مايرد منها في حواشي البحث.

(٢) العمري: الموسوعة اليمنية(تاريخ اليمن..): ١/ ٢١١.

من الجغرافيين العرب مؤرخين قبل كونهم جغرافيين. ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء وأولئك ما تركه لنا رحّالون كبار، أمثال ابن جبير (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) في (مسالك الأبصار) وابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) في رحلته الشهيرة وغيرها كثير.

* * *

١- الهمداني وصفة الجزيرة:

ولعله لم يتح لأحد من علماء العرب والمسلمين المهتمين بهذا الأمر، منذ عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ العاشر للميلاد، ثم ما تلا ذلك حتى بدايات التدهور الحضاري، وعصر الانحطاط الذي كان العلامة الفيلسوف والمؤرخ ابن خلدون (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٦م) ومعاصره ابن بطوطة استثناء نادراً بين معاصريهما، مع الفارق بين الرجلين ومجاليهما. أقول: لعله لم يتح لأحد طيلة تلك العصور على طولها مثلما أتيح للعلامة الجغرافي، المؤرخ، الشاعر، النسابة، الرحالة الكبير والفلكي لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني المولود بصنعاء يوم الأربعاء ١٩ صفر سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م والمتوفى بريدة بعد عام ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، ليس من معارف نادرة، وثقافة واسعة، استوعب فيها مختلف علوم عصره، بل وتلك الخصوصية التي تميز بها في مختلف ما وصلنا من كتبه، وبشكل خاص سفره الثمين (صفة جزيرة العرب) الذي جمع فيه بين خلاصة التجربة، والأسفار الطويلة، وزبدة المعرفة، والتحري العلمي الدقيق لمختلف المواضع والمواقع والحدود في الجزيرة كلها؛ وهو الأمر الذي وضعه في طليعة رواد الجغرافية عند كل الباحثين والمختصين عرباً ومستشرقين، بل وقد

عدّ شبنجلر كتابه (الصفة) بالإضافة إلى (أحسن التَّقاسيم) للمقدسي «أعظم ما أنتجه العرب في الجغرافية»[1] . وبهذا فا لأجدر أن يفرد للهمداني العظيم ووصفه للجزيرة بحث خاص به، لكننا ههنا نكتفي بأن نقتبس منه نصاً قيماً، يمهد لنا ويضيء الطريق فيما قصده المؤرخون والجغرافيون العرب من صفة اليمن، وما هي حدودها في إطار الجزيرة من(بلاد العرب) وبكونها واحداً من أقاليم(ديار الإسلام) .

* * *

صفة اليمن الخضراء :

قال الهمداني :

«سميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها، والبحر مطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب، ويفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عمان ويَبْرين، إلى حد ما بين اليمن واليمامة، فإلى حدود الهجيرة، وتثليث، وأنهار جُرَش، وكتنة، منحدراً في السَّراة على شعف عنز، إلى تهامة على أم جحدم، إلى البحر حذاء جبل يقال له : كُدُمُّل بالقرب من حمضة[2]، ذلك حدّ ما بين بلد كنانة واليمن من بطن تهامة، وأول إحاطة البحر باليمن[3] من ناحية دَما فطنوى

(١) خصباك (د . شاكر) : في الجغرافية العربية (ط٢) ٢٨٣ ؛ ميكيل (أندريه) : جغرافية دار الإسلام : ١/ ٤٥-٤٦ .

(٢) كُدُمّل، بضم الكاف والدال المهملة وتشديد الميم آخره لام : جبل وسط البحر الأحمر إزاء قرية الوسم، ويسمى الآن كتنبل، وحَمِضة، بفتح الحاء وكسر الميم آخره هاء : لايزال هذا الموضع حيّاً حتى الآن .

(٣) كذا في الأصل ، وفي ياقوت مادة يمن نقلاً عن المؤلف «فأما إحاطة البحر» .

فالـجُمْحة فرأس الفرْتَك[1] فـأطراف جبـال اليُـحْمد ومـا سقط وانقـاد منهـا إلى ناحيـة الشِّحر، فالشِّحر فغُبّ الخيس فغُب الغبت بطن من مَهْرة، فغُب القمر زنةَ قمر السماء، فغُب العَقَار بطن من مهرة، فـالـخَيْرَج[2] فالأسعـاء، وفي المنتصف من هذا السـاحل شرقاً بين عُمان وعَدَن رَيْسُوت[3]، وهو موئل كالقلعة بل قلعة مبنية بنياناً على جبل، والبحر محيط بها إلا من جانب واحد فالبر، فمن أراد عدن فطريقه عليها، فإن أراد أن يدخل دخل، وإن أراد جاز الطريق ولم يَلْو عليهـا، وبين الطريق الذي يُفْرق إليـهـا

---

(١) دَمَا، بفتح أوله وتخفيف ثانيه: بلدة من أوائل بلاد عمان وكانت من أسواق العرب المشهورةمنها أبو راشد قال: جاءنا كتاب رسول الله ﷺ في قطعة من أدم، كذا في ياقوت ج٢-٤٦١. ودما هذه غير دَبا في عمان الشمالية ومن أسواق العرب أيضاً. وفي مجلة دراسات عمانية١٩٧٨ ص٢١: حصن دما (قرب السبب الحديثة) الذي كان يسيطر على الطرف الجنوبي من ساحل الباطنة.

وطنوى: لم ترد فيما بين يدينا من المراجع، وذكرها ياقوت نقلاً عما هنا، وليس من المستبعد أن تكون تصحيف طِيوى وهي بلدة في عمان توفي فيها ابن مقرن الشاعر الإحسائي من أهل القرن السابع الهجري، وينسبون إليه أنه قال لما وصلها: يانفس هذه طيوى فطيبي.

والجمحة: كذا في الأصول. أما الجمجمة زنة جمجمة الرأس وهو سن خارج في البحر بينها وبين عدن يسميه البحريون رأس الجمجمة له عندهم ذكر كثير لأنه ممايستدل به راكب البحر إلى الهند والآتي منه (ياقوت ج٢-١٦١) وقال في القاموس: فرتك أو رأس الفرتك قرنة جبل بساحل بحر الهند مما يلي اليمن.

(٢) غُب، بضم الغين المعجمة: وإليها تنسب الثياب الغبية.

والخِيس، بكسر الخاء المعجمة وفتحها، وهو ما يسمى اليوم: غب الخيص- بالصاد المهملة- وهو المنطقة الواقعة بين رأس يدوم ورأس المكلا، ولهذا يطلق على المكلا رأس الخيصة.

وغب القمر: وهو ما يسمى، اليوم غبة قمر.

والعقار، بفتح العين المهملة وتشديد القاف وراء.

والخيرج: معروف- راجع الإكليل ج١/ ١٨٩، ١٩١.

(٣) رَيسوت، بفتح الراء وسكون الياء المثناة من تحت ثم ضم السين المهملة ثم تاء مثناة من فوق: هي اليوم لابسة ثوب العزاء على ماضيها الزاهر متشعثة ليس فيها مايلفت المسافر. ذكرها صاحب كتاب(الطواف حول بحر أريتريا) لمؤرخ يوناني في القرن الأول للميلاد على الأرجح. وكان لها شأن عظيم في ذلك التاريخ كما كانت محط أنظار الغزاة البرتغالين في أواسط القرن العاشر الهجري، وورد ذكرها في الحملة التي جهزها الملك المظفر الغساني إلى ظفار الحبوضي سنة ٦٧٨هـ ثمان وسبعين وست مئة للهجرة.

والطريق المسلوك إلى عُمَان مقدار ميل، وبها سُكْن من الأزدِ من بني جُدَيْد[1]، وقد كان قوم من القَمَر في أول عصرنا بَيَّتُوا من بها ليلاً فقتلوا، فممن قتل بها رجل يقال له: عَمْرُو بن يوسف الْجُدَيْدي من رؤرس أهلها أزدي، والذين أبلوا ذاك من القمر بنو خَنزريت، وأخرجوا من بقي من أهلها منها فتفرقوا إلى بلاد الغبت من مَهْرة، فسكنوا موضعاً يقال له حاسك ومرباط[2] مدة. ثم أعانتهم الثغرا من مَهْرَة حتى رجعوا إلى قلعتهم، فلما دخلوا القلعة بعون الثّغرا خافت بنو خَنْزَريت فخرجوا إلى البلدان، وخرج رئيسهم محمد بن خالد بجماعة من بني خَنْزَريت حتى دخلوا موضعاً يقال له رُضَاع، بضم الراء، وساكنه بنو ريام بطن من القمر فجاوروهم، ولبني ريام حصن بعُمان عظيم لا يرام. ويقال: إن ساكن ريسوت القدماء البياسرة، ونزلت عليهم جُدَيْد من الأزد فترأَسَت فيهم، ثم نهكتها مع جدَيد ناس من أحياء العرب غير مَهْرة، وقد يتزوجون إلى مَهرة. ورأس من بها بعد ذلك موسى بن ربيع من العُدَس. ثم ينعطف البحر على اليمن مغرباً وشمالاً من عدن فيمر بساحل لحجٍ وأَبْيَن[3] وكثيب يرامس وهو

---

(١) جديد، تصغير جد: أبو قبيلة من الأزد، وهو جديد بن حاصر بن أسد بن عائذ بن مالك بن عمرو بن مالك ابن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن الأسد، ومن رجالهم مسعود بن عبد الله بن عبدي الذي يقال له قمر العراق، وهو الذي أجار عبيد الله بن زياد أيام الفتنة، وهو أخو المهلب لأمه، ومن رجالهم جديع ابن شبيب المشهور بالكرماني رأس الأزد أيام العصبية بخراسان، وله أخبار مأثورة مذكورة في التواريخ (الاشتقاق-١ ٥٠١) و (اللباب-ج١-٢٤١).

(٢) حاسك، بالحاء والسين المهملتين كذا في الأصول كلها، وكذا في تاريخ الدولة الكثيرية: ١٩، وكذا في كتاب النسبة قال: قرية شرقي ظفار وبها قبر نبي من الأنبياء من أولاد النبي هود عليه السلام. وكذا في تاريخ الأهدل، وضبطه بالمهملات وقال: إنه من وراء ظفار إلى جهة عمان بينه وبين عمان مرحلتان، وفيه قبر مشهور يسافر إليه أهل ظفار وغيرهم لزيارته، وفي(معجم البلدان): جاسك، بالجيم، وبقية الحروف كالأول: جزيرة بين جزيرة كيش وعمان قبالة مدينة هرمز بينها وبين كيش ثلاثة أيام، ولعل مافي ياقوت تصحيف أو هو غير ما جاء ههنا.

ومرباط، كمحراب: فرضة ظفار الحبوضي بينها وبين عمان مقدار خمسة فراسخ، وهي مدينة مفردة أهلها عرب زيهم زي العرب القديم (معجم البلدان). ومازالت عامرة إلى عهدنا هذا.

(٣) هذا من عكس الترتيب فساحل أبين وكثيب يرامس مقدم على ساحل لحج.

رباط[١]، وسواحل بني مجيد[٢] من المَنْدَب[٣] فساحل العُمَيْرَة، فالعارة فإلى غُلافِقَة[٤] ساحل زبيد. فكَمَران[٥]، فعُطَينة، فالحِردَة إلى منفهق جابروهو رأس غزير كثير الرياح حديدها، إلى الشَّرْجة[٦] ساحل بلد حَكَم، فباحة جازان، إلى عَثَّر، فرأس عَثَّر، وهو كثير الموج إلى ساحل حمضة، فهذا مايحيط باليمن من البحر»[٧].

وبعد هذا النص المقتبس، يصف الهمداني ويعدد جزر اليمن في البحرين الأحمر والعربي بداية من فَرَسَان شمالاً، مروراً بزيلع في خليج عدن حتى سقطرى في بحر

---

(١) كثيب يرامس، بفتح الياء المثناة من تحت: يقع شرقي أبين لايزال معروفاً. وقوله: وهو رباط؛ أي مما يرابط فيه لدفع الأعداء.

(٢) بنو مجيد: حي من العرب من ولد مالك بن حمير بن سبأ ولهم بقية. راجع الإكليل ج١-١٩٨.

(٣) باب المندب: معروف مشهور وجاء ذكر المندب في المساند الحميرية، وهو مضيق يسيطر على ممر البواخر والبوارج.

والعميرة بضم العين المهملة وفتح الميم آخره هاء.

والعارة، بالعين المهملة وراء وهاء آخره: وهما قريتان آهلتان بالسكان.

(٤) غلافقة، بضم الغين المعجمة، وفي ياقوت بالفتح، وهي التي تسمى اليوم غليفقة: وكانت مرسى مشهوراً ذكره ابن خرداذبه والبشاري، وأثنى عليها، كما وردت في أنباء غزو الحبش لليمن، وفيها حط رحاله داعية القرامطة حسن بن حوشب الملقب المنصور وعلي بن الفضل الخنفري سنة ٢٦٨هـ، وهي اليوم لاشيء.

(٥) كمران، بفتحات أوله كاف وآخره نون: جزيرة مشهورة من جزر اليمن ولاتزال عامرة، وتقع قبالة الصليف، وسكنها الفقية محمد بن عبد ربه تلميذ أبي إسحاق الشيرازي وبها قبره يزار.

وعطنة، بفتح العين والطاء المهملتين ونون وهاء وهي الأصح. وفي الأصول كلها: عطينة، وفي القاموس عاطنة: مرسى بحر اليمن، ولم يذكرها ابن خرداذبه ولاياقوت ولا البكري.

والحردة، بكسر الحاء وسكون الراء آخره هاء: موضع لايعرف إذ قد اختفى من القرن العاشر. كما لايعرف منفهق جابر.

(٦) الشرجة، بفتح الشين المعجمية وسكون الراء ثم جيم وهاء: كانت تقع قبالة وادي الموسم من وادي حرض، وذكر القاضي محمد الأكوع خبراً ينقله عن أهل حرض أن سيلاً اجتحف أنقاضها وكشف عن مسند حميري كبير.

(٧) راجع(في صفة بلاد اليمن) للكاتب وآخرين٤٣-٤٨.

العرب، وذلك قبل شروعه في الحديث المفصل عن مدن اليمن ومخاليفه، سهوله ونجوده[1] . . . .

٢- حدود اليمن ومساحته:

عاصر الهمداني عالمان مشهوران، الأول: رحالة مؤرخ هو علي بن الحسين المسعودي صاحب(مروج الذهب ومعادن الجوهر).

والآخر: عالم جغرافي واسع الرحلة معروف بأحد أهم وأشهر كتب (مسالك الممالك) هو إبراهيم بن محمد الإصطخري المعروف بالكرخي، وكلاهما توفي في سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م، مع الشك في سنة وفاة الأخير.

عن الأول نقتبس ما أراد به من تحديد (مساحة اليمن وحدوده) حيث يقول:

« وبلد اليمن طويل عريض، حده مما يلي مكة إلى الموضع المعروف بطلحة الملك (قرية جنوب مكة) سبع مراحل. ومن صنعاء إلى عدن، هو آخر عمل اليمن تسع مراحل. والمرحلة من خمسة فراسخ إلى ستة. والحد الثاني من وادي واحا[2] إلى ما بين مفاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة، ويلي الوجه الثالث بحر اليمن على ما ذكرنا أنه بحر القلزم والصين والهند، فجميع ذلك عشرون مرحلة في ست عشرة مرحلة»[3].

* * *

(١) انظر: صفة الجزيرة بتحقيق العلامة القاضي محمد الأكوع، نشر دار اليمامة/ الرياض(١٩٧٤م) ص: ٧٠ ومايليها.

(٢) كذا في الأصل المطبوع (واحا)، ولعلها وادي (وجّ) جنوب الطائف (في صفة بلاد اليمن عبر العصور): ١٣٨.

(٣) مروج الذهب للمسعودي: ٣٥١.

تهامة قطعة من اليمن :

أما الإصطخري، الذي كان قد استعان في مؤلفيه (صور الأقاليم) و(مسالك الممالك) بكتاب سلفه الجغرافي أبي زيد أحمد بن سهل البلخي (ت٣٢٢هـ/ ٩٣٤م) (صور الأقاليم) أو (تقويم البلدان) فإننا نجد عنده الكثير من الوصف والمشاهدات والملاحظات الشخصية لبعض المدن والمخاليف والقبائل ، والنجود التي يصفها بقوله : «وبعض نجد اليمن من شرقي تهامة، وهي قليلة الجبال مستوية البقاع» ثم موضحاً : «ونجد اليمن غير نجد الحجاز غير أن جنوبي نجد الحجاز يتصل بشمالي نجد اليمن»[(١)] .

ولعل مما له صلة بالموضوع أنني توقفت متأملاً عبارة الإصطخري في بداية وصفه لتهامة اليمن حيث ينص : « وأما تهامة، فإنها قطعة من اليمن » . . وهي عبارة تذكرنا بما كتبه الإمام يحيى حميد الدين في جواب له على صاحب(المنار) الشيخ محمد رشيد رضا بتاريخ٢١ جمادى الآخرة سنة١٣٥٢هـ/ ١٠أكتوبر ١٩٣٣م فقد ذكر له موقفه من الخلاف مع الملك عبد العزيز بن سعود حول(عسير) بقوله :

« واعلموا عافاكم الله أنا صرَّحْنا لحضرة الملك عبد العزيز أن يكون ربط الأواصر مع إبقاء الحالة في عسير على ما هي عليه، فإنا نكره تجزئة اليمن وفصل قطعة منها عن أمها الطبيعية، وإن مثل هذه المسألة هي التي أخرت المعاهدة بيننا وبين إنكلترا . . »[(٢)] .

وبالعودة إلى (مسالك الممالك) نجد النص التالي :

« وأما تهامة، فإنها قطعة من اليمن، وهي جبال مشتبكة ، أولها مشرف على بحر

---

(١) مسالك الممالك : ٢٥ .

(٢) مجلة المنار : ١/ ٣٤ . . الصادر في (٢٩محرم سنة١٣٥٣هـ - ٣/ مايو١٩٣٤م) ص: ٤٠، وراجع العمري: المنار واليمن٢٠٢-٢٠٣ .

القلزم مما يلي غربيها، وشرقيها بناحية صعدة وجرش ونجران، وشماليها حدود مكة، وجنوبيها- من صنعاء- على نحو من عشر مراحل».

ولأن الإصطخري الذي «يعدّ رائداً للكتب الإقليمية التي ألفت بعده في منهجه ومعلوماته وتبويبه، قد عدّ الخارطة أساساً للبحث»[1] فقد أضاف: «وقد صورت جبال تهامة في صورة ديار العرب»[2] وهي واحد من عشرين إقليماً من بلاد الإسلام كما قسمها «ورسم خارطة لكل من هذه الأقاليم جعلها في مطلع الحديث عنه»[3].

* * *

اليمن ثلثا بلاد العرب:

أما (ديار العرب) فهي عنده «الحجاز الذي يشتمل على مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها، ونجد والحجاز المتصل بأرض البحرين وبادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام، واليمن المشتملة على تهامة ونجد اليمن، وعمان ومهرة وحضرموت، وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن، مما كان من حد السرين، حتى ينتهي إلى ناحية يلملم، ثم على ظهر الطائف، ممتدّاً على نجد اليمن إلى بحر فارس (الخليج العربي/ الفارسي) فاليمن، ويكون ذلك نحو الثلثين من ديار العرب . . »[4].

ويواصل الإصطخري في بقية النص بمعرفة الخبير والمطلع بنفسه بقية تفاصيل أقسام وحدود ديار العرب. يفرد لليمن كغيرها فصلاً خاصاً، لا يقتصر على الحدود

(١) خصباك (د. شاكر): ٢٨٠.
(٢) الإصطخري: مسالك ٢٣.
(٣) خصباك (د. شاكر): ٢٨٠.
(٤) الإصطخري: مسالك ١٤.

والمسافات والمدن، بل وما شاهده، أو سمع به، من حوادث ومعلومات وأخبار، الكثير منها دقيق ومفيد، والبعض غريب، يدرك هو نفسه ذلك، خاصة فيما له علاقة بالأساطير والخرافات الشعبية المتداولة أو الموروثة، كقوله بعد ذكره كثرة وجود القرود في اليمن، إنه بلغه: «أن بها دابة تسمى العدار، تطلب الإنسان فتقع عليه، فإن أصاب منه ذلك تدود جوف الإنسان فانشق!» . ويضيف مستدركاً «ويحكى عن الغيلان بها من الأعجوبة مالا أستجيز حكايته»[1].

وإنه لمن الطريف بل ولعله من غريب المفارقات أن يتحفظ صاحب (المسالك والممالك) حول مثل حكاية الغيلان والعدار، ولايجد صاحب(تاج العروس) العلامة المتأخر محمد مرتضى الزبيدي(ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م) غضاضة بأن يستدرك على صاحب(القاموس المحيط) فيما يستدرك عليه، فيضيف في مادة(عَدر): «والعُدار كغُراب: فيما يقال، دابة تنكح الناس باليمن ونطفتها دود، ومنه قولهم: ألوط من عدار!».

وسرعان ما يزول استغرابنا، حين نتذكر أن الإصطخري عالم، محقق، لا يستجيز رواية الخرافات حتى ولو لم يكن لها علاقة مباشرة بموضوع الجغرافية، في حين كان بحث الزبيدي وغايته التدليل بمعرفته ومعلوماته الواسعة - خاصة عن اليمن - في استدراكه على صاحب (القاموس) - ومعه الحق - باسم خرافي شائع في اليمن، نسج الناس عنه أساطير وحكايات كثيرة قديمة ومتوارثة، فكيف فات الفيروز آبادي ذلك؟ وهو الذي أفنى حياته، وربما عاش أطول منه زمناً في اليمن حتى توفي بزبيد عام ٨١٧هـ/ ١٤١٥م!

* * *

(١) مسالك: ٢٦؛ وراجع: (في صفة بلاد اليمن): ١٤١-١٤٥.

٣ - المقدسي مؤسس جغرافية دار الإسلام:

لنتجاوز الجغرافي والرحالة العربي الكبير محمد بن حَوْقَل البغدادي (ت بعد ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) - صاحب(صورة الأرض) نظراً للتشابه والتطابق الكبيرين بين مصنفه و(مسالك الإصطخري) الذي نقل عنه حين التقى به في جرجان[١].

ففي كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) مادة متنوعة وموثقة عن مدن اليمن ومخاليفه، ويعد المؤلف شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، المولود في القدس نحو سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م، والمتوفى بعد عام٣٨٠هـ/ ٩٩٠م «أحد الرواد العظام في الجغرافية العربية لمنهجه الصحيح المعتمد على المراجع الموثوقة والمشاهد الشخصية وفي الاهتمام بالخارطة ضمن المتن[١]»، أو كما عبر عن ذلك المستشرق المعاصر أندريه ميكيل أستاذ الدراسات الإسلامية في كوليج دي فرانس بأن جغرافية(دار الإسلام) قد وجدت بكتابه «نهائياً موضوعها ومصطلحاتها ومنهجها»[٢] فهو أول من تحدث منهجياً عن(مملكة الإسلام) وقسم أقاليم العرب والعجم إلى أربعة عشر إقليماً، يشكل كل إقليم منها كياناً طبيعياً وجغرافياً وتاريخياً. فالإقليم عنده «رقعة أرض تابعة لسلطة سياسية واحدة تتميز بوسطها الطبيعي وسكانها وعاداتها»[٣].. منطلقاً من إبراز حدود الإقليم بتقسيماته الإدارية التي كان المقدسي أعظم مدرك لها ولأهميتها، فوصف (مَصْره) كمركز للإقليم، ثم الكورة بعد المصر، بقراها الموزعة حول مركزها (المدينة). وقد يشتمل عنده الإقليم على مَصْرين كما في المغرب الأقصى[٣] واليمن؛ «فزبيد - قصبة تهامة - أحد

---

(١) خصباك: ٢٨٠- ٢٨٣؛ وقد قام الدكتر أندريه ميكيل أستاذ الدراسات الإسلامية في (كوليج دي فرانس) بمقارنة قيمة بين الكتابين ذيل بها القسم الثاني من المجلد الأول لدراسته الشاملة والعميقة المعنونة «جغرافية دار الإسلام البشرية» (الترجمة العربية، دمشق، وزارة الثقافة١٩٨٣): ١/ ٢/ ١٨٩-٢٠٨.

(٢) جغرافية دار الإسلام: ١/ ٦٠.

(٣) ميكيل: جغرافية دار الإسلام: ١/ ٢/ ١٣٦-١٣٧.

المصرين(في اليمن)، لأنه مستقر ملوك اليمن، وهو بلد نفيس ليس باليمن مثله، غير أن أسواقه ضيقة، والأسعار بها غالية والثمار قليلة، أكثر طعامهم الدخن والذرة»[1] . . .

أما صنعاء : « فهي قصبة نجد اليمن، وقد كانت أجل من زبيد وأعمر. وكان الاسم لها، وأما اليوم[2] فقد اختلت، غير أن بها مشايخ لم أر بجميع اليمن مثلهم هيئةً وعَقْلاً، ثَمَّ بلد رَحْبٌ كثير الفواكه، رخيص الأسعار، أخباز حسنة، وتجارات مفيدة، أكبر من زبيد. ولاتسأل عن طيب الهواء فإنه عَجَب، ومع ذلك رِفْقٌ مُعْفٍ ».

وإذا كانت زبيد قصبة تهامة، وصنعاء قصبة نجد اليمن فحضرموت : «هي قصبة الأحقاف»

وهو لايكتفي بوصف المدينة والوحدات الأصغر التابعة لها إدارياً، بل يبرز أهم خصائصها العمرانية والتجارية أو العلمية أو الاقتصادية، وما يميزها، أو نشاط سكانها عن غيرها في بعض ذلك أو كله.

فمن بين أوصاف مدينة (عدن) الكثيرة أنها «فرضة اليمن(أي ميناء اليمن)، ومعدن التجارة»، في حين أن(مدينة عثَّر) التهامية الواقعة على الساحل : «فرضة صنعاء»، وهي «مدينة كبيرة طيبة مَذْكورة (أي ذَكرها) لأنها قصبة ناحية عثَّر».

أما (غَلاَفِقَة) : فهي « فرضة زبيد عامرة آهلة، بها نخيل ونارجيل وآبار حلوة، إلا أنها وبيّة قاتلة للغرباء !».

وعندما ينتقل من الساحل التهامي إلى وصف مدن شمال البلاد، يبين أن(صعدة) مركز صناعات الجلود وغيرها، وهي «أصغر من صنعاء» كما أنها «مدينة العلوية» أي

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم٨٤-٩٠.

(٢) صنف المقدسي كتابه بين عامي ٣٧٥ و٣٨٠هـ/ ٩٨٥ -٩٩٠م بعد عشرين عاماً من التجوال والترحال في مختلف بلاد العرب والإسلام التي كان منها اليمن. حيث أمضى بها عاماً كما سيأتي معنا.

أئمة الزيدية ومركزهم، ويلفت نظره أن (جُرَش) «مدينة واسطة ذات نخيل، واليمن ليس ببلاد نخيل». ويضيف بعدها أن «نَجران مثل جُرش، وهما دون صعدة، وأكثر ماترى من الأدم [الجلد] فمن هذه المدن».

وهكذا تبلغ الصورة منتهاها من الكمال حينما يربط العلامة الكبير دائماً بين معارفه المتعددة، وتدويناته الدقيقة الشاملة، من خلال اطلاعه المباشر على مختلف أحوال البلاد، بفهم ودقة ملاحظة. فالشّحْر ليست مجرد مدينة على البحر -كما يذكر- لكنها كذلك «معدن السمك العظيم، يحمل إلى عمان وعدن، ثم إلى البصرة وأطراف اليمن، وثم أشجار الكندر صمغها» [أي اللبان] ويضيف «وموضوع إرم ذات العماد ليس لها أثر» أما المسافة من لحج إلى الشّحْر: «فرسخان في مستوى، فتراها من البعد تشرق، فإذا قربت لم تر شيئاً، وماء عدن من ثم».

* * *

مخاليف اليمن:

ويأتي في آخر مايمكن أن يذكر للمقدسي عن اليمن، الذي عدّه مؤرخو الجغرافية، بحق، «مؤسس الجغرافية البشرية الشاملة» ذكره لمخاليف اليمن بصفتها وحدة التقسيم الإداري الذي ميز اليمن عن غيره من الأقاليم أو الأمصار، التي سميت مقاطعاتها أو وحداتها الإدارية بالكُوَر (جمع كورة)، أو الرُّستاق (مفرد: الرساتيق) أو غير ذلك، ويعد المقدسي أول من اتخذ هذا التقسيم وأقامَهُ منهجاً جديداً عارض به قوائم المدن عند من سبقه من الجغرافيين العرب، وكان بهذا وبما يعنيه من الوضوح والتقصي في تحديد حدود الإقليم وتقسيماته الداخلية «أثراً من آثار عبقريته»[1].

---

(١) ميكيل (أندريه): جغرافية دار الإسلام ١/ ٢/ ١٣٨.

يستفاد من المدخل القصير إلى أسماء مخاليف اليمن، بعد ذكره لعدد هام من البلدان، و الأماكن التي ذكرنا بعضها فيما تقدم، أن المقدسي قد أمضى عاماً كاملاً في البلاد، ضمن جولته الطويلة، التي زار فيها مختلف أصقاع وأقاليم (ديار الإسلام)، ثم تلك الأمانة العلمية التي يعلن فيها أنه لم يزر جميع المخاليف؛ ومع ذلك فقد قدم لنا أوسع قائمة حوت ٦٧ سبعةً وستين مخلافاً كان فيها « أكثر دقة في تحديد المخاليف ممن سبقه » من الجغرافيين العرب، كما يؤكد ذلك العلامة المعاصر القاضي إسماعيل بن علي الأكوع[(١)].

قال المقدسي في المدخل التمهيدي:

« واعلم أن اليمن موضع واسع، قد أقمت به حولاً كاملاً ودخلت هذه البلدان التي وصفت وغاب عني منه الكثير، غير أني أذكر ما سمعت فيه من أهل الخبرة، وأستوعب مخاليفه، وإن لم أطأ الجميع، لأنه بلد يميز بالمخاليف . . . »[(٢)].

ثم يتخذ من مخلاف صنعاء بداية ليعدد بقية المخاليف شمالاً حتى نَجران وجُرَش والسَّراة معرِّجاً على مخاليف تهامة غرباً فالمناطق الوسطى، فبعض الجنوبية، ليعود إلى ما حول صنعاء من مخاليف غرباً حتى البحر، لينتهي مشرِّقاً بذكر مخلاف كندة والسُّكون و مخلاف الصّدِف في حضرموت[(٢)].

ولايفوت المقدسي- بعد حديثه عن أمراء وحكام البلاد، وقدر ضرائبها وعشورها في زمنه - التنبيه على أن اليمن: « كانت في القديم مقسومة على ثلاثة أعمال: والٍ على الجند ومخاليفها، وآخر على صنعاء ومخاليفها، والثالث على حضرموت ومخاليفها».

---

(١) الأكوع: مخاليف اليمن، ص٥.

(٢) أحسن التقاسيم: ٨٤-٩٠ وراجع(صفة بلاد اليمن): ١٥٩-١٦١؛ وقارن مع الأكوع: مخاليف اليمن٥١-٥٢.

إن الحس النقدي، وقوة الملاحظة. جعلت المقدسي ينقد، أو يتساءل، ويقارن أحياناً بما ورد عند من سبقه أمثال[1] ابن خرداذبه (ت٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) وقدامة بن جعفر (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، من معلومات أو أرقام أو مسافات[1] ، ولهذا فهو هنا تجنب ذكر المسافات بين تلك المخاليف، وهو ما فعله بين بعضها الأول. لكنه عمد إلى تحديد المسافات بين الأماكن الرئيسة الواقعة على الطرق بعد أن وضع الحيطة الآتية :

« . . . وأما طريق اليمن فلا أكاد أضبط مراحلها كغيرها من الكور، غير أني أذكر ما عرفت وأجمل ما سمعت » ثم يذكر : « من صنعاء إلى صدا ١٢ فرسخاً، ومن صنعاء إلى حضرموت ٧٤ فرسخاً، ومن صنعاء إلى ذمار ١٦ فرسخاً، ثم إلى نسفان وكحلان مرحلة، ثم إلى حجر وبدر ٢٠ فرسخاً، ثم إلى عدن ٢٤ فرسخاً، ومن ذمار إلى يَحْصُب مرحلة، ثم إلى السُّحول مرحلة، ثم إلى ثَجَّة مثلها، ثم إلى الجَنَد مثلها. ومن صنعاء إلى الجند ٤٨ فرسخاً، ومن صنعاء إلى العَرْف مرحلة، ثم الهان عشر فراسخ، ثم إلى جبلان ١٤، ثم إلى زبيد ١٢ . ومن صنعاء إلى شبام مرحلة، ومن صنعاء إلى عَثَّر ١٥ مرحلة، ومن عدن إلى أبين ٣ فراسخ»[2] .

* * *

٤- أصحاب المعاجم والرحلات :

بلغت الجغرافية على يد المقدسي- شأنها شأن الثقافة العربية بكل فروعها- أوجها بنهاية القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد[3] .

---

(١) أحسن التقاسيم: ٥ .

(٢) أحسن التقاسيم: ١٠١-١٦٥ .

(٣) راجع : الحضارة العربية في القرن الرابع لآدم ميتز (الفصل الحادي والعشرون)، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية): ٧/ ١٠-٤١ .

ولم يجد القرن التالي أحداً أعظم من المقدسي، باستثناء الشهرة التي حققها في الغرب تلميذ جامعة قرطبة، العالم الرحالة أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي، المولود في نهاية القرن الخامس/ الحادي عشر في سبتة، في المغرب الأقصى، عام ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) والمتوفى بها أيضاً عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٦م. وكان كتابه الجغرافي(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) عن أوروبة ومختلف أصقاع العالم، وكذلك الخرائط السبعون الملحقة بالكتاب المرجع المعتمد في الجامعات الأوروبية لعهد طويل[١].

بيد أن نمطاً آخر من كتب الجغرافية، قد ظهر على شكل معاجم جغرافية، وهو أمر أملته الحاجة الناجمة من اتساع(دار السلام) وبدايات تفكك المملكة الإسلامية إلى دويلات وإمارات كثرت فيها أسماء البلدان والمواضع، وتعددت المذاهب والأجناس، وتعقدت الثقافة واللغة، كما تنوع النشاط الاقتصادي والاجتماعي. كل ذلك وغيره كان دافعاً لتصنيف (معاجم البلدان) التي هي نقيض للمصنفات الإقليمية، أو جغرافية(خطط) المدن التاريخية، ككتاب (تاريخ مدينة صنعاء) للرازي الصنعاني (ت٤٨٠هـ/ ١٠٦٨م)، أو (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي (ت٤٣٦هـ/ ٩٥٥م)، ونحوهما من المصنفات التي اتخذت من الخطط أو المعاجم نمطاً من أنماط الجغرافية، بحسب الغاية والأهداف المقصودة عند المصنفين.

لقد اشتهر من بين معاجم البلدان اثنان؛ الأول أندلسي، والآخر مشرقي باتا معاً أهم مرجعين كلاسيكيين يعتمد ويعول عليهما حتى اليوم، على تفاوت بالطبع بينهما في الغرض والمنهج والشمول.

* * *

---

(١) دائرة المعارف: ٧/ ٢٥ خصباك(د. شاكر): ١٢٠-١٢٢؛ ٢٨٧.

اليمن في معجم البكري الأندلسي :

قامت شهرة المؤرخ الجغرافي، والأديب الدبلوماسي الأندلسي، عبد العزيز بن محمد البكري، المولود والمتوفى بمدينة قرطبة (ت٤٣٢-٤٨٧هـ/ ١٠٤٦-١٠٩٤م) على كتابه (المسالك والممالك) الذي لم يخرج فيه-فيما يبدو-عن نمط كتب مسالك القرن السابق المشرقية، والكتاب الذي وضعه في عدة أجزاء، لم يصل منها إلينا سوى قطع متفرقة، في أخبار بعض بلدان المغرب، ووصف بعض بلدان المشرق، ومع ذلك فقد وُصِفَ البكري- المعاصر للإدريسي- بأنه «أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة»[1]. لقد إستمرت شهرة البكري ومكانته بعد ذلك حتى عصرنا ببقاء نسخة كاملة من معجمه المطبوع(معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع) وهو أقدم ماوصل من مؤلفات جغرافيي الأندلس.

لقد اهتم البكري- الذي لم يزر المشرق العربي- بالجزيرة العربية، فكانت بلدانها ومواضعها مادة مُعْجَمِه. وهو في ذلك لم يضف جديداً لما هو معلوم من قبل، إلا أنه أعاد مرتباً المادة (الأماكن) على حروف الهجاء كمعاجم اللغة، التي باتت ضرورية للضبط واستبعاد الدخيل ونحو ذلك.

وبمقارنة المعلومات الواردة في النص القصير الآتي بما سبق من نصوص سابقة يتضح لنا ماذكرناه من دور، أن جغرافية مابعد القرن الرابع فيما سبق من كتب المسالك والممالك الرائدة، بغض النظر عن الشكل أوالنمط الذي بات الآن على شكل(المعجم).

يضع البكري اليمن بين أركان الحدود التالية :

« وحدّ اليمن مما يلي المشرق : رمل بني سعد الذي يقال له يَبْرين، وهو منقاد من

---

(١) خصباك : ٢٨٥.

اليمامة، حتى يشرع في البحر بحضرموت؛ ومما يلي المغرب: بحر جدة إلى عدن أبين. وحدها الثالث: طلحة الملك إلى شرون، وشرون[1]: من أعمال مكة. وحدها الرابع: الجوف ومأرب، وهما مدينتان»[2].

* * *

اليمن في معجم البلدان لياقوت:

وبعد قرن ونصف القرن من معجم البكري، فرغ في حلب عام ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م العلامة والرحالة الكبير ياقوت الحموي (ت٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) من تأليف (معجم البلدان) الشهير. وبهذا الإنجاز الباهر، بلغ المعجم الجغرافي منتهاه من حيث الشمول والإفادة مما تقدم من المعاجم، وجماع ما كتب وصنف في الجغرافية، وغيرها من علوم وفنون، حتى عصر ياقوت(الربع الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد).

لقد تجاوز ياقوت بمعجمه جزيرة العرب والمشرق والمغرب من دار الإسلام، ليشمل «وصفاً لكل ما استطاع جمعه من أسماء المدن والمواضع المختلفة من الأندلس إلى بلاد ما وراء النهر والهند، إضافة إلى وصف مُفَصَّل للممالك الإسلامية، كما كانت عليه في عصره». وتقوم طريقته «على مناقشة اسم الموضع لغوياً، ثم يسوق التفاصيل عنه، كدرجة عرضه وطوله، والمؤثرات التنجيمية التي تهيمن عليه، كما يذكر عند الكلام عن منطقة واسعة خصائص طبيعتها، ومواردها الطبيعية، وعمرانها بالناس، وأهم الأحداث التي شهدها المكان»[3].

---

(١) لعلها (سرين): أي السرين ساحل كنانة كما في صفة الجزيرة: ٢٥٩ وراجع(في صفة بلاد اليمن) للكاتب وآخرين وبه نصوص أخرى: ١٨١-١٨٢.

(٢) معجم ما استعجم(ط٣): ١/ ١٦.

(٣) خصباك (د. شاكر): في الجغرافية العربية٢٧٩.

وهكذا يعدّ عمل ياقوت: «أكمل مصنف للمعلومات الجغرافية الوصفية والفلكية واللغوية، وأخبار الرحالين التي جمعها السلف. وكان على دراية بجميع المعارف الجغرافية الإسلامية في عهده، بما في ذلك كثير من المصادر التي لم تصلنا»[١] .

فماذا كان نصيب اليمن من هذه الموسوعة الجغرافية المعجمية، التي قاربت مجلداتها المطبوعة نحو ٤٠٠٠ أربعة آلاف صفحة؟

على كثرة الرحلات والأسفار الطويلة، التي قام بها ياقوت في المشرق العربي، وبلاد الفرس والروم (بيزنطة)، ومنها تردده على الحجاز وعمان وأطراف الخليج العربي، في بداية نشاطه التجاري والعلمي، فإنه لم يزر اليمن، وجاءت مادته الكثيرة والمتنوعة عنه في معجمه العظيم منقولة من أهم المصادر السابقة؛ التي تأتي (صفة الجزيرة) و(الإكليل) للهمداني وتاريخ عمارة (ت٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) على رأسها، بالإضافة إلى كتابي (المسالك) و (معجم ما استعجم) للبكري. وترجع أهمية نقله عن مصادر كثيرة أخرى- لم تصلنا-، ومعلوماته المستقاة من كثير من بلدان اليمن، ممن التقى بهم من علمائه وأهله في الحجاز وغيره، وكذلك ممن زار اليمن من معاصريه[٢]، إضافة حقيقية، تدل على محاولة الاستقصاء وسعة المعرفة. ومع كل الدقة والأمانة والتمحيص العلمي، التي اتصف بها ياقوت في سفره الضخم، فقد كان له أخطاء كثيرة في ضبط بعض الأسماء أو تحقيقها، ويرجع ذلك بالنسبة إلى اليمن « إلى بعض من روى عنهم من أهل اليمن أو غيرهم، إما لجهلهم بالمسافات، وإما لعدم فطنتهم بتحديد المكان» [٢] .

وكان ياقوت نفسه قد أدرك ذلك، فطلب العذر والرجاء في إصلاح ما يكون قد عجز «عن تحقيقها وضبطها» من أسماء بلاد الروم، وغيرها، «ومن كان عنده أهلية ومعرفة، وقتل شيئاً منها علماً، فقد أذنت له في إصلاحه مأجوراً» .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية(الترجمة العربية): ٧/ ٢٨؛ وانظر مادة(Yaqut) في الطبعة الإنجليزية.

(٢) القاضي إسماعيل الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت: ١٠-١١.

وبعد أكثر من سبعة قرون على وفاة ياقوت لم يجد العلماء والباحثون العرب خيراً من معجميه في (البلدان) و(الأدباء)[1] مصدراً ثَرّاً، ومرجعاً لاغنى عنهما لكل باحث وأديب. . . كما ظل (معجم البلدان) كذلك «الذي يفي بجل حاجات المستشرقين المحدثين» كما يقرر ذلك المستشرق البروفسور كرامرز J. H. Kramers في دائرة المعارف الإسلامية، لأن ياقوتاً « توخّى أن يكون كتابه وافياً بكل مَطْلب»[2].

لقد لاحظ قبلنا العلامة المعاصر المرحوم محمد كرد علي[3] (ت١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م) أن ياقوتاً قد دعا على من يختصر بعده كتابه (معجم البلدان)، وما نجا مع هذا من أناس حاولوا اختصاره!، ومنهم صفي الدين عبد المؤمن بن علي البغداي (ت٧٨٩هـ/ ١٣٣٨م)، اختصره بعد قرن بكتابه (مراصد الاطلاع) وهو لايشمل إلا الموضوعات الجغرافية المقتبسة من معجم ياقوت. ويأتي كتاب (تقويم البلدان) المعاصر لصفي الدين نائب الناصر محمد بن قلاوون على حماة، المنسوب ياقوت إليها أبوالفداء، المؤرخ الجغرافي عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، نهاية مطاف عصر المؤلفات الجغرافية العامة في عالم الإسلام، لقد عدّ بعض المهتمين (تقويم البلدان) آخر الآثار الجغرافية التي لا تقل قيمة عن معجم ياقوت « خاصة بما أضافه على كتب الجغرافيين السابقين» كثيراً من المعلومات الخاصة بالممالك غير الإسلامية، وما لاقاه من شهرة في أوروبة، وفي أوساط المستشرقين في القرن الماضي[4].

بيد أن الحقيقة تؤكد أن معجم البلدان هو أعظم أثر جليل في بابه عبر القرون

---

(١) هو (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) المعروف بمعجم الأدباء (ط).

(٢) ٧/ ٢٨-٢٩.

(٣) في كتابه (كنوز الأجداد) (ط٢)، دار الفكر: ٣٠٨؛ وانظر كلام ياقوت وما نقله عن الجاحظ من عتب على معاصر له اختصر أحد كتبه(مقدمة معجم البلدان(ط١): ١/ ١٠).

(٤) دائرة المعارف: ٧/ ٢٩.

الأخيرة؛ وحتى اليوم لقد صاقَبتْ السنوات الأولى من حياة ياقوت بدايةَ عهد الرحلات التي دشنها معاصره ابن جبير (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، برحلته الشهيرة التي أنهاها عام (٥٨١هـ/ ١١٨٥م)، وتشكل بعد ذلك «أدب الرحلات الجغرافي العربي»، الذي تفوق فيه الرحالة المغاربة على إخوانهم المشارقة في هذا النوع من الكتابة، وذلك لأنه كان من أهم أهداف أولئك المغاربة- إن لم يكن- «الأساسي، حج بيت الله الحرام والدراسة على أيدي علماء الفقه المشهورين»[1] في المشرق. وهكذا كان وصول ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما إلى اليمن من الحجاز، أو في الطريق إليه، ومن ثم كتاباتهم عنه[2].

ومن ناحية أخرى، فقد شهدت حياة ياقوت نهاية الفترة التي بلغت فيها الوحدة السياسية للدولة الإسلامية أوجها في عهد العباسيين. ولم تلبث بغداد أن سقطت في يد هولاكو بعد أقل من ثلاثة عقود من وفاة ياقوت. وذلك في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. لقد تفككت وحدة المملكة الإسلامية، وكثرت الإمارات والدويلات في أرجائها. وبالتالي فقد حل مكان تلك المؤلفات الشاملة التي آخرها (معجم البلدان) و (تقويم البلدان) الكتب الجغرافية الإقليمية، كما حلت محلها إلى حد ما الجهود القومية في التأليف في شتى الأقطار الإسلامية[3].

* * *

---

(١) خصباك (د. شاكر): ١٨١-٢٣٦.

(٢) انظر: في صفة بلاد اليمن: ١٨٣-٢٢٨.

(٣) دائرة المعارف: ٣١٧؛ البروفيسور كرامرز Prof. J. H. Kramers (الجغرافية والتجارة) في مجلد (تراث الإسلام) (ط٢): ١٤٣-١٤٥.

الاستدراك على معجم البلدان :

ومع كل ذلك، فقد بقي (معجم البلدان) على شموليته، من أحسن مصادر كل إقليم أو بلد بعينه، وذلك ما جعله أكثر الكتب شهرة وتداولاً حتى قبل طباعته، ولم يمنع ذلك طبعاً من اجتهادات عالم محقق أو أكثر في بعض الأقطار العربية، من الاستدراك أو التصحيح، لما قد يكون ورد من خطأ أو أوهام عن بلدانهم. وبالنسبة لليمن، فلربما كانت استدراكات العلامة مرتضى الزبيدي، المبثوثة في (تاج العروس)[1] آخر ماهو معروف، قبل ظهور أول طبعة لمعجم البلدان في أوروبة بعد ذلك بثلاثة أرباع القرن، صدرت تلك الطبعة بعناية المستشرق الألماني الكبير ويستنفلد (ت ١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م H. F. Wustenfeld عام ١٨٦٦م)، في ستة مجلدات[2]. وبعد أربعة عقود قام في القاهرة عالم المخطوطات الحلبي محمد أمين الخانجي الكتبي (ت١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م). صاحب (مطبعة الخانجي) الشهيرة، بإصدار الطبعة العربية الأولى في عشر مجلدات في (اختتام سنة ١٣٢٣هـ، وافتتاح سنة ١٩٠٦م)، ونشر ذيلاً عليه سماه (منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان) وقد ذكر صاحب (معجم المؤلفين) أن الخانجي «استعان على وضعه ببعض العلماء»[3]، وقد يكون من بينهم العلامة الأديب التونسي الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي (ت١٣٣١هـ/ ١٩١٣م) نزيل القاهرة الذي يذكر الناشر الخانجي في طرة أولى صفحات طبعته هذه أنه قرأ المعجم ومستدركه عليه.

* * *

(١) انظره فيما تقدم (ص: ١٣).

(٢) يذكر الأستاذ جرجيس فتح الله معرب كتاب(تراث الإسلام) (ط٢/ ١٩٧٢) أن صديقه الأستاذ وديع جويدة قد أنهى في الولايات المتحدة ترجمة (معجم البلدان) إلى الإنجليزية (ص: ١٤٤ حاشية ٢٧).

(٣) عبد القادر عياش، معجم المؤلفين السوريين: ١٦٢.

(مجموع الحجري) و (البلدان اليمانية عند ياقوت) :

أما في اليمن فقد انشغل بمعجم البلدان دهراً العلامة المؤرخ، النسابة، الأديب القاضي محمد بن أحمد الحجري (١٣٠٧-١٣٨٠هـ/ ١٨٩٠-١٩٦٠م) بعد أن تفرغ من العمل الإداري ولسنوات طويلة منذ استقراره بصنعاء عام (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، لفهرسة مكتبة الجامع الكبير ومكتبة الإمام يحيى حميد الدين الخاصة، «وقد استفاد علماً كثيراً، لمطالعته لما في هاتين المكتبتين، أثناء عمله الطويل فيهما . . .»[1] وخرج بثلاثة مصنفات أهمها (مجموع بلدان اليمن وقبائلها) في أربع مجلدات، صدرت محققة مطبوعة[2] في مجلدين يحويان (٨٠٧صفحات) .

كان العلامة الحجري، وهو المحقق الخبير ببلدان اليمن وأنساب قبائله، قد صرف همته في بداية الأمر باستدراك ما وجده من أوهام وأخطاء في (معجم ياقوت)، وكذلك في (مستدرك الناشر الخانجي)، وقد وجد من ذلك الكثير.

وفي مقدمته[3] ضرب لذلك بعض الأمثلة منها:

ماذكره صاحب (معجم البلدان) في (عكاد) و (عكوتين) قال: «اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد، من أحدهما عمارة اليمني الشاعر. إلى آخر الكلام عليهما» والصحيح كما يضيف الحجري:

« أن الجبلين المذكورين في وادي عِتْوَد من بلاد عسير على مسافة عشر مراحل من

---

(١) مقدمة المحقق لكتاب مجموع بلدان اليمن: ٧.

(٢) صدرت عن وزارة الثقافة والإعلام(صنعاء)عام١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م بتحقيق وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن علي الأكوع.

(٣) مجموع بلدان اليمن: ١٥-١٧.

زبيد، كما حكاه في (نفح العود)[1] . . وهما الجبلان اللذان يقول فيهما عمارة اليمني يخاطب عينيه: [رجز]

إذا رأيــــــــت جَبَلــــــــــي عَكّاد وعَكــــوتـــين مـــن مَحَلٍّ بــــادي

فــــأ بشـــــري ياعين بالرقــــاد

ومثال آخر يضربه:

«كقوله في جبل صَبِر المعروف بتعز، قال ياقوت:

وإليه ينسب نشوان بن سعيد الحميري صاحب كتاب (شمس العلوم). والصحيح أن نشوان نسب إلى (صبر) - بفتح الباء الموحدة- وهو واد غربي صَعْدَة فيه قرى ومزارع».

وكذا في ذكر ياقوت أن (ناعطاً) القصر الحميري المشهور قريب ريدة من بلاد حاشد شمال صنعاء، هو «حصن في رأس جبل بناحية اليمن قرب عدن!» إلى غير ذلك من مواضع وأنساب.

ويبدو أن الحجري- وقد تجمعت لديه استدراكات وتصحيحات كثيرة-تبين له أن عمله بهذه الطريقة سيكون ناقصاً ولن يزيد مهما اجتهد على إضافة مستدرك على (معجم البلدان) خاص باليمن. في حين أن هنالك ماهو أهم من الاستدراك والتصحيح، وهي تلك البلدان والمواضع والقبائل الكثيرة جداً والتي لم ترد أصلاً عند ياقوت، ربما بسبب شمولية معجمه، وعدم اقتصاره على بلاد اليمن.

---

(١) هوكتاب(نفح العود في سيرة الشريف حمود) للمؤرخ اليمني عبد الرحمن بن أحمد البهكلي الضمدي(ت١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م) أرخ فيه أحداث منطقته من المخلاف السليماني وتهامة اليمن في عصره. وقد نشره مع ذيل آخر المؤرخ السعودي المعروف الأستاذ محمد العقيلي(الرياض: ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

وتبين له إضافة فوائد أخرى جليلة منها :

- بيان المحلات والمخاليف ونحوها التي تبدلت أسماؤها عمّا كانت عليه عند الهمداني وغيره، حتى ياقوت. فجبل (تخلى) هو (جبل مسور المنتاب) من نواحي حجة. وجبل (تيس) يعرف الآن (ببني حبش) من بلاد الطويلة. أما مخلاف (ذي جرة) فهو اليوم (سنحان وبلاد الروس واليمانيتان) من خولان العالية. كما أن مخلاف (يحصب) : (يريم) وما جاورها، ومخلاف (المعافر) هو المعروف الآن (بالحجرية)[1] . .

- بيان مواضع الكثير من المدن والقرى الخاربة أو الدارسة (كأثافت . . وبراقش، والبيضاء، والسوداء . . . والثجة، والكدراء، والمهجم . .)[1] .

- وكان ياقوت قد قام بوضع كتابه المعروف والمطبوع (المشترك وضعاً والمفترق صقعاً) انتزعه بنفسه من (معجم البلدان) واقتصر فيه على ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطّاً، وافترق مكاناً وعملاً، أي الأسماء الجغرافية التي تطلق على أكثر من موضع، وذلك تسهيلاً للقارئ، وتوفيراً لوقته. وقد وجد العلامة الحجري في هذه الفكرة التي أضاف إليها (القبائل) (وإن لم يذكرها لياقوت)، فائدة: « لمعرفة البلدان والقبائل المتفقة الأسماء، المختلفة الجهات، كظفار داود في بلاد حاشد، وظفار يحصب-عاصمة التبابعة- في بلاد يريم، وظفار الحبوضي على ساحل البحر الهندي، فيما بين حضرموت وعمان. وكشبام أقيان وهي شبام كوكبان. وشبام الغراس، وشبام حضرموت المدينة المعروفة. وكبني قيس خولان من بلاد صعدة، وبني قيس حاشد، وبني قيس تهامة. والأوزاع بطن من حمير. والأوْد من بطون مذحج. ومساكنهم في دثينة، بين عدن وحضرموت . . »[2] .

---

(١) مقدمة المجموع : ١٦-١٧ ؛ وانظرها في أماكنهامن المجموع .

(٢) مقدمة المؤلف : ١٨ .

- ولم يكتف باستيفاء ما اشتملت عليه كل النواحي والقضوات (المديريات) من البلدان والقبائل، بل بين ارتفاع كل بلد عن سطح البحر، ومزروعاته ومسيل أوديته، وجهات مصباته في تهامة، ثم في البحر الأحمر، وجهة عدن وأبين، ثم البحر الهندي. وجهة مأرب والجوف ونجران، وما إليها، ثم الرملة الخالية (الربع الخالي).

وبتواضع العلماء يذكر -في الأخير- مؤلِّفُ آخِرِ مراجعنا (مجموع بلدان اليمن وقبائلها) أنه ما أراد بجمعه إلا حفظ معلوماته التي استفادها من مطالعاته للكتب التاريخية والجغرافية، ككتب الهمداني و (معجم البلدان) لياقوت الحموي، وعددآخر من أمهات الكتب والمصادر التي يورد أسماء أهمها وعناوينها [1]، ويتقيد بكل أمانة في الإحالة إليها، بالإضافة إلى مااستفاده مباشرة من جولاته و «من البحث والمشاهدة في كثير من بلدان اليمن» [1].

ذلك هو معجم العلامة الحجري الذي رتبه كمعجم ياقوت على حروف المعجم، وضمنه مادته بنصها بعد أن يذكر الصحيح أوالمستدرك عليه إذا وجَد ذلك، بالإضافة إلى ما فات ياقوتاً، وذكره غيره من المؤلفين. ويكون (مجموع الحجري) بكل هذا أكمل مرجع عن بلدان اليمن وقبائله حتى الآن.

ومن ناحية أخرى، فقد قام العلامة القاضي إسماعيل بن علي الأكوع محقق مجموع الحجري، وتلميذه القديم بنشر كتاب [2] جمع [3] فيه (البلدان اليمانية عند ياقوت). وهو عمل آخر اقتصر فيه على ذكر مادة ياقوت المعجمية في المتن والتعليق، أو

(١) المقدمة: ١٨-١٩.

(٢) هو: (البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي) تحقيق: القاضي إسماعيل بن علي الأكوع (جامعة الكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

(٣) عددتُ أسماء البلدان الواردة عند ياقوت والمستخرجة في هذا الكتاب فكان عددها (٩٨٠) راجع (ص: ٣٠١-٣٢٢) منه.

التحقيق على ماوجد فيه من خطأ أو وهم أو حاجة إلى الإضافة أوالاستدراك «حتى يعين الباحث على تجنب تلك الأخطاء التي وقعت في الأصل» . وهو عمل لايستطيع أن يقوم به إلا من رزق، مع سعة العلم والمعرفة، أناة المحقق الأكوع وصبره.

صنعاء: ٢٣رمضان ١٤١٣هـ/ ١٦مارس ١٩٩٣م

* * *

* *

*

مصادر ومراجع مختارة [1]

١- الأكوع (القاضي إسماعيل بن على) :

- البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، الكويت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)

- مخاليف اليمن عند الجغرافيين والمؤرخين المسلمين: بحث منشور في مجلة (مجمع اللغة العربية الأردني) رقم ٣٢ (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) .

٢- الاصطخري (ابراهيم بن محمد) :

- مسالك الممالك (ط. ليدن) ١٩٦٧م.

٣- أرنولد (السير توماس) (إشراف) :

- تراث الإسلام: عرّبه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله المحامي، دار الطليعة، بيروت (ط٢) ١٩٧٢م.

٤- البكري (أبو عبيد عبد الله البكري الأندلسي) :

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.

تحقيق: مصطفى السقا، (ط٣) عالم الكتب- بيروت ١٩٨٣م.

٥- خصباك (د. شاكر) :

- في الجغرافية العربية (دراسة في التراث الجغرافي العربي) دار الحداثة، بيروت (ط٢) ١٩٨٨م.

- دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) المجلد السابع . . الربيدي (محمد مرتضى) .

- تاج العروس (طبعة الكويت) .

٦- العمري (الدكتور حسين عبد الله) :

- المنار واليمن (دراسة ونصوص) . .

دار الفكر، بدمشق (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م) .

---

(١) أهملنا هنا ذكر بعض المراجع الثانوية والمشار إليها في هوامش البحث.

- في صفة بلاد اليمن عبر العصور :

(نصوص اختارها وحققها) : الدكتور حسن عبد الله العمري ، الأستاذ مطر الإرياني ، الدكتور يوسف محمد عبد الله . .

دار الفكر المعاصر ، بيروت (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) .

٧- المسعودي (علي بن الحسين) :

- مروج الذهب ومعادن الجوهر .

تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)

٨- المقدسي (محمد بن أحمد) :

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار إحياء التراث ، بيروت (١٩٨٧م) .

٩- ميكيل (أندريه) :

- جغرافية دار الإسلام البشرية ، ترجمة إبراهيم الخوري .

وزارة الثقافة ، دمشق (١٩٨٥م) .

١٠- الهمداني (الحسن بن أحمد) :

- صفة بلاد اليمن ، تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع .

دار اليمامة- الرياض (١٩٧٤م) .

١١- ياقوت الحموي :

- (معجم البلدان) . مطبعة السعادة للخانجي بالقاهرة (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٦م) .

العلامة السيوطي واليمن(*)
(٨٤٩-٩١١هـ/١٤٤٥-١٥٠٥م)

١) مدخل إلى العصر

كان قد مضى زمن طويل وانقضت عهود على ذلك الإبداع الفكري والأدبي والاجتهاد الأصولي والفقهي، وغير ذلك من فروع المعرفة وشعب الثقافة العربية الإسلامية، التي بلغت الذروة في القرنين الرابع والخامس للهجرة، «وأما لهذا العهد - وهو آخر المئة الثامنة- كما يقرر ببصر عالٍ العلامة ابن خلدون، « فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلّت بالجملة. وكأني بالمشرق قد نزل به مانزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخُمُولِ والانقباضِ فبادر بالإجابة !» (١).

ذلك كان حال الأمة وفكرها، بعد أن توقف الاجتهاد وأوصدَ بابه (٢)، فاستحكمت دوائر التقليد، وعقمت المذاهب في التجديد، ولم يعد يظهر بين عصر وآخر إلا نوادر من طبقات الحفاظ قصرت اجتهاداتها على شروح المذهب وما سبق من أمهات الحديث وطبقات رجاله ونحو ذلك(٣).

(*) بحث مقدم إلى ندوة الإمام جلال الدين السيوطي المنعقدة بجامعة مؤته ١٨-١٩ ربيع الثاني ١٤١٤هـ/ ٤-٥ تشرين أول(اكتوبر) ١٩٩٣م.

(١) ابن خلدون المقدمة(ط. الفرنسية)١/ ٤٠٥-٤٠٦ وراجع عنده في الموضوع نفسه: ٣/ ٣.

(٢) راجع كتاب العمري: الشوكاني رائد عصره، القسم الثاني: (إقفال باب الاجتهاد) ١٤٨-١٦١.

(٣) المصدر السابق: ١٥٣- ١٥٥.

ففي مصر كان من أبرز معاصري العلامة الكبير ابن خلدون(ت٨٠٤هـ/ ١٤٠١م) شيخ الإسلام سراج الدين البُلْقِيني (ت٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)، والحافظ الهيثمي (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م)، ثم تلميذه الحافظ المحدث المؤرخ ابن حجر العسقلاني(ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، ومن بعده علامة عصره - غير مدافع - الحافظ، المحدث، المفسر، الفقيه اللغوي، الأديب، المؤرخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ابن محمد الخضيري السيوطي المصري[1] (٨٤٩- ٩١١هـ/ ١٤٤٥- ١٥٠٥م)، الذي كانت أمنيته عند الطلب في شرخ شبابه أن يصل « في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البُلْقِيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر »[2].

لقد تحققت تلك الأمنية التي دعا بها وهو يشرب من ماء زمزم في حَجِّهِ، وربما بَزَّهُما بكثرة تصانيفه وتنوع مواضيعها. لكنه مع ذلك لم يخرج كثيراً عن دائرة مدرسة حفاظ علماء السنة المتأخرين، وإن تميز بالغزارة والاجتهاد، وهو الأمر الذي أفردت له هذه الندوة، التي تحتفي بذكراه، بمحاورها المختلفة التي يعالج كل واحد منها جانباً من جوانب شموليته المعرفية الواسعة. بَيْد أن ماتطمح إليه هذه المساهمة المتواضعة هو تناول جانب آخر متعلق بطرق تلقي اليمنيين مصنفات العلامة الكبير ومدى نقل أو تأثر نتاج علمائهم بذلك في إطار من وحدة الثقافة العربية الإسلامية.

* * *

(١) ترجم لنفسه في (حسن المحاضرة): ١/ ٣٣٥-٣٤٤، وفي (التحدث بنعمة الله) كما ترجم له معاصره اللدود (السخاوي) في الضوء اللامع: ٤/ ٦٨؛ وابن أياس، بدائع الزهور: ٤/ ٨٣؛ الغزي: الكواكب السائرة ١/ ٢٢٦-٢٣١؛ العيدروس، النور السافر: ٥٤-٥٨، الشوكاني: البدر الطالع: ١/ ٣٢٨-٣٣٥، البغدادي، هدية العارفين: ١/ ٥٣٤-٥٤٤، ابن العماد، شذرات الذهب: ٨/ ٥١-٥٥. وراجع مصادر ترجمته في معجم المؤلفين، لكحالة: ٥/ ١٢٨-١٣١.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة ١/ ٣٣٨.

٢) منهج(فن الرواية) وانتقال الثقافة:

معلومَةٌ تلك العلاقة الوطيدة والأكيدة بين مختلف طلاب العلم وشيوخه من أبناء الأمة العربية والإسلامية الذين يربطهم بعد العقيدة تراثهم المشترك وثقافتهم الواحدة، التي كان من أبرز ما ميزها من غيرها من ثقافات عالمية سائدة في عصور بعيدة، كان من الصعب التواصل والاتصال بها، هو سريانها وانتقالها من قطر إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، وفق منهج علمي دقيق استقام وترسخ عبر القرون. ذلك هو منهج(فن الرواية) وطرق الإسناد.

فبعد أن كانت الرِّحلة للأخذ على الشيوخ وأئمة الحديث مباشرة أمراً لاغنى عنه لطالب العلم، في تحري صحة الرواية وسندها، في مرحلة النشأة، وعصر التدوين، وماتلاه حتى القرن الرابع، حلّ(منهج الرواية) «بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية» ورسَخ قدمه، وباتت (الإجازة) و(المناولة) و(المكاتبة) و(الوجادة) بالإضافة إلى(السماع) و(القراءة) على الشيوخ قاعدة علمية ثابتة، ومصطلحاتها متفق عليها عند أهل العلم.

* * *

٣) الازدهار والتجديد في اليمن:

وبالعودة إلى اليمن في القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد، نجد أن مدرستي المذهبين السائدين(الزيدي) و(الشافعي) كانتا في مرحلة من أحسن المراحل الفكرية والأدبية ازدهاراً. وكانت هِجَرُ (جمع هِجْرة) العلم ومدارسُه المشهورة في زَبيد وتعز وصَعْدة وصنعاء وذَمَار وتَريم والشِّحر وغيرها، مراكز جذب لطلاب العلم

وشيوخه من داخل البلاد وخارجها . وكان لذلك الازدهار أسبابه الموضوعية المحلية والخارجية عند كلا المدرستين على تفاوت .

فمن الناحية السياسية كان يسيطر على معظم البلاد التهامية والمرتفعات الوسطى والجنوبية حتى حضرموت سلاطين بني رسول (٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٩-١٤٥٤م) ورثة الأيوبيين السنيين . في حين كان قد تراجع حكم أئمة الدولة الزيدية (الثانية)[١] إلى شمال صنعاء . وفي ظل اهتمام عدد من حكام بني رسول بالعلوم والآداب، بل والإسهام بالتأليف والتصنيف[٢]، ومن ثم رعاية العلماء والأدباء والمؤرخين الذين تقاطر بعضهم وافداً من خارج اليمن، أمثال العلامة الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ/ ١٤١٥م) صاحب القاموس[٣]، والحافظ الكبير ابن حجر العسقلاني الذي أخذ عن الفيروز آبادي وترجم له، ومن بعده العلامة السيوطي، كما ذكر هو عن نفسه[٤] وآخرين ربما كانوا أقل شهرة أومكانة . ومن جانب آخر، كان الاهتمام العلمي والعودة إلى التراث في مصر المملوكية التي كثرت فيها المدارس وباتت أهم مراكز العلم في هذا العصر، من الأسباب المؤثرة على المدرسة اليمنية وازدهارها .

ومن ناحية أخرى، شهدت المدرسة (الزيدية) ذات الأصول الاعتزالية، والقريبة من مذاهب أهل السنة تحولاً هاماً بعد جمود مذهبي، ذلك هو ظهور (التيار الزيدي المتفتح على أهل السنة)[٥] . والذي بدأ مع معاصري ابن حجر، العالمين الجليلين الإمام

---

(١) راجع مواد (الدولة الزيدية) و(بني الرسول) للكاتب في الموسوعة اليمنية .

(٢) انظر عنهم على سبيل المثال: ابن حجر، الدرر الكامنة ٢/ ٩٩-١٠٠ (عن المؤيد داود: ت٧٢١هـ): ٣/ ٤٩ (المجاهد علي بن داود: ت٧٦٤هـ): إنباء الغمر: ١/ ١٤٠ (عن الملك الأفضل عباس: ت٧٧٨هـ): ٢/ ١٥٨ (عن معاصره الأشرف إسماعيل بن العباس: ت٨٠٣هـ). .

(٣) انظر عنه: السخاوي، الضوء اللامع ١٠/ ٧٩؛ الشوكاني، البدر الطالع: ٢/ ٢٨٢ .

(٤) حسن المحاضرة: ١/ ٣٣٨.

(٥) انظر: صبحي (د. أحمد) الزيدية ٥٣٦ وما بعدها .

المهدي أحمد بن يحيى المرتضى صاحب (الأزهار) و(البحر الزخار)[1] وغيرهما من كتبه المطبوعة والمخطوطة، والعلامة المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير صاحب (إيثار الحق على الخلق) (ط) وسفره الكبير (العواصم والقواصم)[2]، والمتوفين معاً في عام ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م.

لقد شكل هذا التيار مدرسة اجتهادية تجديدية متميزة في الفكر العربي الإسلامي، بلغ أثرها غايته مع آخر أبرز أعلامها شيخ الإسلام العلامة القاضي محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م).

* * *

٤) الحافظ ابن حجر أول البداية :

هنالك صلة وتشابه في العلاقة والأثر عند اليمنيين، بين كلٍّ من الحافظين ابن حجر والسيوطي، تتضح لنا أكثر من سياق البحث في هذه الحقبة المزدهرة على تفاوت في المشرق العربي، فقد زار الحافظ الكبير أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني اليمن مرتين[3]، الأولى في ربيع سنة ٨٠٠ هـ/ ١٣٩٧م[4]، زار فيها مدن زبيد، وتعز، وعدن، واتصل بعلمائها أيام السلطان الملك الأشرف (الثاني) الرسولي، إسماعيل بن العباس (٧٧٨-٨٠٣ هـ/ ١٣٧٦- ١٤٠٠م). وقد وصفه ابن حجر بأنه «كان مقبلاً على

---

(١) راجع مقالنا (الأزهار) في الموسوعة اليمنية: ١/ ٩٦.

(٢) صدر (العواصم والقواصم) حديثاً في تسعة مجلدات عن دار البشير- عمان، ومؤسسة الرسالة- بيروت بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط (عمان ١٩٨٥م، بيروت ١٩٩٢م).

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ٣/ ٥٢١ في ترجمته للعلامة اليمني إسماعيل بن أبي بكر بن المقرئ ت٨٣٧هـ صاحب (عنوان الشرف الوافي) (ط) الذي اجتمع به في زبيد عامي ٨٠٠ و٨٠٦هـ وأخذ عنه.

(٤) السخاوي، الجواهر والدرر ١/ ٨٦.

العلم والعلماء، أحبّ جمع الكتب، وكان يكرم الغرباء ويبالغ في الإحسان إليهم، امتدحْتُهُ لما قدمت بلده، فأثابني أحسن الله جزاءه»[1].

كان ابن حجر في السابعة والعشرين من عمره في زيارته الأولى تلك. أما الزيارة العلمية الثانية، فقد كانت عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م حين كان قد بلغ الثالثة والثلاثين، كما يذكر لنا تلميذه المؤرخ السخاوي، في ترجمته التي أفردها لشيخه[2].

أثمرت زيارتا ابن حجر في عدة أمور، منها تلك الصلة العلمية، والصداقات المتينة التي ربطت بينه وبين عدد من علماء اليمن، من كلا المدرستين، ثم الشهرة والمكانة التي نالها في حياته وبعد وفاته، وكان بذلك حلقة الوصل (الثامنة) بين سلسلة رجال السند الموثوق بها في اليمن في رواية كتب الحديث وعلومه، كالأمهات الست وغيرها من المصنفات حتى عصره[3].

الأمر الآخر تلك الفوائد العلمية، والمعلومات التاريخية، التي نجدها في بعض مصنفات ابن حجر وبشكل خاص في التاريخ والتراجم، كما نجدها في (إنباء الغمر بأنباء العمر) و(الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) الأمر الذي سنلاحظه كذلك عند العلامة السيوطي، إننا نستفيد من الأخير - فيما نحن بصدده - ما ذكره من اطلاع ابن حجر وهو في زبيد على شرح العلامة الفيروز آبادي لصحيح البخاري، الذي أسماه (فتح الباري بالسيح الفسيح الجاري، في شرح البخاري)، فأخذ ابن حجر اسمه

---

(١) إنباء الغُمر: ٢/ ١٥٨.

(٢) السخاوي: الجواهر والدرر بتحقيق (حامد عبد المجيد وطه الزيني) القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ص: ٨٦، ٨٩. د. محمد كمال عز الدين: التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني، بيروت (دار إقرأ) ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م: ١١٩-١٢٦؛ وللأستاذ عبد الله الحبشي مقال عن الحافظ ابن حجر نشره في مجلة (العرب) في عددها المزدوج (١١-١٢)، الرياض: في جمادى ١٤٠٦هـ.

(٣) العمري، الشوكاني رائد عصره ٤٦-٥٤، وانظر الجدول الملحق بالبحث.

وسمّى به (شرح البخاري) تأليفه[1]. لقد مر بعد ذلك نحو أربعة عقود، حتى فرغ ابن حجر من تصنيف شرحه المشهور، والمعروف في مختلف الأقطار، وجرى الاحتفال بذلك خارج القاهرة عام ٨٤٢هـ/ ١٤٤٨م، في حضور كبار العلماء من المحدثين والرواة الثقات، الذين كان من بينهم رواة (فتح الباري) وناقلوه إلى الحجاز واليمن والشام[2].
شأنه شأن ماعرف من مؤلفاته، التي تداولها العلماء في حياته، أو بعد مماته بقليل. ومع ذلك، فلعله من المستغرب أن يذكر المؤرخ المحدث المُسْنِد ابن الديبع (ت٩٤٤هـ/ ١٥٢٧م) خبر وصول (فتح الباري) إلى زبيد بعد ستين سنة من تصنيفه في مطلع عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، بعد أن أمر السلطان المظفر عامر بن عبد الوهاب (ت٩٢٣هـ/ ١٥١٦م) أن يُشترى، وأحضرت له نسخة منه إلى تعز، ووقف أخرى على جامع زبيد[3]. إن الحفاوة والاحتفال اللذين قوبل بهما قدوم شرح ابن حجر ذلك العام يدلان على معرفة واطلاع سابق عليه من قبل العلماء وطلابه المختصين في اليمن عن طريق الحجاز ومصر، بذلك المنهج المتقدم نفسه، وهو ما سنراه كذلك في الحديث عن العلامة السيوطي ومصنفاته، ومالقي بعضها من العناية أو الاهتمام في عصره وحتى القرن الماضي.

* * *

---

(١) السيوطي، بغية الوعاة١/ ٢٧٤.

(٢) فتح الباري: ١٣/ ٥٤٦- ٥٤٨.

(٣) ابن الديبع: قرة العيون٢/ ١٩٣-١٩٤؛ العيدروس، النور السافر ص: ١٧ يحيى بن الحسين، غاية الأماني: ٦٦٢-٦٦٣.

٥) العلامة السيوطي استمرار للحافظ ابن حجر

حين ولد الجلال السيوطي في مستهل رجب سنة ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، كان العلامة ابن حجر العسقلاني أشهر علماء عصره ومحدثيه في المشرق العربي كله، ورغم أنه لم يلحق التتلمذ عليه[١]، فقد كان يعده شيخه في الرواية وقدوته في العلم والحديث على وجه الخصوص، لهذا نجده يقتفي أثر سلفه العلامة ابن حجر في أمور كثيرة، أولها الرِّحلة في طلب العلم، إذ سافر إلى « بلاد الشام والحجاز واليمن» بل وأبعد من ذلك إلى «الهند والمغرب والتكرور» [٢].

وإذا كنا قد عرفنا من ابن حجر نفسه متى زار اليمن، وكم كان عمره! فإن الأمر ليس واضحاً مع السيوطي، ولعل زيارته كانت عند قفوله من الحج سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م بعد أن جاور في مكة عاماً وهو في مرحلة الطلب، حين كان في الحادي والعشرين من عمره إذا إنه بعد ذلك عاد إلى مصر، وشرع في الإفتاء من «مستهل سنة إحدى وسبعين وعقد مجلس إملاء الحديث من مستهل السنة التالية». ومعلوم استقراره وتفرغه وهو في شرخ الشباب والكهولة للعلم والتصنيف والإفتاء، حتى دخل في آخره عزلة بداره بمنيل الروضة جنوب القاهرة، وهي عزلة اختلف في بدايتها وحقيقتها، وفي مدى علاقتها بمسلكه التصوفي الذي لم « يشغله عن العلم والمشاركة فيه، بل إنه ألف في هذه الفترة من حياته كثيراً من المؤلفات، وقد أتاح له الاعتكاف والاعتزال والابتعاد عن الحياة بمشاغلها، الفرصة للعلم والتأليف» [٣].

---

(١) يذكر صاحب النور السافر: أنه أحضره والده وعمره ثلاث سنين مجلس شيخ الإسلام ابن حجر مرة واحدة، ص: ٥٢، وهذا يعني أن ذلك كان سنة وفاة ابن حجر عام: ٨٥٢هـ.١٤٤٨م.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة١/ ٣٣٨، والتكرور هي دولة(غينيا) الآن.

(٣) انظر: د. طاهر سليمان حمودة، جلال الدين السيوطي١٠٤-١١٩.

وكما ظهرت نتائج زيارة ابن حجر لليمن أكثر وضوحاً في كتب التراجم المزدهرة والتاريخ، فإننا نجد الأمر نفسه فيما كتبه السيوطي من تراجم للرجال في كتبه المختلفة، والذي يأتي كتابه الحفيل(بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة) في طليعتها مثالاً لذلك، إضافة إلى أنه من أحسن ما صنف في الباب، فقد « أودعه صفوة جميع الكتب التي سبقته في هذا الشأن، وزاد عليها ماانتقاه من كتب الأدب والتاريخ والتراجم ومعاجم الشيوخ والتذكرات، ومقدمات الكتب، عدا مشاهداته، وأخبار شيوخه وعلماء عصره»[1].

وفي قائمة مصادره ومراجعه التي ذكرها في مقدمته نجد من بينها(تاريخ اليمن للجندي) و(تاريخ اليمن للخزرجي)[2] وعنهما وعن غيرهما ككتاب (البلغة في أئمة اللغة) للمجد الفيروز آبادي، ترجم لعدد كبير من اللغويين والنحاة اليمنيين[3] غير غافل عن ذكر مصدره أو مصادره دائماً.

ففي ترجمته للعلامة إسماعيل المقري[4] ينقل عن ابن حجر[5] معلومات كالمولد والوفاة، معللاً ذلك أن « الخزرجي في تاريخه متقدم الوفاة عليه بكثير فقد توفي عام

(١) السيوطي: بغية الوعاة (ط٢) مقدمة المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم: ٠٦

(٢) السيوطي، بغية الوعاة: ١/ ٤، والمقصود بالأول(السلوك في طبقات العلماء والملوك) للبهاء الجندي المتوفى بعد عام ٧٣٢هـ أصدرته وزارة الإعلام والثقافة بصنعاء وطبع بتحقيق العلامة القاضي محمد بن علي الأكوع، صنعاء ١٩٨٦م، والآخر(العسجد المسبوك) لعلي بن حسن الخزرجي (ت٨١٢هـ/ ١٤١٠م) وقد نشرته حديثاً وزارة الإعلام والثقافة بصنعاء مصوراً.

(٣) بلغت تراجم (البغية) بمجلديها (٢٢٠٩) تراجم يمكن استخراج عدد من التراجم اليمنية من بينها، انظر على سبيل المثال: التراجم(٥٠٦، ٩٠٩، ١٢٧٣، ١٦٥٩ (٢) ١٤٤، ١/ ٢٧٣ رقم ٥٠٦، ١/ ٤٤٤ (٩٠٩).

(٤) ترجمة رقم (٩٠٩): ١/ ٤٤٤.

(٥) ابن حجر: إنباء ٢/ ٤٤١ الذي ينص«اجتمعت به بزبيد وقد تجاوز سبعين سنة وكتب لي مدحاً، مات في أواخر هذه السنة».

٨١٢هـ، في حين مات المترجم له أي (المقري) كما ينقل عن ابن حجر سنة سبع وثلاثين وثمان مئة »[١].

كما تعمدنا الاستئناس بهذه الترجمة مدخلاً، لأن السّيوطي ذكر فيها أن العلامة المقري: «صنف عنوان الشرف[٢]، كتاباً بديع الوصف مجموعه في الفقه، وفيه أربعة علوم غيره تخرج من رموزه في المتن، عجيب الوضع؛ وهي نحو وتاريخ وعَروض وقوافٍ، وهو خمس كراريس».

ثم يضيف السيوطي: «قلت: وقد عملت كتاباً على هذا النمط في كراسة في يوم واحد وأنا بمكة المشرفة وسميته(النفحة المسكية والتحفة المكية)، جعلت مجموعه في النحو، وفيه عَروض ومَعان وبديعٌ وتاريخٌ »[٣] ويستفاد من هذا اطلاعه على (عنوان الشرف) وغيره من الكتب اليمنية، سواء عند زيارته لليمن، أو حين كان مجاوراً بمكة بين عامي ٨٦٩- ٨٧٠هـ/ ١٤٦٤-١٤٦٥م، ومن ناحية أخرى ظهور ميله للدعاوى والمبالغة في الحديث عن نفسه. فقوله المبالغ فيه، إنه عمل(النفحة) في يوم واحد، قد أعطى معاصره اللدود العلامة المؤرخ السخاوي فرصة السخرية منه بهذا القول[٤].

* * *

مؤلفات السيوطي في اليمن:

بغض النظر عن الأهمية والتفاوت في القول عن مدى الاجتهاد أو الأصالة فيما ألفه وصنفه العلامة السيوطي، فإن هذا البحث - كما أشرت في مدخله مَعني في

---

(١) البغية: ١/ ٤٤٤.

(٢) انظر عن نسخه والآراء فيه كتابنا مصادر التراث اليمني: وقد طبع حديثاً (١٩٨٥م) في دولة قطر.

(٣) السيوطي، البغية١/ ٤٤٤.

(٤) الضوء اللامع: ٤/ ٦٨.

الدرجة الأولى بطرق تلقي اليمنيين العلم، ومصنفاته التي كان من بينها كتب السيوطي، وابن حجر من قبله، ومدى أثر ذلك في كتاباتهم وتصانيفهم.

إننا لا نعرف على وجه اليقين أي مؤلفات السيوطي قد وصلت أونقلت إلى اليمن في حياته، وأيها جاءت بعد ذلك. غير أن بعض مترجميه يذكر معمماً اشتهار أكثرها في حياته، ومن ذلك مايذكره المؤرخ الدمشقي، المحدث المسند نجم الدين الغزي (ت١٠٦١هـ/ ١٦٥١م)، بعد سرده لمؤلفات السيوطي الكثيرة، وروايته لها عن والده، عن المؤلف أنه «قد اشتهر أكثر مصنفاته في حياته في البلاد الحجازية والشامية.. واليمن» ويضيف ملاحظاً ومتعجباً: «وكان في سرعة الكتابة والتأليف آية كبرى من آيات الله!»[1].

أما صاحب (البدر الطالع) شيخ الإسلام الشوكاني، المعجب بالسيوطي وأكثر العلماء اليمنيين المتأخرين معرفة به وبعلومه، فبعد ذكره لأهم مصنفاته يقول: «.. وتصانيفه في كل فن من الفنون مقبولة قد سارت في الأقطار مسير النهار..»[2].

بل إن صاحبنا العلامة السيوطي نفسه يفاخر بذلك في إحدى مقاماته[3] التي يرد بها على السّخاوي، ذاكراً انتشار مصنفاته، ومنها مختصر سماه (بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للضلال) الذي «طبق الآفاق ونجم، وسارت منه نسخ إلى بلاد المغرب والتكروروالحجاز واليمن والهند..».

وكيفما كان الأمر، فقد كان في اليمن طريقان لرواية كتب العلامة السيوطي:

---

(١) نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة١/ ٢٢٨.

(٢) البدر الطالع: ١/ ٣٢٨.

(٣) عنوانها مقامة تسمى (ساحب سيف على صاحب حيف) انظرها في (شرح مقامات جلال الدين السيوطي) تحقيق: سمير محمود الدروبي: ١/ ٥٦١-٥٦٣.

الأولى عن طريق مدرسة (زَبيد) الشّافعية، عن الحافظ المؤرخ عبد الرحمن ابن الديبع (ت٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م) عن المؤلف[١]، والأخرى عن طريق مكة مباشرة، في سلسة تعتمد على المسند الثّقة الرِّحْلَة شَمسِ الدِّين محمد بن عَلاء الدّين البَابلي المصري (ت١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م) الموصوف (بمسند الدنيا) و(مسند العصر الأخير)[٢].

كانت الرواية لكتب السيوطي وغيره من مشاهير علماء الأمصار المعاصرين دليل المتابعة وعلو الكعب في المعرفة لدى المجتهدين من طلاب العلم، ولم يكن التصنيف أو القيام بالشروح أو التلخيص أو المعارضة والنقد هو المقصد الوحيد، بل الدليل على شمول الاطلاع، كما يظهر في بعض الأمثلة التي نسوقها مقصورة على علوم السنة، فَليسَ بمستغرب أن يكون علم الحديث وفنونه من أولويات اهتمام عُلماء اليمن بمدرستيه ومتابعة كل جديد يصل إليهم في هذا العلم.

فقبل العلامة ابن الأمير الصنعاني صاحب (سبل السلام) اعتنى آخرون بشرح بعض كتب الحافظ ابن حجر، من ذلك شرح العلامة عبد الرحمن الحيمي (ت١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م)[٣] لكتابه (بلوغ المرام من أحاديث الأحكام)[٤] وقاضي صنعاء الحسين بن محمد المغربي(ت١١١٩هـ/ ١٧٠٧م)[٥] صاحب (البدر التمام شرح بلوغ المرام)[٦] كما وجد كتاب (المقاصد الحسنة في تخريج الأحاديث الدائرة على الألسنة) للحافظ المؤرخ

---

(١) الشوكاني، إتحاف الأكابر ٤؛ ٥؛ ٣٤؛ ١٠٧.

(٢) المحبي، خلاصة الأثر ٤/ ٣٩-٤٤، الشوكاني، البدر الطالع: ٢/ ٢٠٨؛ ويروي الإمام الشوكاني ومدرسته مؤلفات الحافظين ابن حجر والسيوطي وطبقتهما عن كلا الطريقين، عن شيوخه (انظر: الإمام الشوكاني رائد عصره للكاتب: ٤٨-٥٥).

(٣) البدر الطالع: ١/ ٣٤٠.

(٤) مصادر الحبشي: ٥٦.

(٥) البدر الطالع: ١/ ١٥٣.

(٦) الحبشي: ٥٩.

السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)[١] عناية سواء بالشرح أو الاختصار، وذلك مافعله العالمان محمد بن عمر بحرق (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) الذي ترجم له السخاوي في(الضوء اللامع)، وأحمد بن عبد الله الوزير(ت٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م)[٢].

أما كتابا (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) للعلامة السيوطي فهما ككتابيه في التفسير: (الدرّ المنثور) و(الإتقان) من أكثر الكتب تداولاً ودرساً وتمحيصاً في اليمن من وقت مبكر[٣]. فمن أوائل الشروح المفيدة على(الجامع الصغير) مصنف المحدث العالم والمؤرخ الكبير يحيى بن الحسين بن القاسم (ت. بعد. : ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م) (الضوء المنير على الجامع الصغير)[٤] وللعالم الفقيه عبد الله بن حسين دلامة (ت ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م) (مختصر الجامع الصغير)[٥].

ويأتي في هذا السياق- بعد ذلك- شرح العلامة المجتهد الكبير محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (ت ١١٨٢هـ/ ١٧٦٩م) (التنوير شرح الجامع الصغير) بمجلداته الأربعة[٦] كواحد من أعماله وشروحه الكثيرة لبعض مصنفات مجتهدي مدرسة الحفاظ المصرية، التي يمثل ابن حجر والسيوطي أبرز أعلامها، ولعل شرح العلامة محمد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل الزبيدي (ت١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م) لمصنف السيوطي المسمى

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع٨/ ٢٥٣، وانظر الحبشي: ٥١/ ١٢٣.

(٢) الحبشي: ٥٤، ترجمه زبارة في ملحق البدر الطالع(ص: ٣٧)، وعنوان مصنف ابن الوزير هذا (تحرير مختصر المقاصد الحسنة في تخريج الأحاديث الدائرة على الألسنة) (خ).

(٣) انظر أدب الطلب للشوكاني: ١٣٧.

(٤) مصادر الحبشي: ٥٨ وبه ذكر نسخه، وعنه انظر كتابنا: المؤرخون اليمنيون في العصر الحديث.

(٥) الحبشي: ٦٢.

(٦) مازال مخطوطاً، ذكر الأستاذ الحبشي في مصادر أن منه نسختين(ص: ٦٣).

(أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب)[1]، أحد وجوه استمرار الاهتمام في اليمن بآثار السيوطي، والتحشية عليها حتى زمن متأخر على عصره.

أمّا الاقتباس أو الإشادة بالذكر والاستشهاد بمصنفات ورسائل العلامة السيوطي في كتابات وتصانيف اليمانيين فمما لا يدخل تحت الحصر. ونسوق لهذا أمثلة قليلة- من غير كتبه المشهورة- قبل اختتام هذا البحث بوقفة مع آخر كبار مجتهدي اليمن وعلمائه المتأخرين في العصر الحديث، أعني شيخ الإسلام الإمام الشوكاني الذي كان من أكثر علماء عصره معرفة واستفادة من مختلف تصانيف السيوطي ومؤلفاته، كما بات أشهر من انتصف له على خصمه السخاوي[2]، كما هو معروف وما سنشير إليه بعد قليل.

إن أول الأمثلة التي نوردها- على سبيل الاستشهاد- إشارة المؤرخ العالم عبد الله ابن علي الوزير (ت١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م) وهو يؤرخ لحوادث سنة١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م ولزلزلة وقعت فيها، إلى كتاب مفيد في بابه للسيوطي هو: (كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة)[3] ومثله وبعده استشهد مقتبساً من نفس كتاب السيوطي المؤرخ محسن أبو طالب (ت١١٧٠هـ/ ١٧٥٧م) وهو يؤرخ لزلزلة وقعت عام(١١٥٤هـ/ ١٧٤١م)[4].

ومن المؤرخ ابن الوزير- أيضاً- نسوق مثالاً ثانياً يدل فيما يدل على عدة أمور، منها الإنصاف أو الموضوعية عند مجتهدي علماء الزيدية في نقاشهم لآراء الفرق

---

(١) الكتاب في الخصائص النبوية الشريفة، وقد عنون الأهدل شرحه: بـ(فتح الكريم القريب شرح أنموذج اللبيب..) وقد طبع للمرة الأولى بمصر سنة ١٤٠٠هـ.

(٢) البدر الطالع: ١/ ٢٢٩.

(٣) ابن الوزير، طبق الحلوى ص٣١١؛ وقد وجد كتاب السيوطي طريقه للنشر مؤخراً بعد أن قام بتحقيقه وطبعه عبد الرحمن بن عبد الجبار الغريوائي(المدينة المنورة١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

(٤) تاريخ أبي طالب(محسن بن الحسن)، نشره بعنوان(تاريخ اليمن) (ط. عام١٩٩٢م) للمحقق الحبشي: ٤٨٦.

الأخرى، ومنها المتصوفة، ومن ثم معرفتهم بموقف السيوطي من التصوف وما كتبه في الموضوع.

ففي سرد ابن الوزير لحوادث سنة١٠٦٤هـ/ ١٦٦٣م يذكر خبراً، مفاده أن الإمام[1] أمر بإحراق كتاب (فصوص الحكم) للصوفي والمتكلم الشهير أبي بكر محيي الدين ابن عربي (ت٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) «بناءً على أن مافيه كُفرٌ بحت». وينطلق ابن الوزير من مركز العَالِم الواسع الاطلاع لا ليؤرخ للحادثة فحسب، بل ليبسط مختلف آراء واجتهادات علماء العرب والمسلمين، وبينهم السيوطي وأنداده من علماء مصر واليمن، حول ابن عربي وقوله بوحدة الوجود، ليخلص إلى أن هناك: «ثلاثة أصناف؛ صنف جزَم بتكفيره.. وصنف جَزَم بإسلامه، بل قال: هو من الأولياء، وإنما جهل المتقدمون مقاصده.. والصنف الثالث **توقف في شأنه كالسيوطي والسخاوي..**» ثم يضيف موضحاً لهذا الرأي الأخير بقوله: «قيل: وهو الأولى بمن لم تعرف مقاصده..» لينتقل بعد ذلك مناقشاً لاختيار السيوطي بما لا مجال لبسطه هنا[2].

ومثل هذه الكتابات والنقاشات لبعض ما تفرد به السيوطي عن مدرسة حفاظ عصره، نجدها مبثوثة في رسائل وأبحاث جلها مخطوط للعلامة الحسن الجلال (ت١٠٨٤هـ/ ١٦٧٣م) وابن الأمير ومن في درجتهما من الإحاطة والاجتهاد[3]، أما المثال الأخير: هو انتشار كتاب السيوطي (حسن المحاضرة) كانتشار بعض كتبه الأخرى،

---

(١) هو المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد (١٠٤٥-١٠٨٧هـ/ ١٦٤٤-١٦٧٣م)، في ظل حكمه أعاد سيطرة الدولة المركزية على كل أنحاء اليمن من حدود الحجاز شمالاً إلى عمان مشرقاً.

(٢) انظر: طبق الحلوى(حوادث سنة ١٠٦٤هـ/ ١٦٦٣م).

(٣) في مكتبة الجامع الكبير(مجاميع) يتضمن بعضها رسائل متفرقة للجلال وابن الأمير يناقش فيها ابن الأمير آراء مثل(خلود النار) والقائلين بفنائها ومن بينهم السيوطي، وضمن مجموع آخر في المتحف البريطاني، فيه (الغيث المدرار) للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى (كتاب الباهر في حكم التنبي بالباطن والظاهر) للسيوطي(راجع مصادر العمري١٩٦).

بين مختلف أوساط العلماء والمتعلمين، كواحد من كتب التاريخ المعروفة في اليمن من عصر المؤلف. ففي ترجمة الشوكاني لشيخه العلامة المجتهد عبد القادر بن أحمد الكوكباني (ت١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م) يظهر إعجابه الشديد بمعرفة شيخه بتفاصيل كثيرة، قديمة ومعاصرة، عن أحوال مصر، لدرجة اعتقد معها في البداية، أن شيخه زار مصر وعرفها، وليس مصدر ذلك الاطلاع على الكتب المعروفة (كخطط) المقريزي و(حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) للسيوطي، إنما الشأن فيما يحكيه صاحب الترجمة، على ما جرت في عصره، فإن ذلك هو الأمر العجيب الدال على اختصاصه بما لا يقوم به غيره[1].

* * *

٦) الشوكاني ينخل كتب السيوطي وينتصف له:

وهكذا وبذلك المنهج نفسه الذي تحدثنا عنه في صدر مبحثنا هذا، ورث الإمام المجتهد الكبير شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ/ ١٧٥٦-١٨٣٤م) ومعاصروه من اليمنيين، ثقافة وتراث أسلافهم، من شيوخ وعلماء وحفاظ، كان علاّمتنا الجليل جلال الدين السيوطي واحداً من أبرز من احتفل بهم الشوكاني، وتلقى بالسند والرواية والقراءة الممحصة على شيو خه- أمثال شيخه المتقدم ذكره العلامة عبد القادر بن عبد الله[2] - كتب السيوطي ومصنفاته جميعها[3]، ووجدنا ذكره واقتباساته، وأحياناً نقده لأشهرها، كالإتقان، والدر المنثور في التفسير[4]،

---

(١) البدر الطالع: ١/ ٣٦٤- ٣٦٥.

(٢) راجع: الشوكاني رائد عصره للكاتب: ٢١-٤٠.

(٣) الشوكاني، إتحاف الأكابر: ١٠٧؛ البدر الطالع: ١/ ٢٢٩.

(٤) إتحاف الأكابر: ٥٢٤، ١٨، ٢٧، ١٠٧؛ فتح القدير (المقدمة): ١/ ١٣.

والحاوي، والجامعين الكبير والصغير وأضرابهما في الحديث[1]، والمزهر في اللغة[2]، وحسن المحاضرة، وبغية الوعاة، وطبقات المفسرين في التراجم والتاريخ[3]، إلى غير ذلك مما يجده المتتبع للمنشور وغير المنشور من نتاج وتصنيف غزير للشوكاني، يزاحم به السيوطي في الكثرة والتنوع، وهو أمر جدير بالتأمل والمقارنة.

ولعل الكثير من التشابه بين الرجلين في النبوع المبكر، مع الاجتهاد، والغزارة في الإنتاج، والطموح، ومواجهة المتعصبين إلى غير ذلك، مع اختلاف العصر والبيئة والظروف، جعلت من الشوكاني متحمساً ومنتصراً للسيوطي، كما يظر ذلك واضحاً في ترجمته المعروفة للسيوطي في كتابه(البدر الطالع)[4] ففيها ينبه القارئ على مدى ماتحامل عليه معاصره المؤرخ السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) في كتابه (الضوء اللامع)، حين ترجمه فيه، كما يقول الشوكاني: «ترجمة مظلمة غالبها ثَلْبٌ فظيع، وسبٌّ شنيع، وانتقاص وغمْطٌ لمناقبه، تصريحاً وتلويحاً، ولا جَرَم فذلك دأبُه في جميع الفضلاء من أقرانه، وقد تنافس هو وصاحب الترجمة منافسة أوجبت تأليف صاحب الترجمة لرسالة سمّاها (الكاوي لدماغ السخاوي) فليعرف المطَّلعُ على ترجمة هذا الفاضل في(الضوء اللامع) أنها صدرت من خصم له غير مقبول عليه»[5].

* * *

---

(١) مقدمة كتابه(نيل الأوطار) وانظر مقدمتنا لكتابه (دَرّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة) دار الفكر - دمشق ١٩٨٥م.

(٢) إتحاف الأكابر: ٨٩.

(٣) العمري، الشوكاني رائد عصره: ٣٨٦.

(٤) البدر الطالع: ١/ ٣٢٨-٣٣٥.

(٥) المصدر السابق: ١/ ٣٢٩.

أهم المصادر والمراجع[1]

ابن الأمير (محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، ت ١١٨٢هـ)

١- إبطال القبول بفناء النار (خ).

٢- التنوير شرح الجامع الصغير (خ).

٣- سبل السلام شرح بلوغ المرام، القاهرة ١٣٤٤هـ.

٤- منحة الغفار حاشية علي (ضوء النهار على الأزهار) للحسن الجلال (ط. مجلس القضاء الأعلى، صنعاء ١٩٨٤م).

الأهدل: (محمد بن أحمد بن عبد الباري، ت ١٢٩٨هـ)

٥- فتح الكريم القريب شرح أنموذج اللبيب، القاهرة ١٤٠٠هـ.

الحبشي: (عبد الله محمد)

٦- مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن. (مركز الدراسات والبحوث، صنعاء ١٩٧٨م).

ابن حجر: (أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ)

٧- إنباء الغُمر بأنباء العُمر- تحقيق د. حسن الحبشي (القاهرة، هيئة البحوث الإسلامية).

٨ - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة. الهند: ١٣٤٨هـ.

٩ - رفع الإصر عن قضاة مصر، بيروت ١٩٠٨م

١٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري (بولاق ١٣٠١هـ، دار الفكر- دمشق).

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ)

١١- المقدمة (ط) باريس ١٨٥٨م).

الدروبي: (سمير محمود)

١٢- شرح مقامات جلال الدين السيوطي. عمان ١٩٨٧م.

ابن الدبيع (عبد الرحمن الشيباني الزبيدي، ت ٩٤٣هـ).

١٣- قرة العيون في أخبار اليمن الميمون. تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع الحوالي، القاهرة ١٩٧٦م.

السّخاوي: (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ).

١٤ - الجواهر والدرر. تحقيق حامد عبد المجيد وطه الزيني. القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

---

(١) أهملنا ذكر المراجع الثانوية التي أشير إليها في أماكنها من حواشي البحث.

١٥ - الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع . مصورة عن القدسي، بيروت .

سليمان : (الدكتور طاهر حمودة)

١٦ - جلال الدين السيوطي .

السيوطي : (جلال الدين، عبد الرحمن، ت ٩١١هـ) .

١٧ - الإتقان في علوم القرآن، وبهامشه إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني، مصر ط٣/ ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

١٨ - أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب (انظر الأهدل) .

١٩ - بغية الوعاة في طبقات النحاة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر .

٢٠ - التحدث بنعمة الله .

٢١ - الجامع الكبير (جمع الجوامع) .

٢٢ - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير .

٢٣ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر (ط٢) .

٢٤ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (ط . دار الفكر، دمشق) .

٢٥ - الكاوي لدماغ السخاوي (في مقامات السيوطي) .

٢٦ - كتاب الباهر في حكم النبي بالباطن والظاهر (خ) .

٢٧ - كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الغريوائي، المدينة المنورة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٨ - مقامات السيوطي (انظر الدروبي) .

الشوكاني : (محمد بن علي، ت ١٢٥٠هـ) .

٢٩ - إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر، الهند ١٣٢٨هـ.

٣٠ - أدب الطلب ومنتهى الأرب . تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مركز الدراسات، صنعاء ١٩٨٠م .

٣١ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . القاهرة ١٣٤٨هـ.

٣٢ - قطر الولي على حديث (ولاية الله والطريق إليها)، تحقيق د. إبراهيم هلال، القاهرة ١٩٦٩م .

٣٣ - درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة، تحقيق ودراسة الدكتور حسين بن عبد الله العَمري . دار الفكر، دمشق ١٩٨٥م .

٣٤ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، القاهرة ١٣٤٨هـ.

٣٥ - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، القاهرة (ط١) ١٣٤٧هـ وبعدها عدة طبعات .

صبحي (الدكتور أحمد محمود)

٣٦ - الزّيدية، الإسكندرية ١٩٧٩م .

أبو طالب (محسن بن عبد الكريم، ت ١١١٨هـ)

٣٧ - تاريخ أبي طالب، نشره الأستاذ عبد الله الحبشي باسم (تاريخ اليمن الحديث) صنعاء ١٩٩٢م.

العمري (الدكتور حسين بن عبد الله)

٣٨ - الإمام الشوكاني رائد عصره (دراسة في فقهه وفكره) دار الفكر ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٣٩ - المؤرخون اليمنيون في العصر الحديث، دار الفكر، دمشق ١٩٨٨م.

٤٠ - مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار، دمشق ١٩٨٠م.

العيدروس (عبد القادر بن شيخ، ت ١٠٣٨ هـ)

٤١ - النور السافر في أعيان القرن العاشر، مصر

الغزي (نجم الدين)

٤٢ - الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، تحقيق د. جبرائيل جبور.

المحبي (محمد أمين، ت ١١١١هـ).

٤٣- خلاصة الأثر في أعيان القرن الثاني عشر القاهرة، ١٣٨٤هـ.

٤٤- الموسوعة اليمنية (إعداد وإشراف وتحقيق):

أحمد جابر عفيف، أحمد علي الوادعي، أحمد قائد بركات، د. حسين عبد الله العمري، مطهر علي الإرياني، د. يوسف محمد عبد الله، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

ابن الوزير (علي بن عبد الله، ت١٤٤٧هـ).

٤٥- طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، تحقيق حازم عبد الرحيم، مركز الدراسات، صنعاء ١٩٨٣م.

يحيى بن الحسين بن القاسم (ت بعد ١٤٠٠هـ).

٤٦- الضوء المنير على الجامع الصغير(خ)

٤٧- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور.

* * *

أهمية الإفادة
من المصادر القديمة (الكلاسيكية) العربية
في الدراسات عن مدينة صنعاء [1]

تبقى كتابات لسان اليمن وعلاّمة العرب الحسن بن أحمد الهمداني حول مسقط رأسه صنعاء [2] ونشأته الأولى بها أقدم وأهم المعلومات المعروفة لدينا عن المدينة العريقة، حتى القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد، وقد جاء بعده بقرن المحدث المؤرخ الرازي الصنعاني (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م) الذي أخرجنا كتابه محققاً عن (مدينة صنعاء) قبل أربع عشرة سنة، فكان في أخباره القديمة عالة على الهمداني، ومع ذلك فقد كان له إضافات ونقول ومساهمات أخرى مفيدة، بعضها لا نجده إلاّ عنده رغم استطراداته وسوء منهجه، إذ لم تكن كتابة التاريخ ميدانه، ولا مجال لمقارنته بذلك العلم الشامخ.

إنّ ما تحاوله هذه الورقة القصيرة هو مجرد الإشارة والتنبيه إلى مادتنا الأساسية والمتوفرة حتى الآن عن صنعاء قبيل الإسلام وحتى القرن الخامس للهجرة، لا تتوفر إلاّ في كتابات الهمداني وكتاب (تاريخ مدينة صنعاء) للرازي ومن بعده، هذه المادة التي لاتزال مبعثرة في حاجة إلى تقصٍ وتنقيب من ناحية، والاستدلال ببعضها لتكوين

---

(١) ورقة قدمت إلى الندوة التي ساهمت اليونسكو في المشاركة والإعداد لها عن مدينة صنعاء التاريخية في مطلع شهر إبريل ١٩٨٨م وذلك في سلسلة الحملة الدولية لصون المدينة والحفاظ عليها، وبعد أربعة اعوام من النداء الدولي للمدير العام لليونسكو الملحق بالكتاب ص: ٢٦٩، والذي كان للكاتب (بصفته وزيراً للتربية) ولصديقه الدكتور عبد الرحمن الحداد الذي كان سفيراً مندوباً لليمن في المؤسسة الدولية شرف العمل مع آخرين للإعداد لتلك الحملة وصياغة ذلك النداء وألقيت هذه الورقة يوم ٢ إبريل ١٩٨٨.

(٢) مولده بصنعاء في ١٩ صفر سنة ٢٨٠هـ/ لعله١١ ابريل عام ٩٨٣م (انظر ذكره لذلك في المقالة العاشرة من سرائر الحكمة، تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع، ص: ١٠٣).

تصورات ودلالات عند الباحثين والمهتمين بأي حقل يتعلق بتاريخ المدينة وحضارتها، وتطور معمارها أو حياتها السكنية والمدنية، وغير ذلك من ناحية أخرى. وذلك حتى يأتي اليوم الذي يتمكن فيه علماء الآثار والنقوش اليمنية القديمة من كشف النقاب عن معلومات منقوشة أقدم من تلك التي عرفت، ويرجع تاريخها إلى القرن المسيحي الأول[1] أو العثور على كتابات مخطوطة لما قبل عصر الهمداني وبعده تضيء لنا المزيد عن صنعاء التاريخ والحضارة.

* * *

نص هام للهمداني عن أسّ صنعاء :

لنقرأ من جديد هذا النص للهمداني الذي اطلع معظمنا عليه من قبل لنرى أي نسيج عجيب مُتَفَرِّدٌ مَزَج فيه بين علم الفلك (الذي كان ضليعاً فيه) والأساطير، رابطاً ذلك بالتاريخ والاستقراء والمشاهدة حتى سنة بضع وتسعين ومئتين من الهجرة :

«ذكر حساب اليمن. كابراً عن كابر أن كان ساعتئذ الثور، وفيه الزهرة والمريخ، وتوجد طباع هذا البرج في ثبات الأشياء وقلة تغيرها، ودوام هذا الأساس أنه أقام في تزايد مع الملوك قرب أربعة آلاف سنة، وبقي من بعض حيطانه الـجَرُوب[2] المقابلة

(١) راجع مادة«صنعاء» في دائرة المعارف الإسلامية : وانظر مقال د. يوسف محمد عبد الله في العدد الخاص لمجلة (الإكليل) عدد (٢ , ٣) لسنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م ص: ٢٨٤ وفي نفس العدد أيضاً ص: ٣١٧ «فقرات من نقوش صنعاء» لأحمد ناجي ساري.

(٢) في المطبوع الإكليل: ٨/ ٥ «الخروب» بالخاء، وقد ذكر المحقق نبيه أمين فارس في الحاشية أنها في بعض نسخه المعتمدة بالحاء، ولعل ما أثبتناه هو الصحيح، فالجروب هي الحجارة البازلتية السوداء الصلبة التي كانت -ومازالت- أساس بناء الدور حتى ارتفاع متر أو أكثر من وجه الأرض إلى اليوم.

لأبواب المسجد الجامع بصنعاء، ثم تزايدت صنعاء في الإسلام إلى بضع وتسعين سنة ومائتين من الهجرة، وخربت، ولم تلبث أن عادت، فهي اليوم تكاد أن تقارب ما كانت عليه أو هي تزيد، وعلماء صنعاء يروون أنها تعمر بعد خرابها وتملأ ما بين جبليها، وتصير سوقها في بطن واديها» [١].

ماذا نستفيد من هذا النص؟، فبغض النظر عن دقة أو صحة عمر أساس صنعاء المحدد بأربعة ألآف سنة فالحقيقة الهامة أن ذلك الأساس الذي كان سوراً لقلعة أوقصر- هو نواة المدينة- كان مقابل أبواب المسجد الجامع بصنعاء. ولا بد أن القصد بها الأبواب الشرقية، والهمداني قد شاهد ما بقي من بعض حيطانه الجُرُوب، ونشاهد اليوم ذلك الصف المرصوص من المنازل على الشارع الشرقي للجامع فيراها المتأمل مرتفعة وكأنها بنيت على دكة مرتفعة، أفلا يقودنا هذا إلى البحث والتنقيب لتحديد مركز وحدود المدينة (الأساس) ثم أين كان الامتداد والزيادة قبل الخراب والعودة إلى ما كانت عليه؟.

والأمر ذاته وفي نصوص أخرى قد تساعد في تحديد أماكن ومواقع كثيرة كقصر غُمدان الذي أطنب الهمداني في مدحه ووصفه [٢] على سبيل المثال، لقد ذكر العلاّمة الهمداني في أحد أهم كتبه وهو (صفة جزيرة العرب) في معرض حديثه عن «مدينة صنعاء.. أم اليمن وقطبها.. وأقدم مدن الأرض لأن سام بن نوح الذي أسَّها..» ذكر أنه جمع أخبارها في القديم في كتابه (الإكليل) وأضرب «عن ذكر قديمها في هذا الموضع

---

(١) الإكليل: ٨/ ٥.

(٢) انظر الإكليل: ٨/ ٣- ٢١ ومواضع أخرى.

صفحاً»[1] فهل كل ما أورده في (الإكليل) هو ذلك الذي ضمنه عنها في جزئه الثامن المنشور[2] أم أن هناك مادة أوسع في تلك الأجزاء المفقودة والتي لا نعرف عنها إلاَّ أنها متعلقة بالسيرة الحميرية وبالأمثال والحكم باللسان الحميري والأهم من ذلك « التنبيه على الأخبار الباطنية . . » والتي ربما تكون متعلقة بأحوال حمير في عهدها القديم، وصنعاء أحد مراكزها؟ ذلك ما لا نعلمه على وجه اليقين، ولكن قياساً على تلك الأخبار والأوصاف المبثوثة والمتفرقة فيما بين أيدينا من الأجزاء الأربعة المطبوعة من (الإكليل) عن(صنعاء) كذلك في (الصفة) وغيرها من كتاباته لا بد أن يكون هناك مادة أوسع لا زالت ضائعة.

إن الهمداني على سبيل المثال يذكر لنا غير مرة أثر الحروب والقتال على عمران صنعاء[3] بيد أنه في نص من نصوص الجزء العاشر للإكليل وفي معرض حديثه عن معاصره أحمد بن محمد بن الضحاك (سيد همدان) «الذي يمدحه الهمداني ويقيد أيامه، وهو منه خل وصاحب . . » أنه دخل «صعدة ثلاث مرات فأخربها، ودخل صنعاء كرتين فأحسن فيها . . »[3] إن في وسع الباحثين والمهتمين بتاريخ صنعاء القديمة وتطور حياتها العمرانية وغيرها رسم صورة أو صوراً قريبة من تلك التي كانت عليها المدينة في حقبة معينة، أو عصر من العصور من تلك المادة التي قد لا تكون مجموعة بل في الغالب متفرقة مشتتة، تماماً كما فعل حديثاً بعض الباحثين في أبحاثهم عن الثقافة والحضارة اليمنية القديمة فكتبوا عن«الهمداني والمثامنة» و«الهمداني والتبابعة» . . وآخرون ممن اهتموا بالحياة الأدبية والسياسية في عصره ومصدرهم الأساسي المتفرقات والشوارد في

---

(١) الهمداني: صفة الجزيرة تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع (ط. حمد الجاسر ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م) ص: ٨٠-٨١.

(٢) انظر الجزء الثامن من «الإكليل» تحقيق د، نبيه أمين فارس، ط: برنستين، ١٩٤٠م.

(٣) الإكليل: ١٠/ ٦٧.

كتبه [1] فعرفنا بتتبعهم الكثير من شعراء صنعاء الكبار، كعبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي وإبراهيم بن الجدوية، ومن كبار الكتاب العلماءالبلغاء، أمثال بشر بن أبي كبار البلوي (ت١٩٢هـ/ ٨٠٨م) الذي كان من أبلغ الناس، وكانت بلاغته تتهادى في البلاد» كما يصفه لسان اليمن [2] والذي اعتبره بعض دارسيه من شوامخ أعلام البيان وأكابر الكتاب الأوائل كعبد الحميد الكاتب، وابن المقفع والجاحظ وأضرابهم [3].

ويأتي معنا بعد العلاّمة الهمداني، أحمد بن عبد الله الرازي الصنعاني صاحب كتاب(تاريخ مدينة صنعاء) الذي لو لا جمعه لمصنفه، ومن ثم نشره حديثاً لما سمع بصاحبه ولا ذكر اسمه، وهو مثال للمهتمين في الإفادة منه بنفس التتبع والاستقصاء الذي يجيده الباحثون، والذي أشرنا إليه فيما تقدم عن مدى استفادتنا من كتب لسان اليمن، فما زال الكتاب رغم ظهوره في أكثر من طبعة واستفادة بعض القادرين على اقتناص فوائده، لا زال يشكل عسر هضم للمطلع عليه للوهلة الأولى، شأنه شأن كثير من كتب تراثنا، ونشير هنا إلى إفادة المستشرق الكبير (المرحوم) [4] البرفسور آر، بي سرجنت من الكتاب في تحريره لكتابه الهام الذي أصبح مرجعاً عن صنعاء Sana'a An Arab Islamic City وقد ساهم فيه عدد كبير من العلماء اليمنيين والمستشرقين الأوروبيين، وكذلك إشارات قليلة في بعض الكتابات المتأخرة- بعد صدور الكتاب- سواءً عن مدينة صنعاء أو تاريخ اليمن الإسلامي.

---

(١) راجع ذلك وغيره في كتاب(الهمداني، لسان اليمن، ودراسات في ذكراه الألفية) تحرير: د. يوسف محمد عبد الله (اصدار جامعة صنعاء، ط/ دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)

(٢) صفة الجزيرة: ٨٦-٨٨ وراجع الإكليل١/ ١٣٣و٢٤٥.

(٣) الشامي(أحمد بن محمد): تاريخ اليمن الفكري١/ ٢٥.

(٤) توفي بداره خارج مدينة سنت أندروس في أسكتلندا يوم الخميس ٢٩/ ٤/ ١٩٩٣م (راجع كلمتنا في رثائه من هذا الكتاب)

والذي يبدو على الأغلب في ظني أن منهج المؤلف الرازي وحشدة لمعلومات وأخبار كثيرة اختلط فيها التاريخ بالأسطورة، والحقيقة بالمبالغة، والحديث مع التفسير بالإسرائيليات، إلى غير ذلك قد جعل العزوف هو الغالب في اعتبار الكتاب مصدراً مفيداً، بل لقد اطلعت قبل سنوات على مقالة يشير كاتبها- البسيط- بأنه لم يتمكن من فهمه أو الاستفادة منه كما كان يرجو !.

وسوف أسوق ههنا بعض الأمثلة التي تغني ما نهدف إليه:

١- لايعرف اليوم حيّ أو (حارة) القطيع في صنعاء القديمة وقد ورد ذكره في كتاب (تاريخ مدينة صنعاء) في أكثر من خمسة مواضع مختلفة متباعدة (ص: ١١١، ١٨١، ٣١١، ٤١٣، ٤٣٠) وإن نحن ربطنا بينها نجد أن حيّ القطيع كان قلب المدينة وأرقى أحيائها، ومنازله «رفيعة البنيان عظيمة الشأن» وإن ثمن الدار في الشارع الرئيس منه بلغ خمسين ألف دينار، حتى إن أحد الولاة قد همّ أن يجعل على الدور خراجاً أو ضريبة سنوية- ربما للمحافظة على النظافة أو الحراسة- ولأن ذلك الحي كان حي الأرستقراطيين أو عِلْيَةِ القوم فقد كان به دور الأغنياء وكبار التجار ودار الوالي، كما كان فيه دور بعض الأبناء (ذوي اليسار والأصول الفارسية) ومنها دار الأخباري المؤرخ المشهور (وهب بن منبه الصنعاني الأبناوي) المولود والمتوفى بصنعاء سنة (٣٤-١١٤هـ) ودار القاضي هشام بن يوسف الصنعاني الأبناوي قاضي صنعاء، وأحد كبار المحدثين المشهورين ورواة الصحيح والمتوفى سنة ١٩٧هـ [١] ودور أخرى ومساجد كثيرة يمكن تقصيها، وأين يقع ذلك الحيّ الآن؟ إنه بشَيْء من التتبع نجده يقع في علو صنعاء في الجهة الشرقية الجنوبية على مقربة من مسجد موسى بن الملكين المعروف إلى اليوم [٢].

---

(١) انظر ترجمته ومصادرها في كتاب تاريخ مدينة صنعاء(الكشاف) ص: ٥٤٢.

(٢) انظر: الحجري (القاضي محمد بن أحمد) مساجد صنعاء: ٥١و١٢١ وانظر مادة (القطيع) في (كشاف المواضع الملحق بتاريخ صنعاء ص: ٥٧٠)

٢- دار ابن عَنْبَسَة، نزل الأغنياء في صنعاء:

وما دمنا في صدد الحديث عن الأحياء والدور، فالرازي يذكر لنا عدداً من تلك التي كانت مراكز لضرب السكة والحوك والنزل (الفندق) وغيرها، ومن ذلك (دار ابن عنبسة) التي كانت عامرة واسعة جميلة، لها حدائق وبساتين، وكانت نزل القادمين من تجار العراق«من أهل اليسار» وكانت تقع في شارع العراقيين الذي كان أيضاً في (سوق العراقيين) ولعله كان في حي القطيع[1] لقد كلف بناء تلك الدار خمسة وثلاثين ألف دينار. وكانت تدر بساتينها على صاحبها أموالاً كثيرة، وقد شَجَّع ذلك الدخل وجمال الدار أحد تجار البصرة، وهو الحسين بن محمد بن خلاد البصري ممن كان يتردد على صنعاء في تجارته في أواخر القرن الثالث على شرائها بمال كثير، ثم كان«يسافر بعد أن اشتراها إلى البصرة فيقيم سنة، ثم يروح إلى صنعاء في الثانية، وكان المتقبل يرفع قبالها إلى أهله بصنعاء كل يوم ثلاثة دنانير يعفرية»[2] ومن هذا الخبر وأمثاله نستفيد معرفة عدة أمور، منها ما هو متعلق بالإعمار وتكاليفه، ووجود نزل وفنادق راقية للمسافرين والنزلاء، ووجود حركة تجارية نشطة قبل نهاية القرن الثالث[3] مع العراق وبلاد الشام «فهناك أيضاً درب دمشق»[4] بالإضافة إلى اتخاذ بعض أولئك التجار من صنعاء دار إقامة أخرى لهم فيها أملاك وأهل، فالرازي ينقل الخبر في القرن الخامس عن معاصره الشيخ أبي الحسن بن مطر عن جدته زينب ابنة ذلك التاجر البصري[5].

---

(١) تاريخ صنعاء: ١١٢.

(٢) نفسه: ١١٣.

(٣) كانت صنعاء لها منذ العقد الأخير للقرن الثالث وبعده ميدان صراع وقتال بين قوى سياسية كل منها كان يحرص على السيطرة على المدينة. راجع تعليقنا في حواشي تاريخ صنعاء: ط٣- دار الفكر- دمشق١٩٨٧).

(٤) تاريخ صنعاء: ١١٢-١١٣.

(٥) انظر كشاف المواضع بتاريخ صنعاء (ص: ٥٦٢).

٣- لقد كانت صنعاء، شأنها شأن الكثير من المدن العربية والإسلامية من أواخر القرن الثالث للهجرة/ العاشر للميلاد - عصر الهمداني - وما تلاه، عرضةً للهجمات والخراب والدمار، تبعاً للصراع والاقتتال بين مختلف القوى القبلية والسياسية المحلية والخارجية التي كانت تتنازع السلطة، وتعمل على السيطرة على صنعاء، بصفتها حاضرة اليمن وقلبه، غير أن الفرق بين صنعاء وكثير من تلك المدن خاصة المختطة بعد الفتوحات العربية الكبرى في المغرب والمشرق العربي، أو المؤسسة كعاصمة جديدة انتقل إليها مركز الخلافة والحكم كمدينة السلام (بغداد)، أو قاهرة المعز وغيرهما . . إن الفرق بين صنعاء وتينك يكمن فيما نحن بصدده من حديث في أمرين- غير خصوصيتها وتفردها بفنها المعماري التليد، نوجزهما فيما يلي: -

أولاً: إننا ربما نتفق جميعاً على أن صنعاء- فيما يزعم الأخباريون الأوائل على الأقل - أقدم مدينة عربية، ربما لا ينافسها في القدم إلاّ دمشق؛ أو لنكن أكثر تواضعاً فنقول: إنها من أقدم المدن المعروفة لنا في التاريخ.

ثانياً: إن تلك المدن - بما فيها دمشق الإسلامية ومكة المكرمة ومدينة الرسول الكريم- قد حظيت ومن وقت مبكر (بعضها منذ يوم التأسيس) بتسجيل وكتابة المؤرخين العرب وأصحاب الخطط وكتب البلدان، فوصل إلينا الكثير من تفاصيل خططها وتقسيماتها وأحيائها وقصورها ومساجدها ومواضع الجند والقبائل المختلفة فيها، إلى غير ذلك من التفاصيل، وزاد الأمر تفصيلاً عن كثير من المدن ومختلف أوجه الحياة فيها حضارياً وثقافياً وأدبياً ذلك الازدهار الثقافي والعلمي والأدبي للحضارة العربية الإسلامية الذي بلغ أوجه في القرن الرابع والخامس بعد أن سقطت هيبة الخليفة ومركز الخلافة في بغداد، وتسابق أمراء المدن والإمارات من الجزيرة - واليمن منها - إلى العراق ومصر والشام وفارس شرقاً إلى الشمال الإفريقي العربي والأندلس غرباً في إحاطة أنفسهم بالشعراء والأدباء، والتنافس في رعاية العلماء والمؤرخين محليين أو مستقطبين

من مختلف أرجاء الامبراطورية، وكان من نتاج ذلك وضع كتب المدن، كتاريخ مكة ومناقب البصرة وتاريخ بغداد وتاريخ دمشق لابن عساكر والإحاطة في تاريخ غرناطة وغيرها كثير كما هو معلوم، بالإضافة إلى قصائد الشعراء ودواوينهم التي لا تخلو من وصف القصور والمتنزهات والأماكن وحياة الناس، وغير مدح الأمراء والوزراء، كما ارتقى مستوى الأدب وتعددت أغراض الكتابة وتخصصت؛ فتناول الكتاب من أدباء وجغرافيين وعلماء مواضيع وفنوناً متعددة منها ماله صلة مباشرة ببغية الباحث اليوم فيما يشاء عن أي من تلك المدن وتطورها في أي عصر من العصور، حتى العصر الحديث، وربما يؤلف كتاباً ضخماً كما فعل المرحوم العلامة محمد كرد علي (ت١٩٥٣م) في سفره (خطط الشام) قبل أكثر من نصف قرن.

بيد أن كل هذا لا يعني مرة أخرى أن المتاح للباحثين والمهتمين بأمر صنعاء، سواء فيما ذكرنا من كتابات الهمداني والرازي ومن كتب بعدهما قد اسْتُوفِيَ جله أو كله من البحث والدراسة والتحليل، ولا أدل على ذلك أننا رغم الجهود المشكورة التي قام بها بعض المختصين والمهتمين وخبراء اليونسكو أو علماء وباحثين أجانب ويمنيين وعرب في السنوات القليلة الماضية لا زالت الأسئلة كثيرة، وقد تكون الردود عليها أو على بعضها في ذلك المتاح وفي خلفيّته الواسعة من معارف ذلك التراث العربي الإسلامي المشار إليه الذي لا يخلو من شوارد هامة عن صنعاء المدينة العربية والإسلامية.

متى هدم قصر غُمدان؟:

ألم تتناقل أوائل كتب التراث من (سيرة ابن هشام) و (أغاني أبي الفرج) و(تاريخ الطبري) [1] وغيرها أخبار صنعاء قبل الإسلام، ومنها ذلك الخبر الطويل عن وفود

(١) ابن هشام: ١/ ٦٧ط. الحلبي، الأغاني: ١٦/ ٦٤ط. دار الكتب، الطبري: ٣/ ٩٥٦ط. أوروبة.

العرب وأشرافها وشعرائها لتهنئة الملك القَيْلِ سيف بن ذي يزن في انتصاره على الأحباش وطردهم واستقلاله بملك اليمن، فجاءته إلى صنعاء وزارته في (قصر غمدان) وكان على رأس وفد قريش عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس، وأسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جدعان، وفي (قصر غمدان) حيث مجلس سيف وضيوفه أنشدت قصائد كبار شعراء العرب في المديح والتهنئة، ومنها لا مية (أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت) أو والده (أبي الصلت)[1] التي مطلعها:

ليطلب الثأر أمثال ذي يزن　　لجج في البحر للأعداء أحوالا

ومنها مخاطباً سيفاً وذاكرا (غُمدان):

اشْرَب هنيئا عليك التاج مرتفعاً　　في رأس غُمدان داراً منك محلالا

وهي طويلة مشهورة، وتذكر المصادر أن ذلك كان عقب مولد النبي الكريم ﷺ، وما دُمْنا قد جئنا على ذكر المصادر العربية بوصفها رديفاً ومكملاً لمصادرنا اليمنية، ليس استطراداً وتأثراً بصاحب تاريخ صنعاء!، فمن المعلوم اختلاف تلك المصادر العربية في تاريخ هدم أو اندثار (قصر غُمدان) وقد شاع منها ما نقله متواتراً ياقوت في معجمه[2] أنه «هدم في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه» رابطاً الخبر بأسطورة، فقد قيل لعثمان بعد هدمه: «إن كهان اليمن يزعمون أن الذي يهدمه يقتل، فأمر بإعادة بنائه، فقيل له: لو أنفقت عليه خرج الأرض ما أعدته كما كان، فتركه» وأنهى الخبر بنبوءة غريبة، فقد قيل: إنه «وجد على خشبة لـمّا خرب وهدم مكتوب برصاص مصبوب: اسْلَمْ غمدان هادمك مقتول، فهدمه عثمان، رضي الله عنه، فقتل».

(١) كما في سيرة ابن هشام ومعجم البلدان لياقوت مادة: (غمدان).

(٢) معجم البلدان: مادة(غمدان).

وبافتراض صحة هدم الخليفة عثمان لغمدان، مع صعوبة قبول ما قيل من مسوِّغات، فإن ذلك يكون قبل عام٣٥هـ / ٦٥٦م، ولعله من الغريب والمفيد معاً أن نجد بعد قرابة نصف قرن من مقتل عثمان في ديوان الشاعر المشهور عمر بن أبي ربيعة ما يدل على وجود غمدان بل وقصر شعوب الذي لا يُعلم عنه إلا القليل؛ فقد كان لابن أبي ربيعة أراضٍ وأملاك ورثها عن أبيه عبد الله بن أبي ربيعة الذي كان والياً على الجند أيام الخليفتين عمر وعثمان، وقد جاء ابن أبي ربيعة في أواخر حياته لتفقدها فأصيب وهو في اليمن بحمى الملاريا، فنظم قصيدة يصف فيها مرضه ويشكو سوء حاله وحال رفاقه، ويعتذر متشوقاً إلى صاحبة له أسماها (أسماء)[1] يقول:

أرقتُ ولمْ يُمْسِ الذي أشتهي قُرْبا ... وحُمِّلتُ من أسماء إذ نزحت نَصْبا

لعمرك ما جاوزت غُمدان طائعاً ... وقصر شُعوب أن أكون بها صَبّا

ولا نستطيع بالطبع الجزم بأن ما ذكره شاعر الحب والغزل الذي يُظَنُّ أنه مات في اليَمَن هو وصف للقصرين حين كانا مايزالان ماثلين، أم ذلك من باب المجاز لمَعْلَمَيْن مشهورين كان قد عَفّى عليهما الزمان، وهذا لا شك مهمة الباحثين المختصين، وما القصد من إيراد هذين الشاهدين إلا التأكيد أن مجال البحث ما زال واسعاً، ومادة التراث العربي والإسلامي مصدر لا غنى عنه، حتى وإن كان ذلك في مجال المقارنة والاستئناس فيما تتشابه فيه مدن العروبة ودار الإسلام.

* * *

* *

*

(١) ديوانه(طبعة دار صادر- بيروت): ٤٨.

[خلعُ عليٍّ بنِ المهْدِي عَبْدِ الله وقيامُ الناصرِ عَبْدِ اللهِ بنِ حسين ثم مَقْتَلُه لمعاصرٍ منْ آلِ المهْدي[1]

نص غير منشور من حوادث سنتي: ١٢٥٢هـ و١٢٥٦هـ/ ١٨٣٧م و ١٨٤٠م]

الحمد لله رب العالمين وبعد:

لما كان ثالث شهر القعدة ليلة الأربعاء من شهور سنة اثنتين وخمسين ومئتين وألف اجتمعت توابع صنعاء وهجموا على الإمام المنصور بالله علي بن المهدي عبد الله بن المتوكل على الله أحمد بن المنصور بالله[2]، إلى البستان المسمى (بستان المتوكل) قبيل المدفع[3]، فقبضوا عليه، وانتهبت بيوت الأموال من الذخائر النفيسة وجميع ما بها من محاسن الخلافة من السلاح والعدد والجواهر وغير ذلك. وأقاموا الإمام الناصر عبد الله ابن الحسن بن أحمد بن المهدي عباس، وحبس المنصور علي ابن عبد الله وعمه سيف الخلافة محمد بن المتوكل، واستقر الإمام الناصر في دست الخلافة وقبض ما بأيديهم جميع، وكانت هذه القصة من أغرب القضايا وأشنع الرزايا، ووقع في خلال ذلك أموراً يطول شرحها وينكى جرحها[4].

ثم بقي في الخلافة ثلاث سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام، ثم وقعت المفاوتة بينه وبين قبائل همدان، فجمع شوره[5] هو وقبائل أرحب وبني الحارث وعيال سريح وخرج

(١) هي أوراق ثلاث ضمن مجموع صغير مخطوط (سفينة) - ذهبت أولى أوراقه وفيها عنوانه - وقد ضم شعراً وبعض النثر لشعراء وأدباء بعضهم معاصر للناسخ وتربطه بهم صلة قرابة ومن ذلك ومن أسلوبه كان التخمين أنه من آل المهدي عباس من بيت القاسم بن محمد الحاكم.

(٢) (ت ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١م).

(٣) كذا الأصل.

(٤) كذا الأصل على اللحن أي: «جميع ما بأيديهم» وسيتكرر مثل هذا ولن نشير إليه.

(٥) أي رأيه.

بهم لمشاجرة همدان، فأخذ بعض قراها وأحرق بعض / بيوتها وأخرب دورها[1] وأنكى فيهم نكاية[2] عظيمة، فوقع الصلح بينهم ورجع مدينة صنعاء وأقام بها مدة يسيرة، فعنَّ له الخروج إلى وادي ضهر[3] وذلك يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول سنة ٥٦ [١٢هـ] وكان وصوله إلى دار الحجر وبقي فيها من الصبح إلى بعد العصر، وتلقوه همدان بالعقاير[4] حسبما كانوا عليه من تلقي الخليفة[5]. ثم نهض راجعا إلى صنعاء بعد العصر وقد أعدوا له رصداً في الطريق التي يمر منها فلم يشعر إلا بالرماية منهم، فوقعت فيه ثلاث رصاص، ففر راجعا إلى دار الحجر وقد أصابته تلك الرصاص بعض إصابة، فشنوا الغارات عليه ودخلوا إلى تلك الدار ولم يكن عنده إلا جماعة يسيرة، فقتل وقتل معه القاضي إسماعيل جغمان[6] وزيره، والأمير عنبر أمير القصر، وقتل الأمير [محمد] طاشخان أمير بئر العزب، وقتل من أصحابه أربعة أنفار وانتهبت الخيل وماعليها من العدد وانتهبت مافي الدار جميع من الآلآت ومن الفراش والنحاس وغير ذلك، وحمل رأسه ورأس القاضي إسماعيل جغمان ورأس الأمير عنبر إلى خلقة[7] إلى طاغيتهم الشيخ علي مظفر خليل.

/ وكانت هذه القضية من أقبح القضايا التي لم يسمع بمثلها في الجهة اليمانية. وفي

---

(١) الأصل «دوراها».

(٢) بمعنى قتل فيهم وجرح وأثخن وكلفهم الكثير.

(٣) تكتب هكذا وفي الأصل «ظهر» بالظاء وهو الشائع.

(٤) العقاير: جمع عقيرة وهي الذبائح.

(٥) أي بحسب عاداتهم في استقبال الخليفة (الإمام) بتقديم الذبائح.

(٦) كان فقيهاً، عالماً، أديباً ناهضاً إلا أنه كالناصر كان مغالياً في تشيعه (انظر: زبارة: نيل الوطر ١/ ٢٧٠-٢٧٣ وراجع مئة عام: ٢٨٠).

(٧) خلقة: بفتح الخاء، من قرى همدان على مقربة من شبام كوكبان نحو ٣٠ كم شمال غرب صنعاء.

ليلة ذلك اليوم من قتل الإمام الناصر جنحوا أهل صنعاء إلى إخراج من في القصر وأقاموا محمد بن المتوكل أحمد ولقبوه بالمتوكل[1].

هذا والقبائل متجمعة لأخذ الثأر من همدان، والله تعالى من ورائهم محيط.

* * *

[من حوادث سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م
الانتقام لمقتل الناصر وتأديب همدان]

وفي يوم السبت ليلة ١٢ من جمادى الأول سنة ١٢٥٦هـ اجتمعت القبائل، جميع أرحب وعيال سريح وبني الحارث وبعض من معهم ومن التحق بهم من قبائل اليمن وبداوة شوابة وهران، وأخذت كل قبيلة منهم جهة من همدان، فقبائل أرحب ومن صحبهم من بني الحارث وغيرهم، فقدموا إلى الرقة، فالتقتهم قبائل همدان فكانت الدائرة عليهم، وقتل منهم نحو العشرين وقطعت رؤوسهم وكانوا رؤوس همدان منهم عقال بني الجايفي وبني عمار وغيرهم من العقال واستفاضوا على الكبار.

وانتهضوا يوم الاثنين إلى المنقب وهو حصن شهير منيع، وقد كانوا جمعوا إليه مضانهم من الحب والفراش والسلاح وغير ذلك، ففتحوه قهراً وأخذوا أهله قسراً فقتلوهم عن آخرهم فلم يتركوا كبيراً ولم يرحموا صغيراً. وبعد ذهاب نفوسهم حُزَّتْ جميع رؤوسهم وأرسلوا بها إلى دولة صنعاء. والتي حملت إلى صنعاء مائة وعشرة من الرؤوس، وأما قدر المقاتيل فهي تنيف على المئتين أو الثلاث. وكان بقاؤهم في المنقب

(١) هو أخو المهدي عبد الله (ت ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م)، وقد غير لقبه بعد ثلاثة أشهر إلى (الهادي) وكان كفؤاً قضى على عدة فتن وتوفي في ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٩٥هـ/ ٨ يناير ١٨٤٤م (انظر: مئة عام: ٢٨٧-٣٠٦).

خمسة أيام بعدما أخذوا مافيه جميع وأخربوا ماحوله من القرى وأحرقوا قرية حاز وأخربوها، وبعض قرى همدان كفلها[1] سيدي المولى عماد الإسلام يحيى بن محمد حفظهم الله .

أما عيال سريح فكان مطرحهم محلا يقال له سمين، فانتهضوا وأخذوا من بلاد همدان محلات منها حصن الكبوس والحجر والغيل وغير ذلك، واستعاضوا على جميع مافيها .

فانتهضوا بعد ذلك إلى مطرح أرحب إلى المنقب، وانتهضوا الجميع يوم الجمعة لعله ١٨ شهر جمادى أول[2] لأخذ ضلاع والوادي وغيره، والله أعلم مايؤول إليه الأمر .

ثم تحقق الخبر برجوع بني الحارث ومن صحبهم من نهم وعيال سريح ومن صحبهم من القبائل الأخرى :

لله در عصابة من أرحب	وبني سريح ومن لهمدان نهض
بردت قلوب العالمين جميعها	من فتكة نزلت بهمدان الرفض
مئتان من هاماتهم قد قطعت	عوض الإمام وماقضت لهم غرض
ولرب واقعة يذل لبطشها	من كان ذا بأس غليظ القلب فض[3]

* * *

(١) أي ضمن ولاءها، ولعل المقصود هو العلامة يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين (ت١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م)، من بيت الإمام القاسم بن محمد (انظر ترجمته في نيل الوطر : ٢/٤٠٢).

(٢) يساوي ١١ يوليو ١٨٤٠م .

(٣) لعل هذه الأبيات السقيمة من نظم الكاتب أو أحد معاصريه بعدها قصيدة من (٣٢) بيتاً لحفيد العلامة الكبير شيخ الإمام الشوكاني، عبد القادر بن أحمد الكوكباني (انظر مصورة المخطوط بعد هذا) .

مراسلات الإمام يحيى حميد الدين
لقبائل مشرق اليمن وجنوبه
﴿ وثيقة نادرة لم تنشر ﴾[1]

❑ - **مدخل :**

معلوم ذلك الصراع والاقتتال الذي استمر بين القوات البريطانية المحتلة لعدن والإمام يحيى بن محمد حميد الدين (١٩٠٤م-١٩٤٨م) وارث ولاية اليمن عن العثمانيين الأتراك بهزيمتهم في الحرب العالمية الأولى وانسحابهم من البلاد استناداً إلى اتفاقية (مندراوس) التي فرضت بريطانيا بموجبها على الحكومة التركية الجلاء عن الجزيرة العربية وبقية الولايات العربية .

لقد بلغت الحرب الذروة حين قام الطيران الملكي البريطاني بقصف المدن اليمنية عام ١٩٢٨م، وهو العام الذي وقع فيه الإمام يحيى معاهدة صداقة وتجارة مع الاتحاد السوفيتي بعد عامين من توقيع أول معاهدة مع دولة عظمى هي إيطاليا العدو اللدود لبريطانيا في شرق أفريقيا والبحر الأحمر (سبتمر ١٩٢٦م) .

وحين اشتد الخطر بتطور أحداث عسير بعد سنوات قليلة من إعلان السلطان عبد العزيز آل سعود (الملك فيما بعد) الحماية عليها بموجب اتفاقية مع الإدريسي (اتفاقية مكة ١٩٢٦م)، بات الإمام يحيى ومملكته المتوكلية بين فكي كماشة : السعوديين من الشمال والبريطانيين من الجنوب . وهكذا وجد الإمام يحيى مخرجاً بتحييد الجبهة الجنوبية وذلك

---

(١) الموضوع (الوثيقة) تحت الطبع في العدد الخاص رقم (٣) من مجلة(الدراسات العربية الجديدة) The New Arabin Studeis المهدى للمرحوم الأستاذ المستشرق الكبير سرجنت R.B. Serjean ويصدر في خريف ١٩٩٥م عن جامعة اكستر University of Exter .

بالتوقيع على (معاهدة الصداقة والتعاون المتبادل) مع بريطانيا، وهي المعاهدة التي تمت بعد محادثات طويلة قام بها في صنعاء حاكم عدن (المعتمد) البريطاني المقدم برنارد رايلي وعرفت بمعاهدة صنعاء (٢٦ شوال ١٣٥٢هـ - ١١ فبراير ١٩٣٤م). وقد اعترفت المعاهدة بالأمر الواقع والاعتراف بالإمام يحيى ملكاً على اليمن، مؤجِّلةً أيَّ بتٍّ في «مسألة الحدود الجنوبية إلى أن تتم مفاوضات تجري بينهما قبل انتهاء مدة هذه المعاهدة . . «أي بعد أربعين عاماً - وذلك» بصورة ودية وباتفاق كامل، من دون إحداث أي منازعة أو مخالفة» [المادة ٣]، وكانت المعاهدة بذلك تسكيناً مؤقتاً لحوادث الحدود التي سرعان ما توالت في الصُّبَيْحَة وشَبْوة وبَيْحان والضَّالع وغيرها بعد أقل من عام، خاصة وأن المعاهدة «لم تتطرق عن قصد إلى التخلي عن المطالب الخاصة بالأراضي لأي من الطرفين . . »[١].

وتظهر المذكرات والتقارير الرسمية والسرية البريطانية[٢] خلال الفترة وبعدها تنامي القلق البريطاني من نشاط القوات الرسمية والقبائل اليمنية ضد وجودها في المنطقة بتشجيع من الإمام يحيى ومباركته «لأنه لم يتخلَّ عن إيمانه واعتقاده بشرعية وتاريخية حكم العاصمة صنعاء لكل الأراضي اليمنية بما فيها (محمية عدن). . رغم توقيعه على معاهدة صنعاء . . » وتعاونه من أجل ذلك، مما أصبح هاجساً بريطانياً عُبِّرَ عنه (بالخطر الإيطالي)[٣].

---

(١) أريك ماكرو: اليمن والغرب ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢) لكثرة عدد هذا النوع من الوثائق انظر على سبيل المثال (فهرست أرقامها ومواضيعها) في السنوات ١٩٣٤م-١٩٣٨م في الإرشيف البريطاني:

F.O. Index: 1934-1938: 804, 873, 664-1937: 17, 656. 1938 15-16, 581-582. See also index to: "Green or Scrpt papers". 1933-1939: 161, 231, 133, 277. See also R.J. Garin: Aden under British rule; London - 1975, pp. 294-351.

(٣) راجع الحاشية السابقة وانظر: ماكرو: اليمن والغرب: الفصل الذي يحمل هذا العنوان نفسه (١٣٠-١٣٨).

❑ - ملاحظات على نص الوثيقة وأسلوبها :

وفي الوثيقة التاريخية التي ننشرها اليوم محققة، وغيرها كثير[1] ، مـا يؤيد المخاوف البريطانية تلك، ويؤكد موقف الإمام يحيى من اعتباره - عن حق - وحدة اليمن أرضاً وشعباً، بغض النظر عن المصطلح السياسي أو العبارة المستخدمة بلغة زمنه، كما يلاحظ ذلك من استخدام (المسلمين) كناية عن اليمنيين (والانتماء والاتباع لراية الحق) أي حكم الإمام. . والوثيقة بعد ذلك عبارة عن رسالة من الإمام يحيى كتبها بخطه الجميل الكاتب الأول للإمام القاضي عبد الكريم بن أحمد مطهر (ت ١٣٦٣هـ-١٩٤٤م) في ورقة واحدة حوت ٢٥ سطراً مؤرخةً ٢ رمضان ١٣٥٥هـ الموافق ٢ نوفمبر ١٩٣٦م، موجهةً إلى عدد من مشائخ وعقال وأعيان قبائل (مشرق اليمن) الممتد من الجوف ومأرب شمالاً إلى شبوة وحضرموت شرقاً وما جاورها فيما عرف بالمحميات الجنوبية، يدعوهم فيها إلى السلام والأمن فيما بينهم، وإلى طاعته بصفته الحاكم الشرعي لليمن كله، وإذ يؤكد عليهم ضرورة المحافظة على الأمن وعدم الاقتتال وسفك الدماء فيما بينهم، يحثهم على تجديد الأمان بينهم وبين قبيلة دَهَم، وبأنه «قد أناط بعامل الجوف أمر ضبط كل ذلك وأخذ المواثيق (المراقيم) بتنفيذها. والأهم من ذلك أن الإمام قد حرص على إرسال كتابه بهذه التوجيهات والأوامر بصحبة ثلاثة رسل من كبار مشائخ قبيلة عَبِيدة المعروفين إلى اليوم وهم: (ابن مُعَيلي، وابن جَلال، والعرادة) ليوضحوا لهم (مايطلبه ويحبه لكافة المسلمين) وهو الأمر الذي ربما لم يرغب كتابته مخافة وقوع الرسالة في يد البريطانيين، وقد ختمها بعبارة ترغيب في أنه لن يقصر في حقهم، راجياً أن يكونوا - كذلك - بحسب الأمل فيهم.

---

(١) كانت الوثيقة الأصل مع وثائق أخرى بحوزة المرحوم البروفيسور سيرجنت، وبعد وفاته (مايو ١٩٩٣م) تلطفت السيدة أرملته بتقديمها إليَّ لتحقيقها ونشرها في هذا المجلد التذكاري.

❑ - نص الرسالة (الوثيقة) :

« بسم الله الرحمن الرحيم »[١]

المحبون الكرام: الحكم بن مبارك بن محمد بن عجاج، وحمد بن ناصر بن قطيان، وسالم بن حمد بن حسن، وعلي بن علي بن زيد، والحكم علي بن عامر كبير آل عمر، وعبد الله بن ناصر الحبيلي المشيعي، وسالم بن عُفَيشَة البُريكي **صاحب شبوة**[٢]، وأحمد الأخرش الشحبلي **صاحب رخية**[٣]، ويسلم بن جربوع **الصيعري**[٤]، وعبد الله ابن ملهي، وسالم جعفيس، وسالم بن محمد المرقع، وعلي بن الترجيم، وحمودة بن غضبان، وكافة المشايخ والعقال والأعيان من قبائل المشرق[٥] المتَشَرّفة بشرف الإسلام، وبالانتماء والاتباع لراية الحق والإيمان، أصلح الله شأنهم وبارك لهم في حالهم ومالهم، والسلام ورحمة الله وبركاته.

صدورها[٦] عن أحوال صالحة، وأخبار سارة بعناية الله سبحانه ومَنِّه، والذي

---

(١) بعد البسملة مُهر الكتاب بختم الإمام يحيى المعروف على كل مراسلاته وأوامره (انظر صورة الأصل للوثيقة الملحقة بالموضوع).

(٢) شبوة: هي العاصمة التاريخية القديمة لحضرموت، وكانت مركزاً لعامل الإمام حتى استولى عليها الإنجليز في قتالهم معه أولاً عام ١٩٢٨م وتم استعادتها بعد عشر سنوات (خريف ١٩٣٨م) حين دخلتها قوات الإمام بقيادة القردعي الذي كان عاملاً على لواء حريب، لكن قوة بريطانية بقيادة الكابتن هاملتون أجبرت القردعي على التراجع، وهي اليوم اسم لمحافظة (شبوة) التي مركزها مدينة عتق (راجع ماكرو: اليمن والغرب ١٢٨).

(٣) رخية: أحد وديان حضرموت وفيه قرى عامرة كثيرة (انظر الحجري ١/ ٢٧٣).

(٤) الصيعري: نسبة إلى قبيلة الصيعر التي تشكل مع قبيلة الكرب أكبر قبائل شبوة (انظر الحجري ٢/ ٤٤٤).

(٥) المقصود بالمشرق هنا ذلك الصقع الواسع من شرق اليمن الذي تقع فيه مناطق القبائل القاطنة والمتنقلة من الجوف ومأرب إلى حضرموت، وما عاقب ذلك شمال شرق فلوات من الربع الخالي.

(٦) أي الرسالة.

أوجب تحرير هذا وتبليغه إلى الأسماع ما نحثكم به على المحافظة **لعموم البلاد**، على طاعة الله سبحانه **وطاعتنا**، وضرب الإصلاح، والأمانات فيما بينكم، ومنع كل عاقل أصحابه عن التعرض لأسباب الفتن، وسفك الدماء، وهلاك الأنفس والأموال، وأن يكون منكم السعي لإصلاح كل حادث بما يرضي الله تعالى ورسوله، وتجديد الأمان بينكم وبين دَهَم[1]، وقد أمرنا عامل[2] الجوف بضبط أمور دهم وضبط الأمان بينكم وبينهم، ونأمركم بحفظ بلادكم وحدودكم عنما يكون سبباً لإضراركم أنتم وأهلكم وبلادكم، ولأجل كلما ذكرناه أرسلنا إليكم **خدامتنا** مشائخ عبيدة: ابن مُعَيلي وابن جُلال والعرَادة، وسيوضحون لكم هذا.

وقد أرسلنا بهذا إليكم خدامتنا مشايخ عبيدة: ابن مُعَيلي وابن جَلال والعرَادة، ولهم وقوف على بعض الأحوال، وسيوضحون لكم مانطلبه ونحبه لكافة المسلمين[3]، وأنتم من أهل الكمال ومن أحسن الرجال، فليكن تعجيل إكمال قواعد الأمن والأمان فيما بينكم، وفيما بينكم وبين دَهَم، وسنكتب لعامل الجوف بكل لازم من تأكيد المراقيم، وضبط كل من أحدث لكلٍّ لازم، ولا نقصر إن شاء الله، فكونوا حسب الأمل والسلام.

بتاريخه ٢ شهر رمضان سنة ١٣٥٥هـ». [٢ نوفمبر ١٩٣٦م].

* * *

---

(١) دَهَم: هي (دُهمة) في المصادر، ونسبها: دهمة بن دهم بن شاكر من بكيل ومنازلها من الجوف اليوم كما هي في الرسالة - متاخمة لتلك القبائل المذكورة، ولاتعرف الآن إلا بدهم ولها بطون وأفخاذ معروفة (انظر: صفة الجزيرة للهمداني (ط. الأكوع)، مجموع بلدان اليمن وقبائلها (الحجري ١/ ١٢٦-١٢٨، ١٩٥).

(٢) عين الإمام السيد عبد الكريم بن إسماعيل الشمسي عاملاً على الجوفين في رجب ١٣٥٥هـ - سبتمبر ١٩٣٦م، أي قبل الرسالة بشهرين (جريدة الإيمان عدد رجب ١٣٥٥هـ).

(٣) أي اليمنيين في هذا السياق.

بسم الله الرحمن الرحيم

المحبون الكرام الحكم [illegible] محمد بن ناصر قطيان وسالم حسين [illegible] الشليعي
وعلي علي بن زيد والحكم علي عامر كبير آل حمر وعبدالله بن ناصر الجبلي
وسالم بن عفيشة الدربكي صاحب شبوه ولعد الاخرش الشملي صاحب [illegible]
دينلم بن جربوع الصيعري وعبدالله بن ملكي وسالم جعفيس وكلهم
الرفع وعلي الثرجيم وحموده غضبان وكافة المشائخ
والعقال والاعيان من قبايل المشرق المتشرفة بشرف الاسلام
وبالإيمان والاتباع لراية الحق والإمام اصلح الله شانهم وبارك لهم في
حالهم ومآلهم والسلام ورحمة الله وبركاته صدورها عن احوال صالحه
واخبار سارة بعناية الله سبحانه ومنته والذي اوجب تحريرها
وتبليغه الى الأسماع ما نحثكم به على المحافظة بعموم البلاد
على طاعة الله سبحانه وطاعتنا وضبط الاصلاح والامانات فيما بينكم
ومنع كل عاقل احد به عن التعرض لاسباب الفتن وسفك الدماء
وهلاك الانفس والاموال وان يكون منكم السعي لاصلاح كل
حادث بما يرضي الله تعالى ورسوله وتجديد الامان بينكم وبين
[illegible] وقد امرنا عامل الجوف بضبط امور [illegible] وضبط الامان
بينكم وبينهم ونامركم بحفظ بلادكم وحدودكم عما يكون
سببًا لاضراركم انتم واهلكم وبلادكم ولاجل كل ما ذكرناه
ارسلنا اليكم هذا امتنا مشائخ عبيدة ابن [illegible]
وابن جلال والعراده سيوضحون لكم هذا وقد ارسلنا
هذا اليكم خدامنا مشائخ عبيده ابن معيلي [illegible]
والعراده لهم وقوف على بعض الاحوال وسيوضحون لكم [illegible]
ومحبة لكافة المسلمين وانتم من اهل الكمال [illegible]
فليكن تحصيل الكمال قواعد الامن والامان فيما بينكم وفيما
بينكم وبين [illegible] وسنكتب لعامل الجوف بكل لازم من [illegible]

صورة الوثيقة من الإمام يحيى حميد الدين لقبائل مشرق اليمن وجنوبه

الفَصلُ الثّالث

في

الثّقافةِ والتّعليم

من أجل ثقافة تهتم بالعلم والتكنولوجيا (*)

إن طبيعة الحديث في مثل هذا الموضوع تبدو للوهلة الأولى سهلة، وربما تكون قريبة إلى التنظير وسرد البدهيات منها إلى استرجاع حقائق التاريخ وأسس التقدم في ثقافتنا بمنظورها الوطني والقومي في التراث، ثم في الواقع المعاصر والمعاش، مقارنة بالمعارف والعلوم الغربية السائدة في عالم اليوم، بكل ماتمثله من ثورة في العلوم والتكنولوجيا. لا أحد ينكر أننا في الوطن العربي عموماً، وفي اليمن بوجه خاص، حيث ترتفع نسبة الأميين لدينا إلى نحو ٨٠٪، وما زلنا نجري لاهثين للإلمام بأبجديات تلك العلوم، دون تمثلها، أو حتى تقليدها، للانتقال إلى مرحلة الإبداع والابتكار، وهو مالا يريده الغرب لنا، وحالة الهجمة الشرسة على العراق الشقيق خير مثال، وهو أيضاً مالم نأخذ بأسبابه بعد، بدليل أن عنوان هذه الورقة الذي حدده القائمون على الملتقى هذا هو «من أجل ثقافة وطنية تهتم بالعلم والتكنولوجيا».

إنني لا أحب - والأمر هكذا- أن أرجع بكم، وأنتم نخبة المثقفين، في الحديث إلى أمور تعلمونها، بل وبعضكم أكثر علماً مني بها، كالحديث عن عظمة تراث أمتنا العربية والإسلامية في أوج ازدهار عصورها، والتي كانت جسراً متماسكاً ومبدعاً بين حضارات الإغريق والرومان، وعصر النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر للميلاد، والذي في هذا التراث تكمن هويتنا الثقافية، ولا الحديث عن تلك المواضيع الجادة، التي عالج فيها كثير من المفكرين والمؤرخين المعاصرين، أسباب تخلفنا وتأخرنا عن ركب

(*)ورقة مقدمة إلى "الملتقى الفكري الأول" الذي نظمته وزارة الثقافة بصنعاء، في جلسة صباح ٢٠/ ٢/ ١٩٩١، التي رأسها وأدار نقاشها الأستاذ فريد بركات، وعقب على الورقة الأستاذ هشام علي بن علي وكيل الوزارة.

الحضارة العالمي، لكنني أستميحكم العذر بالتذكير إلى أن ما قيل بصدد الجمود الفكري، وعدم الإبداع العلمي والثقافي- كما شخصه العلامة ابن خلدون- كان ينطبق على ماأصاب الأمة كما تمثل في عصره واستمر حتى مطلع النهضة الحديثة. إن تحليل ابن خلدون ووصفه الدقيق، يقدم لنا صورة حية، كشف فيها عن وقوف الفكر العربي والإسلامي « وجموده واقتصاره على اجترار ما قرره السلف في ميدان العلوم الدينية، وانصرافه عن العلوم العقلية»، فلقد استحكمت دوائر التقليد، وعقمت المذاهب في التجديد، وبالتالي لم يقتصر ذلك الجمود على المسائل المذهبية والعلوم الشرعية، بل كان تعطيلاً للعقل، ولأي تجديد في مختلف مناحي الحياة، ولم يكن بمستغرب أن يدرك رواد النهضة العربية في العصر الحديث منذ القرن التاسع عشر الماضي أسباب الإشكالية في التفاوت الحضاري، بين الشرق والغرب، بداية بوصف رفاعة الطهطاوي العميق لمعارفه الجديدة ومشاهداته، كما كتبها عام ١٨٣٤ في (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، إلى تحديد خير الدين التونسي عام ١٨٦٧ قصده من كتابه الهام (أقوم المسالك) بقوله: « والغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروبية إلى ماهي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية، أن نتخير ما يكون بحالنا لائقاً ولنصوص شريعتنا مساعداً وموافقاً » (ص٥٥).

ودون تجاهل للوجود العثماني في الولايات العربية - واليمن منها - والاحتلال البريطاني والفرنسي في بعض بلدان المشرق والمغرب العربيين. فباستثناء تجربة محمد علي باشا المجهضة قبل منتصف القرن التاسع عشر، فقد مضى ذلك القرن ولم يكن العرب عموماً- دع عنك اليمن-قد حققوا أي نقلة حضارية أو علمية- كما كان قد حدث في اليابان المعاصرة لتجربة محمد علي باشا-والتي يحلو لنا ولغيرنا ضرب المثل بها[1]،

(١) راجع افتتاحية الدكتور محمد الرميحي المعنونة(أصداء حركة الاستنارة)، للعدد (٣٧٦) من مجلة(العربي) الصادرة في مارس١٩٩٠. وبعض مقالات ذلك العدد (العرب والتحدي العلمي)، د. سعود عياش، وغيره.

في حين يجدر التأمل في الجمل التالية من تقرير المؤرخ البريطاني أكتون(Acton) على مشارف القرن العشرين، في العام ١٨٩٦ حول توزيع العمل لمجلدات التاريخ الحديث، الذي أصدرته جامعة كمبردج في مطلع القرن العشرين:

«إنها لفرصة فريدة أن تدون وبالطريقة التي تعود بالفائدة على أكبر عدد، خصوبة المعرفة التي يوشك القرن التاسع عشر تسليمها، وباتباع الحكمة في تقسيم العمل، ينبغي علينا أن نكون قادرين على إنجاز ذلك. وأن يبسط أمام كل شخص آخر وثيقة وأنضج النتائج التي توصل إليها البحث الدولي».

إن التقدم العلمي والتكنولوجي- الذي لم نكن قد فهمناه، ومن ثم حاكيناه، على الأقل - في مطلع القرن العشرين بلغ شأواً عظيماً لاعهد للبشرية به في النصف الثاني من هذا القرن المنتهي؛ تعادل اختراعاته واكتشافاته أعظم بكثير مجمل ما قدمته العقول والحضارات العالمية- بما فيها العربية في أوج ازدهارها-منذ أكثر من ستة آلاف سنة.

لقد كان للتوسع الباهر، بل والمذهل، في أنشطة البحث التنموي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، وبشكل خاص في البلدان الصناعية، هو أبرز دلائل ما أطلق عليه(الثورة) في مجال العلم والتكنولوجيا(التقنية). ذلك أن واقع اليوم- وليس عيباً الاعتراف بأن ثقافتنا الوطنية والقومية ما زالت بعيدة عنه جداً- يشير بوضوح إلى الفارق المهيل بين ما سجلته موسوعات ومجلدات سجلات تاريخ العلم في القرن التاسع عشر، وما تحتويه مثيلاتها في نهاية القرن العشرين، ذلك أن الثورة العلمية والتقنية عدلّت بصورة جذريةوتيرة تراكم المعارف العلمية، واستتبعت تعزيزاً لاسابق له، لتطبيق الأفكار والاكتشافات العلمية على الصعيد العلمي، **وباتت مهلة تجديد المعارف لاتتجاوز السبع السنوات إلى الخمس عشرة سنة**، كما أنه تنشأ باستمرار فروع جديدة للعلوم النظرية والتطبيقية. إن المدة التي تنقضي بين ظهور فكرة معينة إلى حيز النور،

ووضعها في موضع التطبيق العام، هو مؤشر أساسي على التقدم العلمي والتقني، والحال أن هذه المدة ماضية في التضاؤل. لقد لزم- على سبيل المثال- مئة واثنا عشر عاماً للصورة الفوتوغرافية، وستة وخمسون عاماً للهاتف، وخمس وثلاثون سنة للمذياع، واثنتاعشرة سنة للتلفاز، وخمس سنوات لأجهزة الترانزستور، وثلاث سنوات للدوائر المتكاملة، وسنة واحدة لأشعة الليزر.

إن تزايد المعارف ونموها وتجددها الذي يلاحظ في عصرنا، يعد، بحق - كما يرى أحد باحثي اليونيسكو- بمنزلة(تفجر للمعلومات)، المعلومات التي تجد البشرية صعوبة متنامية في ضبطها، فما من فرد - حتى الموهوب- يملك قدرات وذاكرة استثنائية، يستطيع في الواقع السيطرة على مجمل المعارف المكتسبة في ميدان معين. وعلى أية حال، حتى إذا كان ذلك ممكناً، أفليس على كتلة المعلومات القائمة أن تتجدد باستمرار؟ فيجب إذن، ومن البداهة، أن يكون الهدف ليس زيادة التمثل لمعارف ماضيةٍ أبداً في التزايد فحسب، بل تنظيم هذه المعارف على نحو يسهل فيه تجديدها وتعميقها، ويسمح لكل امرئٍ أن يجد وجهةً توجهه في تيار المعلومات الواسع.

وهذه- دون شك- هي إحدى أهم واجبات ثقافتنا ومعارفنا الوطنية والقومية بشقيهما العام والخاص(**أعني المتعلق بخطط ومناهج التعليم في مختلف مراحله وسلّمه التعليمي حتى العالي والمتخصص**)، **وليس من شك- أيضاً- في أن لدينا في اليمن، كما في سائر الوطن العربي، أفراداً مبدعين، ولكن ينقصنا- بشكل مفجع- البيئة العلمية التي يستطيع هؤلاء الأفراد المبدعون أن يبدعوا فيها، والدليل على ذلك إبداعهم في بيئاتهم الجديدة التي هاجروا إليها في الغرب، كما أن هناك صلة قوية بين (العلم) و(المجتمع)، وفي مجتمعاتنا العربية - على تفاوتها- عقبات كأداء، تقلل من انطلاق العقل وحريته، وهي خضوع للرأي(القديم) بدلاً من التطلع إلى الجديد**

والتجريب فيه. وأحد المرتكزات التي يمكن بوساطتها تجاوز هذه العقبات، **هو أن نؤمن بأن قدم الرأي لايعد دليلاً على صوابه**، وأن التخلف العلمي هو الذي يؤدي إلى ركود المجتمع، وتفاقم أمراضه المستعصية، التي يستطيع العلم- بمعناه الشامل- أن يحلها.

لابد أن القراء الكرام يشاركونني الرأي- ومن دون تشاؤم- أننا بإزاء موضوع هام وشائك في نفس الوقت، جذوره -كما ترون- باختصار شديد، ضاربة في الماضي القريب والبعيد، بكل تركته الثقيلة الملقاة علينا، من تخلف وجهل، وافتقارنا إلى البُنى الضرورية، وإلى النواة الأولى، المتمثلة في الأطر (الكوادر) العلمية عالية التأهيل، المتوفر لها مراكز البحوث الأساسية والتطبيقية، وبحوث التطوير التي توجهها الدول الحديثة إلى حل مشكلاتها الكبرى؛ وما يحتاجه كل ذلك، وغيره من رصد دائم متزايد ومستمر من أموال كثيرة، لاطاقة للدول الفقيرة- كبلادنا- برصد حتى الحد الأدنى منها **(وهذا مايدعو بإلحاح إلى التكامل والتنسيق العلمي العربي، في مختلف نواحي البحث والتخصص، في ميادين الدراسات الجامعية والأكاديمية العليا وغيرها)**[1].

والأهم من كل ذلك، إيجاد نقلة نوعية ومتطورة في مناهج التعليم وأساليبه، في مراحله كلها، لاستمرار رفد الأطر (الكوادر) الفنية والعلمية، ذلك أن العامل البشري يحتل مكانة جوهرية متزايدة في الثورة العلمية والتقنية، بسبب ارتفاع مستوى المعارف العلمية والثقافية التي ألمحت إلى تزايدها المهيل، ولأن«تحول الطبيعة البشرية بوساطة الثقافة، إلى قوة إنتاجية(خاصة ومتطورة) هو من ميزات عصرنا التي ستدوم كذلك في الأزمنة المقبلة».

---

(١) انظر على سبيل المثال في الموضوع:

محمد ناصر: التنسيق بين الجامعات العربية لتطوير الدراسات العليا والبحث العلمي، مجلة المستقبل العربي، العدد(١٤٢) ديسمبر ١٩٩٠م.

إنه لايكفي أن نقضي -بإذن الله- على تلك النسبة الهائلة من الأمية، وهو هدف عظيم، بأي نوع من التعليم أو الثقافة، بل ولايكفي أن يكون لدينا بعض مختصين أو مثقفين يعرفون مختلف مجالات العلوم الحديثة، دون أن تتحقق لنا تلك النقلة العلمية والثقافية المطلوبة المستوعبة لنتاج العصر والمشاركة فيه. فعالم اليوم يسير بخطى متسارعة، بل مذهلة، في تطوير كل تلك العلوم، واكتشاف الجديد منها، غير مكتف بما بلغه كماً ونوعاً، بل يغوص علماؤه في اكتشاف حقائق الكون، كما في أبحاث الفضاء وعلوم المستقبل، ومتابعة حقائق الذرة والطاقة، وغير ذلك. بل كادوا يصلون إلى هندسة المعارف جميعها، كما يتجلى ذلك في علم الحاسوب(الكمبيوتر) الذي بدأت نتائج أبحاثه تنتج الجيل الأول عام ١٩٤٦م في أمريكا، ليصل به علماء اليابان عام ١٩٩٠م إلى إنتاج جيله الخامس « ذلك الجيل الذي يطرح على البشرية كلها أسئلة جديدة، ويثير قضايا تنتمي إلى عالم الحلم، لكنه حلم يستند إلى واقع لاشك فيه ».

إن هذه العجالة أوالورقة المتواضعة، لاتطمح إلا إلى التأكيد بأن الدخول إلى العصر، لايتوقف على ما تملكه الأمة- أي أمة- من ثقافة أو معارف أو من تراث عظيم، بقدر مايتصل ذلك أيضاً برغبة صادقة ملحة- عند الجميع- **في العمل على الارتقاء بالحياة الاجتماعية، وتحقيق الحرية الثقافية بأكمل معانيها وأوسعها، في ظل الحرية السياسية والديمقراطية والنظم الاقتصادية التي تتيح للفرد مجال الخلق والابتكار، وهو أمر لايتصادم بالمبادئ والثوابت الوطنية والعقائدية، بل يؤكد مدى الاهتمام الحقيقي بالعلم والتكنولوجيا والإبداع فيهما.**

إن التقنية تعني في الأخير أسلوب الإنتاج، أو حصيلة المعرفة الفنية أو العلمية،

المتعلقة بإنتاج السلع والخدمات، بما في ذلك أدوات الإنتاج، وتوليد الطاقة، واستخراج المواد الأولية، ووسائل المواصلات، فكيف نُعدّ التقني أو (التكنولوجي)؟

تلك هي مهمة ثقافتنا الوطنية والقومية، ومؤسساتها الناشئة والمطلوبة، وهذا هو التحدي الكبير للّحاق بمتطلبات العصر.

* * *

أهم المراجع التي جرى الاستئناس بها أو الاقتباس عنها :

العلامة عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة .

د .محمد عمارة : رفاعة الطهطاوي(رائد التنوير في العصر الحديث)

– دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٤

– الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاو ي

– المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣م

(بتحرير ٢٢عالماً ومفكراً) : تأمل في مستقبل التنمية التربوية

– منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة(اليونيسكو) ١٩٨٦

(الترجمة العربية بإشراف الأستاذ أنطوان خوري)

جون ديوى : الحرية والثقافة ترجمة أمين مرسي قنديل

الجامعة العربية(الإدارة الثقافية)

مكتبة الأنجلو المصرية– القاهرة ١٩٥٥

خير الدين التونسي : مقدمة كتاب(أقوم المسالك في معرفة الممالك)

– تحقيق د . المنصف الشنوفي ، الدار التونسية ، ١٩٧٢

– وتحقيق د . معن زيادة ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٨

رونالد روبنسون : تنمية العالم الثالث

ترجمة : عبد الحميد الحسن

منشورات وزارة الثقافة السورية – دمشق ١٩٧٣

د . محي الدين صابر : قضايا الثقافة العربية المعاصرة

الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٨٣

مايكل هدسون وآخرون : العقد العربي القادم : المستقبلات البديلة

(**تحرير د . هشام شرابي**) مركز دراسات الوحدة العربية

مركز الدراسات العربية المعاصرة(جامعة جورج تاون)، بيروت ١٩٨٦م .

من دفتر الذكريات
بينَ الدّراسَة والسِّيَاسَة [1]

من غريب المفارقات أن الإمام يحيى حميد الدين الذي أحكم عزلة اليمن طوال النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٥ - ١٩٤٨م) كان قد أُقنعَ آخر الأمر بضرورة إرسال بعثة دراسية إلى لبنان عام١٩٤٧م - سيأتي الحديث عنها ـ وثانية إلى العراق، وكان ذلك قبل مقتله في ثورة الدستور في مطلع عام١٩٤٨م وإذا بتلك الثورة تنتكس ليقرر ابنه أحمد(الإمام الجديد) إعادة تلك البعثة التي كانت قد وصلت إلى عدن، وتنتظر السفر إلى بغداد، وكان عددها ٣٢طالباً منهم خمسة من العسكريين.

وحرص قادة حركة الدستور، وفي مقدمتهم مدرب الجيش- بل وقائده الفعلي في الثورة-الشهيد الرئيس(العراقي) جمال جميل في مواصلة سفر تلك البعثة- سيئة الطالع- إلى غايتها العلمية في العراق. كانت الأحداث متسارعة، وإذا بأوامر أحمد الذي نجح في إجهاض ثورة الدستور تقضي بسرعة إعادة تلك البعثة من عدن فوراً، واللحاق به إلى معسكره في(حجة)، حيث كان يشرف بنفسه على الإعدامات الأولى لقادة تلك الثورة. وكأنه أراد بذلك، ليس حرمان أولئك الشباب واليمن من تحصيل علمي سينفع مستقبلاً، بل ولتلقي درس رهيب لا زال بعضهم ممن عرفنا يتذكره حتى اليوم.

---

(١) نشر في مجلة العربي العدد (٣٧٦) مارس ١٩٩٠م.

أما تلك البعثة السابقة المكونة من أربعين طالباً الذين جرى اختيارهم من مدارس المدن الرئيسة الثلاث، فقد غادرت اليمن إلى لبنان في أغسطس عام١٩٤٧م، حيث التحق نصفهم بكلية المقاصد الخيرية الإسلامية في صيدا، والنصف الآخر في كلية التربية والتعليم بطرابلس. وبعد عام التأم شمل البعثة كلها في طرابلس، بيد أن ذلك لم يدم أكثر من نصف عام، تقرر بعده نقل البعثة إلى مصر، حيث استقرت في(حلوان)، والتحق أعضاؤها بمختلف مراحل الدراسة الثانوية، بما كان يتفق مع أعمارهم ومستوى تحصيلهم، وكان مقدراً لبعض أعضاء تلك البعثة أن يقوم بدور طليعي مبكر في الحركة الطلابية والوطنية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢م في مصر، التي رحبت بالزعيم الوطني الكبير الشاعر الأستاذ القاضي محمد محمود الزبيري- استشهد في عام ١٩٦٥م- بعد أن كان لا جئاً في باكستان. لقد التف حول الزبيري عدد كبير من بعثة(حلوان) التي قد انضم إليها عدد آخر من الطلاب اليمنيين بأوامر خاصة وحالات فردية، فبلغ عدد أعضائها مايقرب من سبعين، سرعان ما التحق بالجامعة من أكمل منهم الثانوية العامة، كما التحق آخرون بالكليات العسكرية.

وفي هذه الفترة ١٩٥٣-١٩٥٤م تصاعد نشاط الاتحاد اليمني في القاهرة بزعامة الزبيري، وهذا ما أزعج الإمام أحمد. فقام شقيقه الحسن بزيارة مصر، وزار البعثة في حلوان، وكانت خلاصة رأيه لأخيه هو توزيع من حصل على الثانوية العامة، أو من قد التحق بالجامعة على العواصم الأوروبية والولايات المتحدة، وهكذا تم إرسال بعضهم إلى فرنسا (الأساتذة محسن العيني، يحيى جغمان. محمدالرعدي)، ومثلهم إلى إيطاليا، وبريطانيا. وأمريكا؛ وربّ ضارة نافعة، فقد تثقف معظم أولئك مع غيرهم ليكون منهم عماد الدولة والحكومة الحديثة بعد ثورة ٢٦ سبتمبر١٩٦٢م. ومازال بعضهم يؤدي واجبه في أعلى مناصب الدولة، وسلكها الدبلوماسي حتى اليوم.

* * *

بعثة إلى مصر وآمال شخصية:

لم يكن في وسع الإمام أحمد ونظام حكمه الذي يتلقى هجمات نقد شديدة علنية من الخارج، وسرية في الداخل، بعضها مخلصة من بعض مقربيه لإصلاح الوضع، أن يستمر في التعامي عما يدور في عالم القرن العشرين من حوله، فلا تعليم عال، ولا متخصص يوجد في اليمن يسد أبسط الاحتياجات التي فرضها العصر، ومنها احتياج الدولة أو الحكومة نفسها. ولا بد أنه قد ثار جدل ولغط كبير بين الإمام وأشقائه. وعلى الأخص مع الحسن (ممثل الرجعية والأكثر تطرفاً) وعبد الله ممثلها الأكثر تنوراً، وآخرين من المسؤولين المؤيد منهم أو المعارض لسياسة البعوث إلى خارج اليمن. ويبدو أنه قد تبلور رأي جديد من كل ذلك وعلى ضوء زيارة الحسن لمصر، وبدلاً من تطوير نظام التعليم والاستعانة على ذلك بمصر أو العراق أو سورية، فقد جرى الاتجاه إلى حل وسط، وهو العودة إلى سياسة البعوث إلى مصر، ولكن ليس إلى القاهرة حيث يتمركز بها نشاط الزعيم الزبيري والاتحاد اليمني.

وكيفما كان الأمر، فقد تم تجهيز بعثة من أربعين طالباً من تلاميذ المدرسة المتوسطة والثانوية، عين على رأسها مرب فاضل، هو القاضي أحمد الهيصمي، وتقرر بالتشاورمع الجهات المصرية المختصة أن تكون بعيدة عن القاهرة والنشاط السياسي المعارض للإمام، فأرسلت على دفعتين، بين أغسطس وأكتوبر ١٩٥٤م، إلى قرية(ساحل سليم) في محافظة أسيوط، حيث كان فيها مركز تعليمي كبير ومدرسة داخلية. غير أنه رُئِيَ بعد ستة أشهر نقل البعثة إلى(بني سويف)، واسؤجرت لها دار استقرت بها، والتحق طلابها بالمدرستين الإعدادية(والنيل الثانوية) التي تخرجت فيها أول مجموعة صغيرة التحقت بجامعة القاهرة عام ١٩٥٩، وكان أحدهم واحداً من العشرة الأوائل في(الجمهورية العربية المتحدة).

كان سفر تلك البعثة إلى مصر حديث الناس، كما كان غاية الأمل والطموح لطلاب المدرستين الوحيدتين في صنعاء(المتوسطة)و (الثانوية) وإخوانهم في تعز والحديدة، فمن تلك المدارس كان اختيار بعثتي (١٩٤٧و١٩٥٤م).

إنني لا أزال أذكر- وبعد مرور أربعة وثلاثين عاماً- مدى الفرحة والزهو اللذين عمّا من كنت أعرف من زملاء تلك البعثة عشية سفرهم، ومدى الحسرة والأسى في أنني لم أكن معهم. وواقع الأمر أنني كنت أصغر عمراً بما لا يقل عن ثلاث أو أربع سنوات عن أصغرهم سناً. وفي العام التالي أكملت المرحلة الابتدائية في مدرسة(الإصلاح)، والتحقت بالمدرسة (المتوسطة)، فكانت عالماً جديداً عليّ.

فالأساتذة من خيرة المربين والرواد التربويين، ومعهم مدرسون من مصر وفلسطين، كما أنها المرة الأولى التي كنا نقرأ فيها في بعض المواد كتباً مطبوعة وفق المنهج المصري، فكانت تشعل حماسنا للتنافس والتفوق، ربما على أمل اللحاق بمن سبقنا إلى مصر، فذكراهم لم تبرح مخيلة زملائهم ممن بقي، فكانوا يحدثوننا بما يصل منهم من رسائل عن مستقبلهم الدراسي والعلمي، حيث لا مستقبل يرتجى بعد المدرسة الثانوية إلاّ الأعمال الكتابية (الوظيفية) العادية، أو الالتحاق بدار العلوم(المدرسة العليا)، وهي مخصصة لسلك الحكومة ورجال الفقه والقضاء، ولم يكن كل ذلك شاغل بال أحد منا- في المتوسطة- باستثناء مالاح في العام الثالث للدراسة (١٩٥٧م)، وهو الحديث عن إنشاء كليات عسكرية (الشرطة والطيران والحربية) التي كانت متنفساً في العام التالي لكثير من زملائي ومن سبقنا في المدرسة الثانوية، ومنهم كانت الطليعة- مع ضباط وطنيين قدماء- التي صنعت حدث التغيير الكبير في ٢٦ سبتمبر١٩٦٢م.

غير أنه حدث طارئ مهم خلال عام١٩٥٧م، أحسب اليوم أن له علاقة بما كان يدور ويجري في المشرق العربي آنذاك من مشاعر وطنية وقومية ألهبت حماسها حركة التحرر العربية بزعامة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

ففي ربيع ذلك العام قامت القوات البريطانية المحتلة للشطر الجنوبي من اليمن بعدوان جديد على منطقة (حريب)، بعد سلسلة من الاعتداءات والمناوشات في العام السابق[1]. وكانت مصر وسورية من بين الدول الأعضاء- القليلة- للجامعة العربية التي تحمست لشكوى اليمن واستغاثتها بالجامعة الوليدة، فقامت بعثة منها برئاسة الأمين العام المساعد المرحوم أحمد الشقيري بزيارة لليمن في ٣ أبريل/ نيسان ١٩٥٧م لمعرفة الأوضاع، ومؤازرة اليمن ضد الاعتداءات البريطانية المتكررة، وبعد أن عادت البعثة إلى القاهرة قدمت تقريرها إلى الأمانة العامة، وكان مما جاء فيه أنه تبين لها أن في الجنوب اليمني حركة قوية عامة « تهدف إلى التحرر من النفوذ الأجنبي، والانضمام إلى اليمن الأم، إيماناً بوّحدة اليمن: شماله وجنوبه، وبالروابط القومية العربية . . »وبعد أن عرضت نتائج العدوان ونزوح عدد كبير من سكان الجنوب إلى الشمال، وعدم تكافؤ القوة والتسليح في اليمن(الشمالي) مع القوة البريطانية المحتلة، وضعت اللجنة جملة من المقترحات العملية والسياسية في إطار التعاون العربي والمجال الدولي.

* * *

وفد وبعثة:

وفي الشهر التالي قام وفد سوري مدني وعسكري رفيع المستوى، برئاسة وزير الخارجية المرحوم الأستاذصلاح البيطار، بزيارة لليمن، استمرت أسبوعين من٢٣ مايو/ أيار إلى ٨ يونيو/ حزيران ١٩٥٧م، لعلها أول زيارة لوفد سوري على ذلك المستوى.

---

(١) شهد عام ١٩٥٦ م سلسلة من الحوادث الحدودية والاعتداءات البريطانية، لعلها من بين أسباب توجه الحكم للمعسكر الاشتراكي وشراء السلاح منه- كما فعلت مصر- وذلك في زيارة البدر المشهورة على رأس وفد رسمي في يوليو١٩٥٦لكل من موسكو وبراغ وبكين، وهي الزيارة التي تهكم منها ساخراً الزعيم الزبيري في صورة شعرية بليغة، أظهر فيها تناقض واقع الحكم الإمامي مع تلك الزيارة حين قال من قصيدة وطنية:

يَبـــــهـــــرُون الـدّنَيا بـزَيَارة مُوسكـو   وعَلَيـْهـم غُبَار دُنـيـــــــا ثَمُود!

لقد تيسر للوفد السوري دون عناء كبير أن يطلع على الأوضاع السيئة المتخلفة التي كان اليمن يحياها، ووضع أعضاؤه تقارير علمية موضوعية عن مختلف جوانب الحياة العامة فيه[1] وجاء في مستهلها تمهيد مركز وحَصِيف للأستاذ البيطار، أكد فيه أواصر العروبة والقربى، وعراقة اليمن وحضارته القديمة، وضرورة تعاون العرب لإخراجه من عزلته وتخلفه، حيث باتت اليوم تلك العزلة الطويلة« . . ضارةً وغير عملية، . . إنها(اليمن) بحاجة لإخوانها في العروبة أن يأخذوا بيدها، وأن تفيد بتجاربهم» . وأضاف مشخصاً ومُحِقا: «ولكن علينا أن نعلم أن نهضة اليمن لا يمكن أن تقوم إلاّ على اليمنيين أنفسهم، وأن تكون مساعدتنا لهم في حدود التوجيه والتعليم والتدريب. إن في عنق الدول العربية أمانة مساعدة هذا البلد الشقيق في شق طريقه إلى الأمام. ولكن السياسة التي يتحتم اتباعها ينبغي أن تكون بعيدة عن التدخل والاستغلال، مصبوغة بصبغة الأخوة الصادقة، قائمة على أساس أن اليمن المتقدمة المتطورة ستكون حجراً كريماً ودرعاً واقياً في بناء الأمة العربية.

إن علينا واجب انفتاح اليمن إلى البلاد العربية، القريبة والبعيدة، ووصلها براً وبحراً وجواً بهذه البلاد، وإن علينا واجب تقديم المساعدات المالية والاقتصادية والبعثات في مجال الطب والتعليم والخبرةوالاختصاص . . » .

كان متفقاً على ضوء مباحثات البيطار فتح سفارتين في العاصمتين، وربطهما بخط جوي منتظم، تقوم به الخطوط السورية، وكذلك إرسال بعثة دراسية إلى دمشق، وهو الأمر الوحيد الذي تحقق في نهاية صيف ذلك العام.

---

(١) قام بنشرها الأستاذ بشير كعدان-عضو الوفد- في عدد خاص من صحيفة(الجمهورية) السورية التي كان رئيساً لتحريرها، وقد قام(الاتحاد اليمني) في القاهرةِ بُعَيْد ذلك بإعادة نشرها- كما هي- في كتيب ذكر في مقدمته القصيرة أنه «يقدم هذه التقارير من جديد لأبناء الشعب العربي في كل مكان، ليجدوا الصور الحقيقية لأوضاع اليمن . . فهي تدين المدافعين عن الطغيان في اليمن والسائرين في ركابه من العملاء والأذناب» .

لقد كان من حسن حظي- بعد معاناة- أن أكون آخر من التحق بتلك البعثة التي لم يزد عدد أفرادها عن خمسة عشر طالباً حُوِّل خمسة منهم إلى(مدرسة الشويفات) في لبنان.

لقد كانت الحياة في اليمن، حين فارقتها، بائسة في كل مَناحِيها، راكدةً رتيبةً، تذكرني كلما قرأت أو رجعت إلى مقدمة العلامة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) بقوله قبل ذلك بستة قرون عن حال عصره:

«وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة..».

ولهذا لم أصدق نفسي بعد مغادرة صنعاء إلاَّ حين هبطت الطائرة المقلة لنا من القاهرة[1] في مطار (المِزَّة) القريب- في ذلك الوقت من دمشق- وذلك في يوم بارد من أيام ديسمبر/ كانون الأول عام١٩٥٧م.

لم تكن ملابسي المتواضعة صوفية، ولم يكن لدي معطف، وكان شتاء الشام ذلك العام قارساً شديداً - أو هكذا وجدته- وفيه شاهدت أول مرة في حياتي هطول الثلوج التي لم أكن قد تصورتها من قبل!.

كنت في أول الأمر بعيداً عن الجماعة التي كانت تسكن في(داخلية) المدرسة الصناعية الفنية. وتذهب للدراسة في مدرسة التجهيز(الإعدادية- الثانوية) القريبة، ولم ألبث أن التحقت بهم، وكانت أوضاعهم المادية والسكنية غاية في الصعوبة، كما أن الدراسة كانت في واقع الأمر- وفي المواد العلمية على الأخص- فوق مستوانا جميعاً.

ووجدت نفسي مع زميلين آخرين من العشرة أصغر عمراً بكثير من زملائنا. فكان

---

(١) كنت في صحبة وفد اليمن إلى اجتماع المنظمة العربية للعلوم الإدارية المنعقد في دمشق، ومعنا زميلان أرسلا من القاهرة للالتحاق بجامعة دمشق(كلية الطب).

لكل ذلك- مع الإحساس بفراق الأهل والوطن لمن كان في سن لم تتجاوز الرابعة عشرة- شعور بأمور لم أكن أحسب لها أي حساب من قبل. وسرعان ما تأقلمت مع الأوضاع الجديدة، وشغلت في تحد للسباق في الدراسة، ثم انغمست مع زملائي في مظاهرات فرحة الجماهير بالوحدة العربية بين سورية، ومصر التي عايشت أوجها. ولن أنسى يوم الرابع والعشرين وليلته من شهر فبراير/ شباط ١٩٥٨، ذلك اليوم الذي وصل فيه المرحوم الزعيم جمال عبد الناصر. وانتظرناه بين عشرات الألوف في ساحة قصر الضيافة، حتى أطل مخاطباً الجماهير، بل والأمة العربية كلها، ومكثنا في الساحة إلى ساعة متأخرة من الليل، وحين رجعت مع زميلين لي إلى مدرستنا القريبة الواقعة في (زقاق الصخر) وجدنا أبوابها مقفلة، وكان مديرها الأستاذ الأحدب شديد الصرامة، فنمنا ليلتنا على بوابتها حتى الصباح!

نجحت في ذلك العام الدراسي، ومع بداية الصيف عاد الأمل والحنين للالتحاق بإخواني وزملائي القدماء أعضاء بعثة (بني سويف). وجرى توحيد مناهج الإقليمين(الشمالي)و (الجنوبي) في (الجمهورية العربية المتحدة)، ففارقت مع آخرين دمشق، لألتحق في صيف قائظ بصعيد مصر، حيث سعدْت بالانضمام إلى البعثة التي سبقتني قبل ذلك بأربعة أعوام، ومعها عشت سنوات لها ذكريات عزيزة.

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الجلالة مولانا أمير المؤمنين المعظم أطال الله عمركم آمين .

بعد تقبيل أياديكم الكريمة . . . أعرض على أعتاب جلالتكم :

في يوم١٨ ربيع الثاني من هذه السنة قدمت كتاب وزارة الخارجية العراقية إلى جلالتكم بخصوص ترحيبها بقبول الطلاب اليمنيين في مختلف معاهدها العلمية . . . فأظهر جلالتكم الارتياح و الممنونية من ذلك ، وأحلتموني إلى فخامة القاضي عبد الله العمري ؛ وبعد المداولة مع فخامته قرروا أن تكون البعثة من ثلاثين شخصاً عشرة منهم كبعثة وزارية ، وعشرين بعثة علمية ، وأرسلت قرار رئيس وزارتكم إلى الحكومة العراقية بكتابي المرقم٢٧ / ٢ والمؤرخ ٢٨ شباط وقدمت صورة من هذا الكتاب إلى فخامة القاضي عبد الله وحظي بموافقته .

وأخيراً وصلت الموافقة العراقية على كل ما تقرر حسب رغبة حكومتكم ، وكذلك وصلت موافقة الحكومة العراقية بإرسال بعثة مختلفة حسب طلب مولانا سيف الإسلام عبد الله أيدهم الله المفوض من قبل جلالتكم في عقد معاهدات دولية . وقد علمت أن جلالتكم ترفضون وصول البعثة العراقية إلى اليمن ، كما أن جلالتكم تتوسلون ببعض الوسائل لعدم إرسال بعثة من اليمن إلى العراق الذي قدم مساعدته لكم حسب المحبة والأخوة التي تربط القطرين الشقيقين . وفي رفضكم هذا ربح عظيم للعراق حيث تبلغ خسارته سنوياً على٣٠ طالباً ما يقرب من١٠٠ ألف ريال . ولكن خسارة جلالتكم وحكومتكم أعظم من ذلك بكثير لأنكم لا تتصورون مقدار ما يصيب سمعتكم كملك ورئيس حكومة مطلق تطلبون وتتعهدون ثم تنقضون وترفضون ما وعدتم وما قررتم وما طلبتم . ولما كان عبدكم المملوك لا يحب مطلقاً ومن كل قلبه أن لا يشوب سمعة

جلالتكم شائبة، وتبقى معاهداتكم الدولية وقراراتكم الحكومية معتبرة بين الدول، لهذا أسترحم أن تبقوا على قراركم الأول بخصوص إرسال البعثة كاملة إلى العراق بدون أي تغيير، حفظاً لكرامة جلالتكم وحكومتكم. كما أسترحم من جلالتكم المعظم أن لا تطلبوا ولا تتعهدوا لأحد بشيء يصعب على حكومتكم تنفيذه، فإن ذلك يسبب لكم مشاكل دولية جلالتكم بغنى عنها.

أما إذا رأيتم وجوب تنقيص البعثة المرسلة إلى العراق لأسباب قاهرة، مع أن حكومتكم الجليلة أرسلت إلى مدارس المقاصد الخيرية في لبنان التي تعيش على صدقات الناس هناك ٤٠ طالباً. نعم يامولاي إذا أمرتم بتنقيص البعثة حباً لا كرهاً بالعراق. فأسترحم أن تكون على الترتيب المدون في الملحق مع كتابي هذا. راجياً ومسترحماً أن لا تسمعوا إلى أقوال المغترين. وأطال الله عمركم وأبقاكم ذخراً لليمن والعرب والإسلام آمين.

عبدكم المملوك الرئيس جمال جميل

* * *

(تمهيد)
أمين معلوف

أمين معلوف كاتب صحفي لبناني، ولد عام١٩٤٩ في مسقط رأس أسرته(عين القبو- المتن الشمالي في لبنان)، وعرف العديد منها بالأدب والكتابة. واستقر في باريس، وبدأت شهرته روائياً بنشره كتابه الأول (الصليبيون كما رآهم العرب) سنة ١٩٨٣، ثم (ليو الإفريقي) سنة ١٩٨٦م، ثم نشر (سمرقند) سنة ١٩٨٨م و(جنائن النور) سنة ١٩٩١م، وصدر له في خريف عام ١٩٩٣م عن دور (غراسيه Grasset) الباريسية أحدث أعماله رواية (صخرة طانيوس Le Rocher de Tanios) التي تحكي المصير الغامض لأحد أسلاف المؤلف (طانيوس معلوف) في منتصف القرن التاسع عشر بأسلوب المعلوف الرشيق الذي يمزج فيه حوادث التاريخ بخياله الجامح، وأحياناً إسقاطاته على عصرنا، فطانيوس وما عاناه ربما كان رمزاً لبلده (لبنان) ومصيره المجهول، وقد نال المؤلف على روايته هذه في نوفمبر عام ١٩٩٣م جائزة (غونكور) كبرى الجوائز الأدبية الفرنسية، وكان بهذا الأديب العربي الثاني بعد الكاتب المغربي الطّاهر بن جلون الذي سبق أن نال الجائزة نفسها في الدورة السابقة عام١٩٨٧م عن روايته (ليلة القدر). وقد لاحظ الكثير من المهتمين هذا التتابع في نيل عربيين- من غير الفرنسيين- هذه الجائزة بالتقدير العالي مع (شيء من الحذر!).

المقال الآتي كان في الأصل عرضاً ومراجعة للطبعة الإنجليزية لروايته (ليو الإفريقي) نشرته بتصرف يسير مجلة العربي في عددها (٣٦٥) الصادر في أبريل/ نيسان

عـام ١٩٨٩م بعنوان (الوزان كـيف أصـبح ليـو الإفـريقي؟)، وكـان تنويهـاً بالكـاتب المرموق، ودعوة إلى تعريب مؤلفاته إلى لغته الأم ، وبعد عام ونصف نشر في صيف عام (١٩٩٠م) في بيروت ترجمة الدكتور عفيف دمشقية لها، وكان ذلك بعد نحو خمس سنوات على صدورها بالفرنسية، في حين صدرت (صخرة طانيوس) بتعريب جورج أبي صالح بعد أقل من عام على نشرها (ملف العالم العربي - بيروت/ شباط (فبراير سنة ١٩٩٤)، ولعل بقية أعماله في طريقها إلى العربية التي لا شك أن خير حكم لجودة تعريبها هو نفسه الأستاذ المعلوف الذي يسره كثيراً أن يقرأ أبناء أمته ولغته- قبل غيرهم- ما صار مُعْجِباً للفرنجة وأبناء الفرنكفونية .

صنعاء- ١٥/ ٩/ ١٩٩٤م.

* * *

ليــو الإفريـقي
تأليف: أمين المعلوف

ترجمه من الفرنسية إلى الإنجليزية: الدكتور بيتر سلقلت

«أعاد الكاتب والصحفي المعروف أمين المعلوف إلى الحياة الأدبية والعلمية سيرة حياة الرحالة والعالم الجغرافي العربي الحسن الوزان المتوفى في بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر في رواية توثيقية شَيِّقة باللغة الفرنسية معنونة بالاسم الذي اشتهر به الوزان بعد أسره وإقامته في روما، وهو (ليو الإفريقي Leo The African) وقد لقيت ترحيباً واهتماماً في الأوساط الأدبية منذ نشرها قبل عامين، كما لاقت اهتماماً آخر بعد أن قام مؤخراً المستشرق البريطاني الدكتور(بيتر سلقلت Peter Sluglett) بترجمتها إلى الإنجليزية ونشرت في لندن في مطلع خريف هذا العام. فمن هو ليو الإفريقي؟ وما صلة العمل الإبداعي الجديد للمعلوف بسيرة حياته الدرامية الحقيقية ؟».

* * *

الرحيل قبل سقوط غرناطة :

عندما نستعرض سيرة حياة هذا العالم، الرَّحْلَة، المؤرخ، الشاعر، اللغوي، النابغ، السفير ثم الأسير، في مختلف المصادر الكثيرة التي كتبت عنه، لابد من الإشارة بداية إلى أن العمل الأدبي(القصصي) الناجح الذي أخرجه باللغة الفرنسية الكاتب الأديب والصحفي المعروف أمين المعلوف، هو نفسه الإطار التاريخي العام الذي عاشه

عالمنا الوزان منذ نشأته الأولى في مسقط رأسه(غرناطة) مروراً بكل الأدوار والأحداث غير العادية التي مرّبها في رحلة درامية نادرة الحدوث استحقت أن يستلهم منها المؤلف قصة ناجحة في الأدب الفرنسي. ومن ثم نقلها إلى اللغة الإنجليزية لتجد نفس النجاح في وقت قصير كما سنعرض لذلك فيما بعد .

ولد الحسن بن محمد الوزان في (غرناطة)، واختلف المؤرخون في سنة مولده، ورجح المختصون المهتمون بذلك بأن مولده كان نحو سنة (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) أي قبل سقوط غرناطة بنحو عشر سنوات، ولا بد أن أسرته العربية التي كانت تعمل في التجارةوتتعاطى العمل الدبلوماسي، المنحدرة في الأصل من قبيلة بني زيان الزناتية المغربية، قد أحست كغيرها بالخطر الإسباني الداهم على آخر معقل انحصر فيه سلطان العرب في مملكة غرناطة سنة (١٢٣٦-١٤٩٢م)، فانتقلت الأسرة إلى(فاس) التي كانت مزدهرة في مطلع حكم(بني وَطاّس) الذين استعادوها إلى حكمهم في قسم من المغرب الذي كان يعاني نفسه من صراع الأمراء وتنافسهم.

وفي مدينة فاس نشأ الحسن الوزان وتتلمذ على علماء ومشائخ (القرويين) المشهورين وتخرج في علوم اللغة وآدابها والفقه، والتفسير والحديث، والمنطق، وسائر المعارف العربية والإسلامية المعروفة، وأظهر نباهة ونبوغاً مبكراً، فقرض الشعر صغيراً، وجادل وناظر العلماء والفقهاء ولمّا يتجاوز العشرين بعدُ من عمره فنال الإعجاب وبدأ اسمه في الشهرة.

* * *

السفير الرحالة :

اجتمع للحسن الوزان في مقتبل عمره نبوغ علمي وإدراك عالٍ، واستعدادللترحل واكتشاف المجهول، وكان في يفاعته قد أتيح له اصطحاب والده في مهمة ضرائبية من قبل السلطان، فقام بعدة رحلات في إقليم الريف المغربي والأطلس المتوسط.

وهكذا تهيأ للعالم الشاب أن ينخرط في سلك بلاط سلطان فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي الذي سرعان ما تبين مواهبه، فأوكل إليه عدة سفارات ومهمات سياسية هامة طاف فيها أرجاء المغرب وشمال إفريقية وأقاليم أخرى في إفريقية وآسية سنأتي على ذكر ما يهمنا منها هنا اعتماداً على الترجمة العربية الممتازة لكتابه(وصف إفريقية) والمشهور في العالم منذ طبعته الأولى باللغة الإيطالية عام١٥٥٠م وما تلاها من طبعات كثيرة باللغات الأوروبية الأخرى عبر أربعة قرون وثلاثة أرباع القرن حتى نقل إلى لغة مؤلفه العربي قبل عشر سنوات فقط رغم شهرة الكتاب وصاحبه كما سنذكر بعد قليل.

قام الحسن الوزان في عام (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م) بمهمة سياسية إلى جنوب المغرب، لعلها من أوائل المهام التي كلفه إياها سلطان فاس، وذلك للتحالف مع إمارة السعديين الناشئة لمناهضة البرتغاليين المحتلين، وتوحيد الصف ضد المتآمرين المحليين معهم، وقد تردد بين مملكة فاس وهذه الإمارة غير مرَّة لهذا الغرض. وبعد عامين أوفد السلطان الوطاسي مع عمه في سفارة إلى بلاد السودان تباحث فيها مع ملك سنغاي Songhai محمد أسكيا الكبير الذي كان قد توسع حكمه واحتل تومبوكتو التي توغل منها الوزان فقام بزيارة الممالك الإسلامية والوثنية في وسط إفريقية وغربيها.

وفي العام التالي (٩١٨هـ/ ١٢-١٥١٣م) قام بمهمة سياسية إلى الأطلس الكبير دامت سبعة أشهر تباحث فيها مع القبائل الساكنة في جبال(دادس) وما حواليها. ومن

ناحية أخرى كانت إمارة السعديين في جنوب المغرب بزعامة محمد القائم بأمر الله قد توسعت بعد مبايعة قبائل المنطقة لهذا الأمير، فامتد سلطانه حتى سفوح الأطلس الغربية والشمالية، ومن جديد كلفه سلطان مملكة فاس محمد الوطاسي الاتصال بالأمير السعدي الذي سبق أن توطدت صداقته معه فرحل إليه بعد أشهر قليلة من عودته سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٤م، وكان من نتائج زيارته الناجحة تأكيد الود والتعاون بين عاهلي المملكتين في الشمال والجنوب.

ويتضح الدور البارز والهام للحسن الوزان باختيار ملك فاس ليكون سفيره إلى بلاط أكبر قوة في الشرق (السلطان العثماني سليم الأول) حيث توجه إلى الآستانة لكنه ماوصلها حتى كان السلطان سليم قد غادرها على رأس حملته للاستيلاء على بلاد الشام ومصر في صيف عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، فلحق به السفير الوزان وحضر معه المعارك التي انتهت في ربيع عام ٩٢٣هـ أبريل/ نيسان عام١٥١٧م، وتم القضاء على مقاومة المماليك ونهاية حكمهم في مصر وبلاد الشام.

وبعد أن أمضى السلطان سليم بضعة أشهر في مصر ثبت خلالها حكمه في المشرق العربي عاد أدراجه بحراً من الإسكندرية إلى مقر الخلافة العثمانية في القسطنطينية.

وغادر السفير الوزان مصر راجعاً إلى بلاده بعد رحلة زار خلالها السودان وبعض موانئ البحر الأحمر.

* * *

الوقوع في محنة الأسر :

لعامين تاليين كان الحسن الوزان يتنقل بين بلدان الشمال الإفريقي، وإذ غادر بحراً تونس سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م عائداً إلى المغرب، ساقه سوء الطالع لتقع سفينته في يد القراصنة الطليان الذين كانوا كغيرهم من القراصنة يجوبون البحار للسطو والنهب، فأسروه بالقرب من جزيرة(جربة) التونسية، ليحدث منعطف مغاير وجديد في حياة ومستقبل الحسن الوزان حيث أوقعته الأقدار ليسوقه القراصنة مع رفاقه إلى نابولي، لكنهم لم يبيعوه كغيره في(سوق النخاسة)، فقد تبين لهم فيما يبدو أنهم ملكوا أسيراً غير عاد ي، فنقلوه هدية إلى بابا روما (ليو العاشر) الذي وجد في الأسير المسلم بغيته.

* * *

تقية التنصر وحمل اسم البابا :

كان البابا ليو العاشر سليل أسرة آل مديتشي الفلورنسية(Leo x, Jean de M'edicis) من أشهر باباوات عصر النهضة الذين عملوا على إحياء العلوم والآداب والفنون، كما كان مهتماً بالشرق سواءٌ في الشمال العربي الإفريقي الذي وقف المسلمون في حماية ثغوره في وجه الحملات الصليبية الأوروبية أو إزَاءَ تَنَامِي الخطر العثماني في أوروبة.

لهذا ليس من شك في أن البابا ليو قد سعد بهذه الهدية النادرة التي قدمت إليه، وقد لخص معربا كتاب (وصف إفريقية) تلك السعادة وتطور العلاقة بين الأسير المسلم والسيد المسيحي التي أثمرت الكثير في العالم الغريب على عالمنا الوزان بأن البابا«سر بهذا العالم العربي الذي قدم إليه، وسرعان ما وثقت الصلة بينهما، لاصلة سيد بأسير،

ولكن صلة قريب بقريب، كان ينشد ضالة فعثر عليها، ولعل من أسباب هذا التقارب والتجاوب ذكاء الحسن الوزان، وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية، فهو موريسكي فتح عينيه في غرناطة التي كانت اللغة القشتالية الوثيقة الصلة باللاتينية منتشرة فيها، والكنائس بأساقفتها وطقوسها منبثة في جوانبها. ولا نظن إلاَّ أنه كان يتفاهم مع البابا بلغة أَعْجميَّة، ويقدر ظروف أسْرِهِ تقديراً موضوعياً، مدركاً أنه لا يمكن أن يعيش عيشة إسلامية في بؤرة المسيحية، فتظاهر بالتمسح وحمل اسم مالكه وحاميه البابا فصار يدعى (J. Leon) أو يوحنا الأسد الغرناطي أو الإفريقي، تستراً وعملاً بقول الله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلاَّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾. وعلى عكس ماذهب إليه بعض الباحثين من أن تحول الوزان إلى النصرانية بعد أن عمده البابا بنفسه ومنحه اسمه، كان بوازع من نفسه دون إجبار، ودَلَّلَ المعربان على استمرار إسلام الحسن الوزان وثبات عقيدته طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيراً في إيطاليا بأدلة من كتابه (وصف إفريقية) الذي ترجمه إلى الإيطالية بناءً على رغبة البابا، ومن ذلك الصبغة الإسلامية المتجلية في الكتاب، واهتمامه بالملامح الإسلامية في المدن والقرى التي زارها المؤلف، واعتزازه بالتعرف على حَمَلَةِ الشريعة الإسلامية من فقهاء وقضاة ومفتين، وكذلك من أن التواريخ المذكورة في (وصف إفريقية) كلها هجرية إلاَّ مرات نادرة ورد فيها التاريخ الميلادي، وهذا أمر أدرك دلالته المعلوف في روايته التي سنتحدث عنها، وأخيراً «تمسك الوزان باسمه الإسلامي رغم مرور سنين عديدة على أسره وتداول اسمه المسيحي، فهو حينما يوقع في نابولي أو روما أحد كتبه يقول: «العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطي، المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي..».

* * *

حياة الوزان في روما :

وكيفما كان الأمر فسرعان ما تأقلم الحسن الوزان، أو ليو الإفريقي مع البيئة الثقافية الجديدة. بداية في رعاية البابا ليو الذي توفي عام ١٥٢١م، ثم في كنف الكردينال (جيل دي فيطيرب Gilles de Viterbe) الذي كان معجباً به فعلمه اللغة العربية التي شرع في تدريسها للخاصة من رجال الكنيسة في روما ونابولي، ولعامة الطلبة في مدرسة بولونيا الشهيرة في عصر النهضة، وتمكن من إجادة الإيطالية واللاتينية فكتب بها في التاريخ والجغرافية واللغة وماله صلة بالمسلمين وأقطارهم، وللأسف فقد ضاع من ذلك الكثير، وبقي له معجم (مازال مخطوطاً) (عربي. عبري- لاتيني) ونشر له في(زيوريخ) عام ١٦٦٤م كتاب في التراجم باللاتينية عرّف فيه بثلاثين شخصية من فلاسفة العرب وأطبائهم، وانتهى من تأليفه عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م، إلاّ أن شهرته العالمية اعتمدت بشكل خاص على كتابه في (وصف إفريقية) الذي قام هو نفسه بترجمته من كتاب جغرافي كبير كان قد وضعه بالعربية.

* * *

وصف إفريقية :

كانت رحلات الحسن الوزان التي ألمحنا إلى بعضها وأخرى زار فيها الجزيرة العربية والعراق، وفاس وأرمينية وبلاد التتار، مشروعاً ضخماً في الجغرافية كان يخطط لتأليفه، ذلك أنه كان يسجل مشاهداته وانطباعاته في مذكرات تشبه اليوميات، ويبدو أنه بعد وقوعه في محنة الأسر قد اقتصر على كتابة رحلاته في إفريقية لتكون مادة كتابه مرجئاً بقية المشروع للمستقبل، ذاكراً « . . ولكن إذا ما وهبني الله عمراً فإني سأعمل على وصف المناطق الآسيوية التي ارتحلت إليها، وأن أصف الصحراء العربية السعيدة. . كما

أرجو أن أصف رحلاتي الأخيرة من فاس إلى القسطنطينية، ومنها إلى مصر، ومنها إلى إيطالية. . » ولا أحد يدري ما إذا كان قد فعل، ومن ثم يأتي اليوم الذي يعثر الباحثون عليه.

* * *

أما كتابه (وصف إفريقية) فلم يكن غريباً أن تلقفه علماء أوروبة بالاهتمام والتقدير ومن ثم نشره وشرحه وترجمته إلى معظم اللغات من عصر المؤلف حتى الآن، إلا أن الغريب حقاً ألاّ يظهر باللغة العربية إلاّ قبل عشر سنوات حينما توفرت له همة عالمين جليلين، هما الدكتوران محمد حجي، ومحمد الأخضر، فأعادا الكتاب إلى أصله العربي ونشراه في الرباط عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م في جزأين، ثم أعيد طبعه عام١٩٨٣م في تونس وبيروت في طبعة ثانية نفدت، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على طول الانتظار وكثرة المهتمين بمثل هذا الأثر الذي مازال له أشباه ونظائر كثيرة من تراثنا الفني مجهولة لدينا، معروفة ومترجمة في لغات الغرب. وليس من نافلة القول أو الاستطراد أن نذكر في ما نحن بصدده فضل السبق(لمجلة العربي) في المشرق بالتذكير والتنويه بالحسن الوزان وكتابه حين نشرت عنه مقالاً للمؤرخ المغربي المرحوم محمد عبد الله عنان (عدد ٤٣ عام١٩٦٢م). وبعد عشر سنوات نشرت للأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم مقالاً معنوناً (الحسن بن محمد الوزان رحالة عربي ومصنف فرَنجي) (عدد ١٦٣، يونيو١٩٧٣م) الذي حثّ في آخره على ضرورة توفر أحد الباحثين لتعريبه، وفي المقال ما يغنينا عن الكثير من التفصيل لمحتويات كتاب (وصف إفريقية) إذ اعتمد كاتبه على الترجمة الإنجليزية التي أصدر طبعتها الأولى بوري(Pory) عام١٦٠٠م بعنوان يوحي بأن الوزان– كما سبق أن أشرنا – قد ترجمها من العربية إلى الإيطالية، فقد جاء عنوان الترجمة الإنجليزية:

"A Geogrphical History of Africa,

Writhen in Arabicke and Italis"

أما وقد صدرت الترجمة العربية المنشودة فلم يبق إلاّ ذكر ماهو ضروري عن هذا الكتاب ونهاية صاحبه لنرى في الأخير ماذا صنع الأستاذ المعلوف حديثاً.

رغم ما يذكره بعض الباحثين من أن الحسن الوزان كان قد وضع كتاباً ضخماً باللغة العربية في(الجغرافية العامة) « اطلع عليه بعض مترجميه القدامى، إلاّ أنه ضاع ولم يبق منه غير القسم الثالث الذي ترجمه الوزان نفسه إلى اللغة الإيطالية، أو اعتمد عليه في كتابه وصف إفريقية»، وهذا ما ذهب إليه المعربان الفاضلان في مقدمتهما للترجمة العربية (ص١٣) فإن الأمر لايبعد أيضاً عما سبق أن ذكرنا من أن الرجل قد انتقى كتابه في وصف إفريقية من مادته الغزيرة المعتمدة على المشاهدة أو النقل عن بعض الجغرافيين والمؤرخين العرب المعروفين قبله، أو الاعتماد«على أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم». والتي كان يأمل ترتيبها وتصنيفها بحسب المواضيع أو الأقاليم التي زارها.

ولهذا فهو يذكر في المقدمة أنه بذل جهده « في جمع شتات هذه المادة وصياغتها في شكل كتاب، انتهيت من تدوينه أثناء وجودي في روما، وذلك في اليوم العاشر من شهر مارس عام ١٥٢٦ من ميلاد المسيح»، أي بعد نحو سبع سنوات من أسره واستقراره بروما.

قسم الوزان أو(جيوفاني ليوني) كتابه إلى تسعة أقسام، تحت كل قسم فصول يخص كل منها موضوعاً بشرياً أو طبيعياً، أو سياسياً (ممالك) بدءاً بالمناخ وخصائص الشعوب وحياتها وتجارتها ومدنها وأحداثها التي عاصرها. ونهاية (القسم التاسع) في الظواهر الجغرافية العامة لإفريقية (أنهارها وحيواناتها وطيورها ونباتاتها ومعادنها).

نشر الكتاب عن مخطوط المؤلف لأول مرة العالم الإيطالي(راميزو) سنة ١٥٥٠م بمدينة البندقية، كما ترجم إلى اللاتينية، وأعيد طبعه بها، وبالإيطالية عدة طبعات بين عامي١٥٥٦و ١٦٣٢م في عدة بلدان منها إيطالية وبلجيكة وسويسرة(زيوريخ)، وعن اللاتينية ترجم ونشر بالهولندية في أمستراداام عام ١٦٦٥م، وبالإنجليزية في لندن سنة١٦٠٠م، وأعيد طبعه سنة١٨٩٦م مع شروح كثيرة، أما الطبعة الألمانية المنشورة في هير بورن سنة١٨٠٥م فقد اعتمدت الطبعة الإيطالية الأصلية. وفي فرنسة نشر الكتاب في عدة طبعات وترجمات بدءاً من عام ١٥٥٦م وحتى قام حديثاً الطبيب الفرنسي إيبولار (A. Epoulard) سنة ١٩٤٩م بوضع ترجمة فرنسية حديثة، نشرها معهد الدراسات العليا بالرباط سنة١٩٥٦م في جزأين، وهي الترجمة التي اعتمدها الدكتوران محمد حجي ومحمد الأخضر في نشرتهما العربية الأولى والتي تعد(دار الغرب الإسلامي) طبعتها الثالثة الآن بعد نفاد طبعتها الثانية.

* * *

هروب الوزان وعودته إلى أهله ودينه:

أمضى الحسن الوزان في إيطالية ثلاثة عقود هي كهولته وبداية الشيخوخة، أجاد فيها عدة لغات، وتأثر بعصر النهضة والإحياء Renissance، وأثر في تلاميذه ومريدي الثقافة العربية الإسلامية التي رأى فيها رواد الإحياء والبعث جسراً حضارياً بين حضارات وثقافة أسلافهم اليونان والرومان، لكنه بالتأكيد رغم حسن الرعاية والاحترام وعلاقات الود والصداقة التي أقامها في بيئته الأوروبية المسيحية الجديدة، كان دائم التوق في الخلاص من واقع الرق وازدواجية الشخصية المفروضة عليه، وما هروبه في آخر الأمر إلاّ تأكيداً لذلك ورغبة ملحة في الرجوع إلى وطنه ودينه، وقد كان له، إذ إنه

اختفى من رومة «في ظروف غامضة حوالي عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م، والتحق بأقرب نقطة إليه في بلاد الإسلام، حيث عاد إلى حياته الإسلامية الأولى» وللأسف فإن أحداً لا يدري بعد ذلك هل بقي في تونس التي وصلها أم عاد إلى أهله في فاس، كما أن مكان وتاريخ وفاته مجهولان أيضاً، وقد ذكر بعض الباحثين أنه توفي في عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م، ومال معربا كتابه(وصف إفريقية) إلى القول إنه مات بعد سنة فراره، أما الأستاذ المعلوف فإن خياله لم يذهب بعيداً عن وصول الحسن الوزان إلى شط الأمان في تونس ليروي سيرته وما وقع له ولابنه كما سنرى.

* * *

رواية ليو الإفريقي:

في عام ١٩٨٦ صدر في باريس عن دار نشر Jen- Claude- lattes العمل الروائي البديع للأستاذ المعلوف، باسم محور الأحداث وبطلها (Leon L'African ليو الإفريقي) ولاقت الرواية اهتماماً في الأوساط الأدبية الفرنسية، كما أشادت الصفحات الأدبية بمضمون الرواية وجمال أسلوبها الذي وصفته (اللومند) بأنه «يتدفق حيوية ويهز المشاعر..» ووصفت مجلة أدبية ما عمله المعلوف « بنسج التاريخ في بساط أسطوري طائر..» وقد لقيت الترجمة الإنجليزية الرفيعة التي قام بها حديثاً المستشرق الدكتور (بيتر سلقلت Peter Sluglett) أستاذ التاريخ في جامعة درم Dueham البريطانية، الاهتمام نفسه في الصحافة البريطانية وملحقاتها الأدبية عقب صدورها عن دار(كورتر) Books Limited Quarter (لندن ١٩٨٨) في ٣٦٠ صفحة.

قسم المعلوف سيرة حياة (ليو الإفريقي Leo The African) كما تخيلها في روايته إلى أربعة فصول أو(كتب) كما أطلق عليها، أولها(كتاب غرناطة) حيث ولد

البطل ومنها مع أسرته هرب بعد السقوط حين كان طفلاً لم يتجاوز الثالثة من عمره، ويلي ذلك الفصل الثاني (كتاب فاس)، والثالث(كتاب القاهرة)، والأخير(كتاب روما). وليس لنا أن نتوقع أن الخيال الجميل الذي نسج منه المعلوف روايته قد التزم فيه صحة التفاصيل ودقة الحوادث كما حدثت في الواقع، فلو كان قد فعل لكانت روايته مجرد سرد تاريخي لا روح له ولا حياة فيه. ومع ذلك فقد حرص أن يضعها من أولها إلى آخرها في إطار تاريخي دقيق مسلسلاً فصولها في حوليات أولها عام(٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م) (وهو العام الذي اختاره مولداً للحسن الوزان في غرناطة) وفيه بعض الخلاف- كما أشرنا فيما تقدم- ونهاية بالحولية الأربعين (٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م) التي يسجل في أولها بطل الرواية أملاً وأسىً «. . وهكذا يحل العام الأربعون، كأمل أخير لنهاية اغترابي. . » إن حولية هذا العام الهجري تبدأ في (٨ أكتوبر سنة ١٥٢٦م وتنتهي في ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٧م) لهذا فقد كان من الصحيح تاريخياً أن تنتهي حولية السنة السابقة لها بفراغ (ليو) من اللمسات الأخيرة لكتابه (وصف إفريقية)، ومن ثم قراره -كما شاء له المؤلف- «أن يبدأ جدياً وبدون راحة» « لتسجيل حولياتي وماجريات ما وقع معي من حوادث. لقد كانت روما تذوي، وحياتي في إيطالية قاربت النهاية، ولم أكن أعلم متى سيكون لدي متسع من الوقت لأكتب ثانية. ».

لقد تحققت الأمنية بعد أن تمكن ليو الإفريقي من الهروب إلى مرفأ السلامة(تونس) ليروي لابنه عجائب حياته وغرائب مالقيه في رحلة أربعين عاماً، لم يعد له بعدها- وقد تحققت عودته إلى(الإسلام) - إلا نفس تواقة « إلى الدار الآخرة حيث لا غربة لمخلوق بين يدي خالقه » كما جاء على لسان الحسن الوزان في الكلمات الأخيرة من الرواية.

لقد نجح المعلوف بأسلوب أخاذ في رسم الصور المؤثرة واستخدام الديالوج (الحوار) الذاتي في تداعي الذكريات للتعبير عن مختلف الخوالج والمشاعر الإنسانية، ومن ذلك ما حدث للعرب المسلمين الفارين من المذابح ومحاكم التفتيش التي أعقبت

سقوط (غرناطة) مسقط رأس الحسن الوزان الذي كان يرى فيها«مدينة ليست كمدن الدنيا . . » والتي كان دائماً يسترجع ذكرى طفولته الأولى فيها بعد سنوات طوال .

أما (فاس) الملجأ الجديد للأسر الفارة من الأندلس ، ففيها ترعرع الحسن الوزان ، وعانى الكثير ، وشاهد التغيرات الطارئة ، وتكرر سماعه لأبيه عن الفردوس المفقود ، كيف لا وكبار العلماء والأعيان وغيرهم ممن لجأ إلى فاس وغيرها من مدن المغرب مازالوا يأتمرون ويتجمعون متطلعين إلى إخوانهم العرب والمسلمين أن يستنقذوا وطنهم السليب وما يعانيه من بقي هناك من مذلة وتنصير أو طرد وملاحقة ، وحين كان حسن في الحادية عشرة توجه خاله مع رسل آخرين حاملاً رسائل استغاثة من عِلْـيَةِ مجتمع غرناطة المقيمين في فاس موجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم (كسلطان تركية وحاكم فارس الجديد ، وسلطان مصر وغيرهم) .

وبين دموع الوداع أبلغ حسن خاله المسافر في مهمته الميئوس منها ، بأنه سيبدأ حياته في العمل كصبي في(الحمام) ليدخل على نفسه درهماً كل أسبوع . وتمر خمس سنوات فيها من مغامرات الطفولة والمراهقة والسفر القصير مع الأب لمساعدة المزارعين الأندلسيين اللاجئين ، حتى تبدأ الرحلة الأولى الطويلة التي يرافق فيها حسن خاله في مهمته لسلطان فاس ويعبر معه الأطلسي ، وفي هذه الرحلة تقدم إليه كهدية القينة الجميلة(هبة) ، وتتوالى رحلاته إلى الشرق كتاجر ومبعوث ، فيواجه أحداثاً ويجمع ثروة ، ويقع في غرام أميرات ، ويقابل أمراء وسلاطين ، حتى يقع في أسر القراصنة الصقليين ويحضر إلى البابا ليو العاشر الذي أحسن معاملته بعد معاناة الأسر والسجن وليعمده بعد أشهر ، فيندفع بحماس للمزيد من المعرفة التي كان يشعر من يوم لآخر بتناميها «ليس فقط في المواضيع التي كنت أدرسها بل بنفس القدر من اتصالي بأساتذتي وتلاميذي . . » وللمرة الأولى سمع من أحدهم مدى تنامي مرارة العداء الذي يكنه البابا ليو العاشر لمعاصره المصلح الألماني الراهب (مارتن لوثر M. Luther)

(١٤٨٣-١٥٤٦م) زعيم حركة الإصلاح (البروتستانتية)، وانفصاله عن الكنيسة وسلطة البابا، وذلك في عام١٥١٧م، وقد أكمل ليو الإفريقي تعليقه في حولية العام (٩٢٥هـ/ ١٥١٩م) على ما سمعه حول ذلك الحدث « . . من أنه بات تهديداً يعم كل أوروبة بالنار والدمار، والقادم على رومة بأعظم الخطوب» ويعود في حولية العام التالي ليناقش أفكار لوثر مستذكراً أحاديث نبوية حول معنى حركته، مقدراً في دخيلة نفسه فهمه لمثل هذه الأفكار الإصلاحية، لكنه لا ينكر فضل البابا ليو عليه، فقد منحه اسمه وحبه، وسرعان ماأسلم البابا الروح في ٢٦ يناير عام ١٥٢٠م، فكان ذلك كيوم الخلاص للحسن الوزان رغم حزنه الشديد عليه: « لقد باتت رومة بوفاة البابا سيئ الحظ هوة سحيقة إلى الجحيم بعد أن كانت بوابة إلى السماء !».

لقد أعاد المؤلف الحياة للعالم الذي خبره الحسن الوزان وتنقل فيه شرقاً وغرباً في فترة تاريخية هامة شهدت جملة من التحولات السياسية والفكرية والاقتصادية، وقد بث المؤلف حقائق تلك التحولات عبر فصول الرواية من دون فجاجة أو إقحام ممزوجة بحكايات الحب والمغامرات والذكريات، وسيطرت الروح الرومانتيكية التي أضفى عليها الكاتب بأسلوبه الجميل نوعاً من شفافية التصوف، وربما يفسر لنا هذا لماذا صدر روايته في أولها ببيت للشاعر البريطاني (الإيرلندي) الأصل (وليم بتلر يتس (W.B. Yeats ت١٩٣٩م يقول فيه ما معناه:

ليس هناك من شك، من أنني- أنا أيضاً- ذلك المسافر (الرحالة) ليو الإفريقي

"Yet do not doubt, the I am also
Leo Africanus the traveller"

لقد نزع (يتس) في شعره إلى التصوف والرومانتيكية، وتصدير المعلوف بهذا البيت له دلالته التي يؤكدها الاستهلال الذي شرع به في روايته، وهو إلى الشعر أقرب منه إلى النثر، عرف فيه الحسن الوزان (الراوي) بنفسه بكلمات تخاطب الإنسان أيّاً كان جنسه، أو دينه، أولغته، ومنه قد ندرك الروح والأسلوب الذي كتبت به الرواية:

«أنا حسن بن محمد الوزان، أنا جون ليون دي مديتشي، طهرت (ختنت) بيد بربري، وعمدت على يد (بابا) أدعى الآن بالإفريقي، مع أني لست من إفريقية ولا من أوروبة، ولا حتى من جزيرة العرب. إنني أعْرف أيضاً بالغرناطي، الفاسي، الزياني، بيد أني لم آت من بلد ولا مدينة، بل ولا من قبيلة (بعينها). أنا ابن السبيل، وطني القافلة وحياتي رحلات (بحرية) غير متوقعة. ولطالما تعودت ذراعي على معاطف الحرير ومخامل الصوف، ومصوغات الأمراء، وسلاسل العبيد. أما أصابعي فقد أماطت ألف خمار، ولثمت شفتاي ألف خدٍّ نَدِيّ، ورأت عيناي مدناً تذوي. ومما لك تختفي. من فمي - يا بني! - ستسمع العربية واللغات التركية والقشتالية والبربرية، والعبرية واللاتينية بل والإيطالية الدارجة، لأنها كلها وصلواتها ترجع إلي مع أنني لست منها كلها في شيء، فأنا عائد - فقط - إلى الله (سبحانه) وإلى الأرض التي منها وإليها سأعود آجلاً أو عاجلاً. بيد أنك - يابني! - ستمكث بعدي، حاملاً معك ذكراي، قارئاً كتبي، مسترجعاً مشاهد والدك وهو في زي نابولي، راكباً هذه السفينة المبحرة به صوب الشاطئ الإفريقي، كتاجر يراجع مع نفسه حساباته في نهاية رحلة طويلة.

غير أني بعد كل ذلك أسائل نفسي: ماذا ربحته وماذا خسرته؟ وما عساي أن أقوله للخالق الأعلى الذي منحني أربعين عاماً من الحياة؟، أفنيتها في رحلاتي التي ساقتني إلى رومة التي نضج فيها فكري، وإلى القاهرة حيث تأججت عاطفتي، وإلى فاس التي كان بها كمدي، أما براءة(طفولتي) فلازالت تترعرع هناك في غرناطة!».

ذلك هو الحسن الوزان، كما عرضناه قي الحقيقة، وفي خيال رواية الأديب، الكاتب المعلوف في ترجمتها الإنجليزية الممتازة، فعسى أن يطلع القارئ العربي - قريباً - على ترجمة[١] عربية رفيعة كما صاغها المؤلف في الفرنسية، ونجح الدكتور (سلقلت) في ترجمتها إلى الإنجليزية.

* * *

* *

(١) كان هذا قبل صدور ترجمة الدكتور دمشقية المشار إليها في التمهيد.

الفَصلُ الرّابع

أعلامٌ

يمنيُّونَ وأَصدِقاءُ لليَمن

الهمداني لسان اليمن
دراسات في ذكراه الألفية(*)

في عام ١٩٨١م أشرفت لجنة الهَمْداني على انعقاد الندوة العلمية العالمية، بمناسبة الذكرى الألفية للسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهَمْداني، شارك فيها كثيرون من المهتمين والمتخصصين والمستشرقين المرموقين. ومنذ عامين صدرت الأبحاث التي ألقيت في الندوة في كتاب بالعنوان المذكور، وفيما يلي عرض لهذا الكتاب .

أخيراً أصدرت «جامعة صنعاء» للعلماء والباحثين المهتمين بفكر علاَّمة العرب الكبير وتراثه في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد الحسن بن أحمد الهمداني، كتاباً مهماً عكف على تحريره ومراجعة طباعة فصوله المختلفة باللغتين العربية والإنجليزية الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد الله، أمين عام (لجنة الهمْداني) التي أعدت للندوة العلمية العالمية بمناسبة الذكرى الألفية(للسان اليمن) التي عقدت في جامعة صنعاء في (٢١-٢٧ ذي الحجة عام ١٤٠١هـ/ ١٩- ٢٥ أكتوبر عام ١٩٨١م)، وحضرها وشارك في محاوراتها عدد كبير من العلماء والمتخصصين العرب والمستشرقين المرموقين، ولاقت نجاحاً كبيراً لتوافر جهود كل المتخصصين في جامعة صنعاء وأعضاء اللجنة التي أولتها الدولة أيضاً اهتماماً خاصاً، فكان رئيسها الفخري نائب رئيس الجمهورية الأستاذ عبدالعزيز عبد الغني، ثم لتجمع ذلك العدد من الباحثين الذين كثيراً ما تاقوا إلى اللقاء في ندوة أو مؤتمر خاص بِعَلَمٍ شامخ كالهمداني، الذي لم يلق قبل تلك الندوة ما

(*) مجلة العربي العدد(٣٥٢) الصادر في مارس١٩٨٨م.

يستحقه من البحث والدراسة، لتعدد الجوانب والميادين التي أبدع فيها، وكان من أهم نتائج تلك الندوة وفؤائدها صدور البحوث والدراسات في هذا الكتاب القيم عن جامعة صنعاء بعنوان (الهَمْداني لسان اليمن: دراسات في ذكراه الألفية) تحرير الدكتور يوسف محمد عبد الله، وقد طبعته (دار التنوير للطباعة والنشر) بيروت: ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

* * *

تماثل واختلاف:

الكتاب- بعد مقدمة مدير الجامعة الشاعر الدكتور عبد العزيز المقالح وكلمات افتتاح الندوة- جاء في قسمين:

الأول: (الدراسات باللغة العربية) وفيه تسع دراسات أو فصول، أملت على المحرر طريقته (وهي المثلى) في ترتيبها على الحروف الهجائية وفق أوائل حروف أصحابها في أن تكون (ترجمة الهَمْداني) آخر تلك الفصول، التي تناول كل منها جانباً محدوداً من لسان اليمن، ولعل الأوجه أن تكون الترجمة هي أول الفصول تعريفاً ومدخلاً للكتاب، وبخاصة أنها كانت بقلم المحرر نفسه الذي التزم الطريقة أو المنهج، منعاً لأي حرج أو سوء فهم، لأنه هو المحرر، وقبل ذلك أو بعده، لم تكن تلك الترجمة المفيدة في الواقع مجرد تعريف تقليدي بصاحبها، بل كانت صياغة جديدة لحياة علامتنا الهمداني التي سنعرض لها فيما بعد.

أما **القسم الثاني**: فقد خصص للدراسات التي ستترجم إلى اللغة الإنجليزية ثلاثة عشر باحثاً، جلهم من المستَشْرقين والعُلماء الإخْصائيّين في الثقافة والحضارَة اليمنية القديمة والعَرَبية الإسْلاميّة، أمثال المرحوم العالم البروفسور سرجنت (ت: ١٩٩٣)،

والمرحوم البروفسور ألفرد بيستن (ت: ١٩٩٥)، وألبرت جام، والدكتور رايكمنز؛ والأساتذة الألمان مادلنج، ويوسف فان إس؛ والرّوسي بتروفسكي، والإنجليزي الدكتور روبرت ولسن، الذي نال درجة الدكتوراه بعد أن أمضى في اليمن بضع سنوات، متتبعاً في دراسته المهمة لأسماء الأماكن في صفة الجزيرة للهمْداني، وعن هذا الموضوع كان إسهامه في الكتاب.

لقد رجحت كفة فصول القسم الثاني على القسم الأول، وربما لو تمكن علاّمة الجزيرة الكبير الشيخ حمد الجاسر المختص بالهمداني وشيخ المؤرخين الدكتور جواد علي من الحضور والمساهمة، وكذلك لو كتب بالعربية البروفسور عباس الهمداني، نجل المرحوم المؤرخ حسين فيض الله الهمداني إسهامه القيم «الهمداني في بداية سلطة همدان على اليمن»، لكان القسمان مناصفة، بيد أن هذا الاستطراد لاعلاقة له بفحوى تلك الدراسات وأهميتها، فالقسم الثاني مكمل لدراسات القسم الأول، والعكس صحيح، ومن ذلك مثلاً ذلك المبحث الذي عقده الباحث العالم الدكتور محمد عبد القادر بافقيه عن (الهمداني والمثامنة) الذين « لايصلح الملك لمن ملك حمير إلا بهم . . . » يكمله من جانب آخر أول دراسة القسم الثاني للبروفسور بيستن عن(الهمداني والتبابعة)، والأمر نفسه مع فارق في التحليل والتوسع المرجعي في تناول الدكتور رضوان السيد لموضوع مهم شائك، طالما جرّ على صاحبه المحن والخطوب ذلك هو(القحطانية واليمانية عند الهمداني)، ففي القسم الثاني مبحث للمستشرق بيتروفسكي بعنوان (الهمداني والأخبار القحطانية). وتضفي دراسة الدكتور يوسف فان إس (أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة توبنجن الألمانية) المعنونة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر السياسي للهادي) أهمية خاصة في هذا القسم، لكونها دراسة في الفكر السياسي في العصر الذي نشأ فيه الهَمْداني وعاصر-صغيراً- تأسيس الهادي يحيى بن الحسن (ت٢٩٨هـ/ ٩١٠م) للمذهب الزيدي في اليمن، ثم محنته بالسجن أيام الناصر أحمد بن الهادي (ت٣٢٥هـ٩٣٧م) لوضعه كتابه المشهور(القصيدة الدامغة) التي عارض

بها قصيدة الكميت بن زيد الأسدي (ت ١٢٦هـ/ ٧٤٣م). وردّ فيها على من كانوا يتعصبون على قبائل اليمن.

ومثال أخير للتشابه والتكامل بين دراسات القسمين تلك الدراسات المتعلقة بأحد حقول الهمداني التي أبدع فيها - أعني (الجغرافيا) - ومن أحسنها بحث الدكتور عبد الله الشيبة عن (أهمية الهمداني للجغرافية التاريخية لليمن القديم) الذي استهله بقول المستشرق النمساوي شبرنجر(ت١٨٩٣م) قبل أكثر من قرن وربع قرن من أن «صفة الجزيرة إلى جانب كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي يعدان أهم عملين جغرافيين قدمهما العرب».

وقد عني بحث البروفسور فرنر مادلنج أستاذ الدراسات العربية بجامعة أكسفورد - في القسم الثاني- بما يمكن أن يكون توضيحاً لتلك العبارة التقريرية لشبرنجر في دراسته عن(معارف الهمداني الجغرافية في ضوء معارف القرنين الرابع والخامس الهجريين / الحادي عشر للميلاد)، فكتابه (صفة جزيرة العرب) الذي نشره المستشرق الألماني موللر قبل قرن (ليدن ١٨٨٤-١٨٩١م) أهم مصدر تاريخي جغرافي عن اليمن والجزيرة في القرون الإسلامية الأولى، كتب في ذروة ازدهار الأعمال الجغرافية العربية قبل(مسالك ابن حواقل)(ت٣٦٦هـ/ ٩٧٧م)، وأحسن التقاسيم(للمقدسي الذي توفي عام ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م).

وهكذا نجد أنّ مختلف فصول القسمين يكمل بعضها بعضاً، غير أن قيام جامعة صنعاء بنشر بحوث القسم الثاني باللغة الإنجليزية، «دون ترجمة أو تلخيص نابع من الحرص على التوثيق، ونقل الصورة كما كانت. والجامعة تنوي في الوقت القريب ترجمة هذه الأبحاث إلى اللغة العربية، ونشرها في كتاب مستقل» كما ذكر الدكتور المقالح في تقديمه، فلعلها تفعل ذلك قريباً وفي طبعة قادمة تحوي القسمين معاً، فتيسر

بذلك للباحثين والقراء العرب الاطلاع على أول دراسة شبه متكاملة عن لسان اليمن وأحد عباقرة العروبة والإسلام .

* * *

التعريف بالهمداني :

الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، أبو محمد، لسان اليمن، عالم، مؤرخ، جغرافي، فيلسوف، شاعر، سياسي، ولد بصنعاء في (١٩ صفر ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) وبها نشأ، طاف البلاد والجزيرة العربية، واستقر بمكة أكثر من ست سنوات حين كان في الخامسة والعشرين من عمره بغرض العلم والتحصيل، ورغم تعرضه « لأذى حرِّ مكة وهجيرها إلاّ أنها- فترة مكة- كانت من أخصب سني التحصيل لديه، حيث تفتحت له آفاق المعرفة، وانفتح له فيها باب نفيس من المنطق فازداد منه » ثم عاد إلى اليمن وبقي بصعدة، قاعدة أئمة الزيدية والمحطة الهامة على طريق التجارة الممتد من أقصى جنوب اليمن عبر مكة إلى بلاد الشام، وكان لاستقرار أوضاع صعدة السياسي والاقتصادي- بعكس صنعاء التي كانت نهباً لأكثر من قوة سياسية آنذاك-أهمية خاصة جعلتها «تستقطب كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء وطلاب العلم، وكذلك التجار من داخل اليمن وخارجه، فقامت فيها حركة أدبية وفكرية، وانتعشت فيها التجارة، فكان أن أفاد الهمداني من فنون العلم التي كانت تزخر بها، كما أسهم فيها بنصيب وافر، لاسيما في علوم الأخبار والأنساب والشعر . . » وهكذا مال الهمداني إلى الاستقرار بصعدة «وعمر فيها داراً وامتلك عقاراً واستطاب المقام بها »، كما ينقل لنا المحرر عن الهمداني .

بيد أن شخصية كالهمداني ماكان يمكنه أن يعيش خاملاً أو في دعة وسكينة، فقد قضى شبابه منذ استقر في صعدة ثم كهولته، ليس في محراب الفكر والتأليف فحسب،

بل كان له مع رجال عصره من حكام وأمراء وعلماء وشعراء شأن وأخبار وصراع كثير، بلغ ذروته بمحنته الكبرى بقيده وسجنه في قصر صنعاء على يد أميرها أسعد بن أبي يعفر الحوالي بأمر إمام صعدة الناصر أحمد بن الهادي يحيى بن الحسن، واستمر سجنه ومعاناته واحداً وعشرين شهراً و١٩ يوماً، بين ٢٤ شوال سنة ٣١٩ و٢٧ شعبان سنة ٣٢١هـ، لكنه «لم يبلغ مأمنه بعد إفلاته من حفظته في الطريق، ثم اختبائه إلاَّ في حوالي ١٧ ذي القعدة من عام ٣٢١هـ»، ويرجح بحق الدكتور يوسف محمد عبد الله أن مأمنه كان مدينة ريدة من بلاد قاع البون، على بعد ١٠٠كم شمال صنعاء، وفيها قضى الهمداني شيخوخته وبقية عمره (ص١٩٦)، عاكفاً على مؤلفاته وكتبه التي لم يصل إلينا إلاَّ بعضها، ومن الغريب أن يكون تاريخ وفاته غير معلوم على وجه اليقين، بيد أن التاريخ الشائع الذي ذكره صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، في كتابه (طبقات الأمم) وهو عام ٣٣٤هـ لم يعد صحيحاً، وقد سبق للمؤرخ المحقق القاضي محمد الأكوع أن نبه على ذلك، وهو ماناقشه العلامة حمد الجاسر في مقدمته النفيسة لطبعة الأكوع (صفة جزيرة العرب) عام ١٩٧٤م، وعاد إلى بحثه الدكتور يوسف عبد الله في آخر ترجمته للهمداني حيث رأى بعد عرضه لكل ما سبق من افتراضات وتخمينات «أنه عاش إلى مابعد ٣٣٤ وربما بعد ٣٣٦هـ بسنوات أيضاً، لكن ليس هناك دليل قاطع بذلك (الكتاب ص: ١٩٨). ولقد أفاد الدكتور يوسف كثيراً بترجمته الجديدة التي أعاد فيها صياغة المعلومات المبتورة عن حياة العلامة الكبير. مستفيداً بشكل خاص من المقالة العاشرة من كتاب (سرائر الحكمة) للهمداني المفقود التي نشرها العلامة الأكوع قبل نحو عشر سنوات، والتي أماطت اللثام عن معلومات وأخبار ذكرها الهمداني عن نفسه، بعضها في معرض وضعه تطبيقات لعلاقات البروج والقرانات الفلكية التي يتناولها في تلك الرسالة اليتيمة الهامة، كتحديده تاريخ مولده (الذي لم يكن معروفاً)، وذلك «. . . يوم الأربعاء ١٩ من صفر سنة ٢٨٠ لعشر ساعات مستوية من النهار . . . يكون

الطالع من الميزان أحد عشر جزءاً ونصفاً بالتقريب . . . » ثم يضيف في نص الرسالة تحقيق ما ظهر من دلائل الطالع ، وهو أن المولود يصاب بنكبتين عظيمتين من الأعداء ، ثم يؤرخ لإحداهما بيوم الثلاثاء ، يوم أحد عشر من رجب من سنة ٣١٥هـ، ولثانيتهما «بيوم الاثنين من شهر شوال سنة ٣١٩هـ» (ص١٨٧) ويذكر لنا الدكتور يوسف عبد الله في هذا الصدد أن الدكتور أوسكار لوفجرن أستاذ الدراسات السامية بجامعة أوبسالا السويدية قد نقل عن القاضي الأكوع التنويه بتاريخ ميلاد الهمداني ، لكن لم يتسن له الإفادة من المقالة المذكورة حين كتب مادة (الهمداني) في دائرة المعارف الإسلامية الإنجليزية . والدكتور لوفجرن قد ساهم في الواقع بدراسة في القسم الثاني من الكتاب بعنوان (اكتشافات لتراث الهمداني) .

* * *

الخسارة الفادحة :

إن الخسارة الفادحة في ضياع كثير من أعمال الهمداني لا يعادلها أي خسارة ، إلا ضياع أو فقد أعمال ومؤلفات لعظماء آخرين أمثاله من أعلام أمتنا الذين أسهموا ببناء ذلك النسيج الحضاري العربي الإسلامي المبدع الذي كان جسراً وضوءاً هادياً للإنسانية في طريقها إلى عصر النهضة عبر ظلمات الغرب فيما يسمى بالقرون الوسطى ، ولقد كان- ومازال الأمل قائماً عند الباحثين والعلماء- في العثور على بعض مؤلفات الهمداني المفقودة أو أجزاء منها ، وذلك على الرغم من أن مؤرخاً مثل القفطي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) قد أشار في (إنباه الرواة : ١/ ٢٨٣) وقبل قرابة ثمانية قرون إلى أنه من المتعذر وجود نسخة كاملة لأهم مؤلفات (لسان اليمن) ، كتاب (الإكليل) الذي يحتمل أن بعض أجزائه الستة المفقودة قد أحرقت من قبل بعض القبائل للمثالب

والخلافات القبلية التي أشرنا إلى بعضها، ومع ذلك فبعد العثور عليها ونشر الأجزاء الأربعة المعروفة (١و٢و٨و١٠) مازال أمل الباحثين والمهتمين في العثور على أي جزء من الأجزاء الأخرى قائماً، شأنها شأن بقية أعماله المفقودة.

* * *

لقد كان الهمداني أبرز رجال عصره في اليمن، وأحد عظماء العرب في ذروة الحضارة العربية الإسلامية، وقد نقل لنا المحقق القاضي محمد الأكوع في موضوعه عن(أوليات الهمداني التي انفرد بها) ماترجمه المؤرخ اليمني الكبير محمد بن الحسن الكلاعي الحميري(ت٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) الذي كان من الجيل التالي بعد الهمداني، وله كتب لايعلم بعد وجودها، مانصه:

«كان الحسن بن أحمد الهمداني الأوحد في عصره، الفاضل على من سبقه، المتبرز على من لحقه، الذي لم يولد باليمن مثله علماً وفهماً ولساناً، ورواية وإحاطة بعلوم العرب من النحو واللغة، والغريب والشعر، والأيام والأنساب، والسير والأخبار، والمناقب والمثالب، مع علوم العجم، والهندسة، والاستنباطات الفلسفية، والأحكام الفلكية»(ص: ١١١).

وحتى تكتمل صورة الهمداني في هذه العجالة نختمها بشهادة مستشرق عظيم عميق المعرفة، متعدد المواهب، هو العلامة الروسي كراتشكو فسكي/ ١٨٨٣-١٩٥١م الذي رسم لنا شخصية الهمداني « من وجهة نظر استشراقية محايدة» كما وصفها الدكتور المقالح في مقدمته المركزة، فقد جاء في كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب) لكراتشكوفسكي عن الهمداني:

«وفي مصنفاته ترتسم أمام ناظرينا شخصية فذة لوطني متحمس، بل خبير كبير

بأنساب العرب وتاريخ الجزيرة العربية نفسها، وبخاصة آثارها القديمة، وهو أمر نادر بين العرب، ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أنه استطاع فك رموز الكتابة العربية (الحميرية) القديمة في جنوب الجزيرة، ويقف مصنف الإكليل الذي يقع في عشرة أجزاء دليلاً ساطعاً على سعة معارفه، فقد أفرغ فيه جماع معرفته بالأنساب والتاريخ والآثار، بل حتى لأدب الحميريين سكّان الجزيرة في القدم. ولم يكتف في كتابه بعرض المادة الأسطورية التي تجمعت في الأدب العربي بعد الإسلام، بل بذل قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد، وذلك على ضوء دراسته للنقوش التاريخية».

ذلك هو لسان اليمن، في ذكراه الألفية التي يكون صحيحها بعد مرور ١١٢٥ عاماً من مولده أو ١٠٧١ عاماً -تقريباً- من تاريخ وفاته غير المؤكد.

* * *

* *

*

وفاة عَلَم من أعْلام اليَمن
أحمد بن أحمد الجرافي

تميزت فترة ما بعد الاستقلال الوطني عن الحكم العثماني بظهور عدد كبير من رجال العلم والإدارة والسياسة، وقد أسهم بعضهم في تأسيس حكم الإمام يحيى حميد الدين وإقامة نظامه الإداري والمالي الذي ورث الإدارة التركية في شمال اليمن بما كانت قد أوجدته من تقسيم إداري وقضائي ومراكز حكومية ونظام للجيش وغير ذلك مما لم يكن مألوفاً قبل عودة العثمانيين الأتراك إلى اليمن عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م وحتى مغادرتهم البلاد واستلام الإمام يحيى مقاليد الحكم في أعقاب الحرب الكونية الأولى.

ولقد أوجد الصراع مع العثمانيين من ناحية ومحاولة الاستفادة من طرقهم المتقدمة بالنسبة لليمن من ناحية أخرى، أوجد عند ذلك الجيل جلداً وتصميماً على الأخذ بأسباب المعرفة السلفية، ومحاولة تعلم العلوم التي أسس لها الأتراك مدرسة ومكتباً خاصاً بالكُتَّاب (السكرتارية) في صنعاء، بالإضافة إلى المدرسة العسكرية التي كان يرسل بعض نابغيها إلى اسطمبول للالتحاق بالأكاديمية العسكرية.

وكان علماء اليمن الكبار في مطلع القرن أمثال رئيس العلماء السيد أحمد بن أحمد الكبسي (ت١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)، والقاضي عبد الملك بن حسين الآنسي (ت١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)، ومفتي صنعاء العلامة محمد بن أحمد العراسي (ت ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م)، ثم الطبقة الثانية المعمرة أمثال شيخ الإسلام حسين بن علي العمري(ت١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م)، والعالم زيد بن علي الديلمي(ت١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م)

كانوا وغيرهم كثيرون يفخرون على الحكام الأتراك بأنه لا يوجد في عاصمة السلطنة من يجاريهم أو يبزهم في علوم اللغة والفقه والحديث وآداب العربية، وقد تتلمذ على أيديهم ثم التحق بمدارس الأتراك بعض أبنائهم وذهب آخرون إلى تركية سواء إلى مجلس المبعوثان أو لظروف أخرى، فزار الشام ومصر والحجاز، وهناك اطلع على الأفكار الجديدة كفكرة الدستور وأفكار التجديد التي مثلها الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م)، والشيخ محمد عبده(ت١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م)، والكواكبي (ت١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م)، وكان من هذا الجيل مفكرون وأدباء وعلماء وشعراء وساسة أصبحوا عمد الحركة الوطنية ووقود ثورة الدستور التي أطاحت بحكم الإمام يحيى حميد الدين عام١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م بعد أن كان معظم رجالها ممن عمل في ظله ويئس في أي إصلاح أو أمل في التغيير.

كان العالم الفقيه الإداري الحازم القاضي الصفي أحمد بن أحمد بن علي الجرافي المولود في صنعاء عام (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م) أحد أولئك الرجال القلائل الذين أنجبهم العقد الأول من الوجود العثماني، وإذْ توفي والده عام (١٣١٦هـ/ ١٨٩٧م) شاباً لم يتجاوز السادسة والثلاثين فقد نشأ يتيماً عصامياً رعته والدته التي كانت على درجة من الفضل والعلم، ولم يطلع على علم والده الغزير، لكنه ورث بعض الرسائل والكتابات ولحق أثره في الفضل والاستقامة، وتتلمذ على شيوخ والده ومعاصريه المشهورين كعالم السنة شيخ الإسلام الحسين بن علي العمري الذي أجازه في كثير من مسموعه ومقروئه، والعلامة علي بن حسين المغربي (ت١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) وله منه إجازة، والعلامة لطف ابن محمد شاكر(ت١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) والعلامة المعمر محمد بن قاسم الظفري (ت١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م)، وغيرهم من رجال العصر وأعلامه. وكان قبل ذلك رحل إلى الأهنوم لطلب العلم في سنة (١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م) وهو في الثالثة عشرة من عمره.

وقع الإمام يحيى صلح دعان مع الأتراك عام(١٣٢٩هـ/ ١٩١١م) وحق له تعيين الحكام والقضاة، فكان أول عمل التحق به الصفي هو الكتابة في محكمة صنعاء عام(١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م)، حيث عمل بها مع العلامة الحاكم الشهير زيد بن علي الديلمي الذي تعين بعد ذلك في رئاسة المحكمة الاستئنائية العليا عام(١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م) [١].

وبعد سبع سنوات من تجارب العمل في القضاء، تم تعيين العالم الجرافي عاملاً وحاكماً على قضاء آنس في عام١٣٣٧هـ، حيث أمضى خمسة عشر عاماً كان فيها مثالاً للحزم وحسن الإدارة وعدالة الحكم، وقد ذكر المؤرخ الكبير العلامة القاضي محمد بن علي الأكوع في مرثيته[٢] للمغفور له « أن المشائخ كانوا متسلطين على قضاء آنس، وكان على رأسهم الشيخ (ناصر الدين) علي المقداد الذي حارب الأتراك بشراسة، فمنحه الإمام يحيى هذا اللقب، فضاق الإمام ذرعاً، وأوعز للمولى الوالد الصفي أن يقلم أظافره ويقلل من شأنه، فما كان من المولى الصفي إلا أن زحلق ناصر الدين بطريقته الخاصة وحنكته السياسية، فسل سيفه وجرده من كل معنوياته دون أن يشعره بالألم أو الوجع. وفي خلال إدارة أعمال قضاء آنس أودع إليه إصلاح قضاء(ريمة) فسار إليه، فأصلح من شأنه، ورأب الصدع، ورتق الخرق، ووفر الواجبات التي كانت تهم الإمام يحيى دون أن يمس الظلم المواطنين، وقد عين بعد ذلك على أعمال بلاد البستان، فمثل العدل والرفق أكبر تمثيل».

اشتهر الفقيد بالحزم والعدالة، وله مواقف مشهورة منها: حُكْمُهُ على الإمام يحيى حميد الدين نفسه لصالح أسرة متواضعة، فقد اختلفت (بيت عنقاد) مع الإمام على

---

(١) كان شيخ الإسلام القاضي حسين بن علي العمري أول رئيس للاستئناف بعد دخول الإمام يحيى صنعاء حتى استقال بعد سنة وتفرغ للتدريس فخلفه عام(١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) العلامة محمد بن زيد الحوثي الذي توفي في العام التالي.

(٢) صحيفة الثورة يوم الجمعة٢٦/ ٧/ ١٩٨٥م.

حقوق في(غيل الآف) وقد تبين أحقية بيت عنقاد، فلم يتردد الجرافي من الحكم على الإمام وشاركه العلامة المعمر الحاكم قاسم بن ابراهيم.

استمر القاضي الصفي الجرافي متقلباً في أعمال الإدارة والقضاء حتى كانت ثورة الدستور في عام(١٣٦٧هـ/١٩٤٨م) فكان كغيره من كبار العلماء والوطنيين من المؤيدين لها، وقد عين في حكومتها وزيراً للاقتصاد والمناجم، ولما فشلت الثورة بعد ثلاثة أسابيع كان فيمن نقل من صنعاء مغلولاً إلى سجن حجة، لكنه هناك وتحت وهج الشمس وشدة الأغلال لم يخف سيف الطاغية المنتصر أحمد، فكان له معه موقف شجاع معروف ننقل وصفه عن شاهد شريك في الثورة والوقوع قيد الأصفاد والسجن، هو السياسي الأديب الشاعر أحمد بن محمد الشامي الذي كتب يقول:

«عندما أنزلوهم في ساحة قصر سعدان، والمغالق على أكفهم، والقيود في أقدامهم، والسلاسل في أعناقهم، فجأة ثارت النخوة والشجاعة في القاضي أحمد الجرافي، وقال مخاطباً القاضي عبد الله الشامي الذي كان يطوف علينا ولم يدر أن مصيره السحل أو الإعدام، وبأمر من إمامه أحمد في يوم من الأيام، قال القاضي أحمد الجرافي: يا عبد الله الشامي اطلع إلى صاحبك وقل له يتق الله فينا وإن لم فليتق مسئولية التاريخ، وليكن إنساناً، فإما عاملنا معاملة الملوك الجبارين وأمر بقطع رؤوسنا واستراح وأراح وإلا عاملنا معاملة أئمة العدل وعفا وسامح، أو قاضي وحاكم، أما هذه المعاملة فليست معاملة ملوك ولا أئمة»[1].

وإذ لم يطل السجن بالعلامة الجرافي كغيره ممن استمر طويلاً فبعد خروجه تعين بالديوان، ولم يتحمل الإمام أحمد صراحته فعينه عضواً في المحكمة العليا للاستئناف، ولم يستغن الإمام أحمد عن حنكته وقدراته فعينه بعد انقلاب ١٩٥٥م عاملاً(محافظاً)

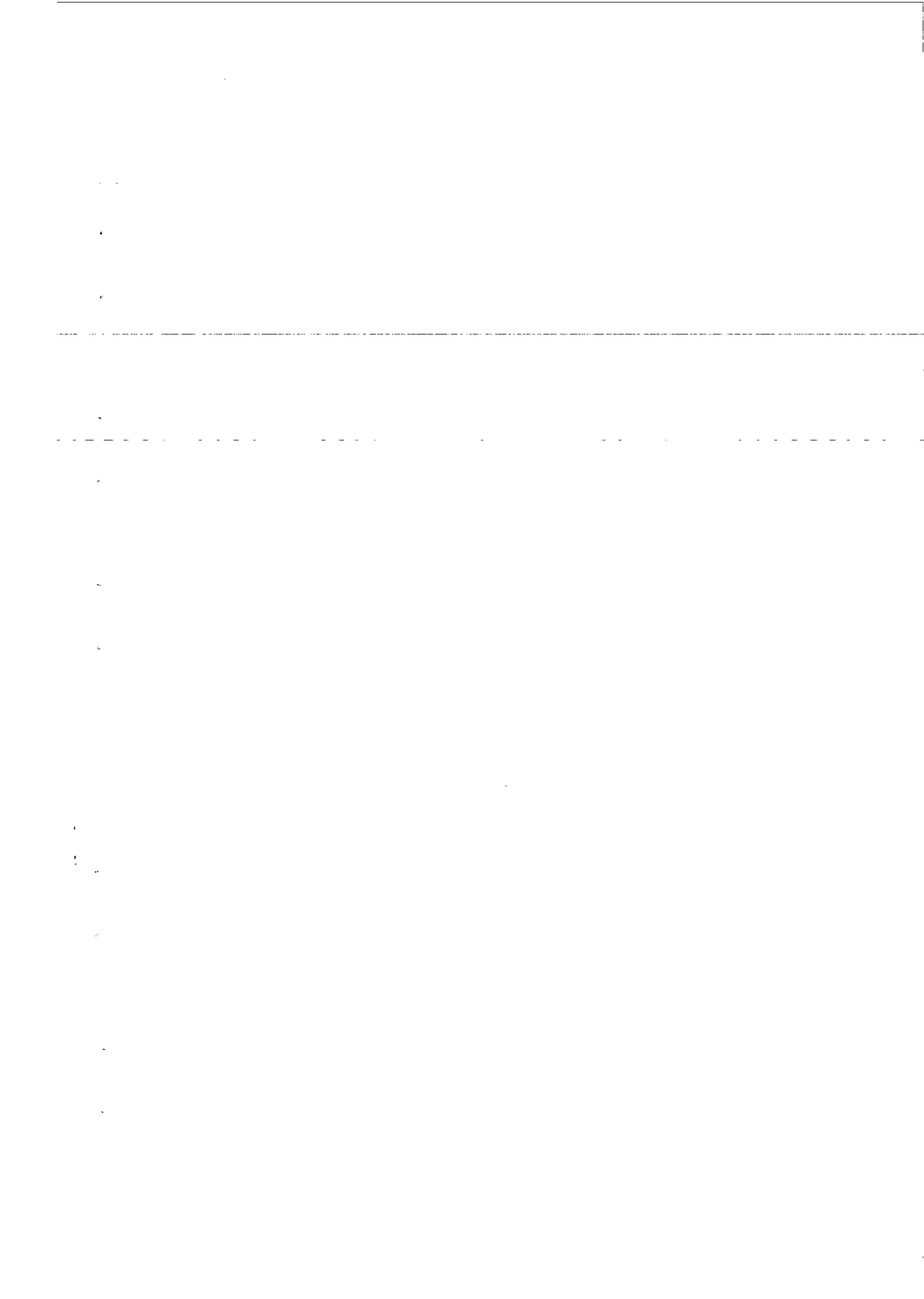
(١) أحمد محمد الشامي: رياح التغيير في اليمن: ص(٣٤٥).

لصنعاء فأثبت جدارة وقدرة أقلقت الإمام، فعينه وزيراً للعدل حيث لم يكن في الواقع للعـدل وزارة بل كـان منصـبـاً شـرفـيّاً اسـتـمـر فـيـه حـتى قـامت الثـورة في عام(١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م) فكرمته الثورة بأن يكون مستشاراً لوزارة الداخلية، وبعد ذلك عين محافظاً للواء صعدة ، لكن سنه كانت قد قاربت العقد الثامن، فلم يتسلم العمل، واستمر شخصية مبجلة محبوبة في مختلف الأوساط، لها زادٌ من الحكمة والمعرفة والدراية لمن عاش ودرس ومارس وأثر قرناً إلا عامين من تاريخ اليمن، كان خلاله أحد العاملين المخلصين، ولم يغادر عالمنا إلى الرفيق الأعلى في يوم الجمعة ٢ذي القعدة عام ١٤٠٥هـ/ ١٩ يوليو ١٩٨٥م إلا وقد مضت ثلاثة عقود على الأقل منذ عرف الناس شخصيات وطنية بارزة ومتفردة بعلمها وفضلها وعلو كعبها تمثلت في أنجاله العالمين القاضي إسماعيل بن أحمد وأخيه محمد بن أحمد، ومعهما شقيقهما الأصغر الدبلوماسي الإداري الأستاذ علي بن أحمد الجرافي، وعشرات بل مئات من التلاميذ المتخذين من الأسوة الحسنة مثالاً فاضلاً يحتذى.

* * *

* *

*



الشـــوكاني
العلاّمة الإمام[1]

الإمام محمد بن علي الشَّوكاني الصنعاني، علم من أعلام الفقه والفكر والمعرفة في اليمن، فهو علاَّمة، فقيه، أصولي، مُحدّث، مُفَسّر، مُحقق، نَاقِدٌ، لغوي، مؤرخ، أديب، قاضٍ، مصلح، سياسي.

نعم! هو هذا كله، وقد عَرَفَهُ العالم العربي والإسلامي بكتبه المشهورة مثل: (السيل الجرار) في الفقه، (إرشاد الفحول) في أصول الفقه، (فتح القدير) في التفسير (نيل الأوطار)، و (الفوائد المجموعة)، و(تحفة الذاكرين) في الحديث، و(القول المفيد في الاجتهاد والتقليد)، و(دَرّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة)، و(البدر الطالع) في التاريخ والتراجم، و(أدب الطلب) في التربية ومنهج المعرفة، و(إتحاف الأكابر) في شيوخه ومروياته لأكثر من خمسمئة شيخ وكاتب، وديوان شعره (أسلاك الجَوْهَر).. إلى غير ذلك مما طبع أو مازال مخطوطاً وهو ما يربو على مئة كتاب ورسالة[2] لا مجال ههنا لبسطها أو حتى الحديث عنها.

---

(١) أُعد هذا البحث ليضمن في المجلد الكبير الذي عنوانه (٣٠٠٠ عام من الحضارة والفن في اليمن) وأعده محرره الدكتور دوم Dr. W. Doum لإصداره باللغة العربية في مطلع عام١٩٩٥م بعد صدوره بنفس العنوان باللغتين الألمانية والإنجليزية، وساهم فيه أكثر من٣٥ عالماً ومختصاً من العرب والمستعربين.

(٢) انظر كتابنا (الإمام الشوكاني رائد عصره، دراسة في فقهه وفكره) دار الفكر - دمشق، دار الفكر المعاصر - بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م راجع مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن للأستاذ عبد الله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء ١٩٧٨م.

ولد الشوكاني في مسقط رأس أبيه (شَوْكَان) من قرى خولان على بعد نحو ٤٠ ميلاً جنوب شرق صنعاء، في ٢٨ شهر ذي القعدة عام١١٧٣هـ/ ١١يوليو عام١٧٦٠م، من أسرة اشتهرت بالعلم والقضاء. ونشأ في صنعاء حيث كان والده يعمل فيها قاضياً ومفتياً وعرف بغزارة علمه، وبرع في الفقه والتفسير وعلوم اللغة وصَنّف في ذلك كتباً، وكان المدرسة الأولى لابنه الذي سرعان ماختم القرآن الكريم وحفظ المتون والمختصرات، والمنظومات، بل وقرأ على شيوخ كبار كتباً في اللغة والفقه والمنطق، كتهذيب التفتازاني والتلخيص للقزويني والغاية للحسين بن القاسم وأدب البحث ورسالة الوضع للعضد، بالإضافة إلى ماشتهر من كتب الزيدية وهو لما يزل حدث السن لم يشرع في الطلب بل كان صبياً في (المكتب) أو (الكتاب) [1].

وكانت صنعاء في وقته هذا زاخرة بالعلماء والأدباء والشعراء، وكان أعلام العصر كثيرين، أشهرهم العلامة ابن الأمير (ت١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م) صاحب(سبل السلام) و(منحة الغفار) وغير ذلك مما اشتهر له، والعلامة عبد القادر بن أحمد (١١٣٥-١٢٠٧هـ/ ١٧٢٣-١٧٩٢م) أحد أبرز شيوخ [2] الشوكاني، وقد أخذ عنه وعمن في طبقته- وهم كثيرون- أمهات الكتب « قراءة تمحيص وتحقيق في فنون مختلفة من الفقه والحديث واللغة والتفسير والأدب والمنطق». وكان جل هذه الفنون- بل وما يزال- الزاد العلمي والثقافي لطلاب العلوم العربية والإسلامية في أي جامعة إسلامية في ذلك الحين، وقد استغرق وحده في مطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب وكل ما كان معروفاً في فنون المعرفة [3].

ولم يكتف هذا الطالب المجد الألمعي بل والمجتهد بتلقي الدروس على المشائخ، بل كان يدرسها لزملائه الطلبة، وكانت تبلغ دروسه في اليوم والليلة نحو ثلاثة عشر

(١) الشوكاني: البدر الطالع٢/ ٢١٥.

(٢) العمري: الإمام الشوكاني رائد عصره: ٣١-٤٠، البدر الطالع: ١/ ٣٦٣-٣٦٥.

(٣) البدر الطالع: ٢/ ٢١٥-٢١٩.

درساً، منها ما يأخذه عن مشائخه، ومنها ما يأخذه عنه تلامذته. واستمر على ذلك مدة حتى لم يبق عند أحد من شيوخه ما لم يكن من جملة ما قد قرأه، كما حدث هو عن نفسه[1]. وبعد طول معاناة وتبحر وتحقيق، فرَّغ نفسه لإفادة الطلبة، فكان يدرس ما يزيد عن عشرة دروس في اليوم في فنون متعددة، يجتمع منها في بعض الأوقات التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والفقه والجدل والعروض. وكان أيام قرآءته على شيوخه وإقرائه تلامذته يُفتي أهل مدينة صنعاء، فذاع صيته وراحت الفتاوى تردعليه من مختلف أرجاء البلاد وشيوخه أحياء، وكادت الفتيا تدور عليه وهو في كل ذلك لم يجاوز العشرين من عمره، ورغم أن العلماء كانوا يفتون بأجر، أما الشوكاني فلم يكن يأخذ على الفُتيا والتدريس شيئاً تنزهاً منه، فإذا عوتب في ذلك قال: «أنا أخذت العلم بلاثمن فأريد إنفاقه كذلك!»[2].

وهكذا استمر الشوكاني في انتظامه في سلك المزيد من المعرفة والعلم، فأكب على علوم الاجتهاد تحقيقاً وتدريساً، وشرع في أوائل العقد الثالث من عمره في كتابة مؤلفاته التي أشرنا إلى بعضها في مطلع حديثنا هذا؛ وبات حديث الناس يتتلمذون عليه ويستفتونه، والعلماء يجلونه ويباحثونه، والأدباء والشعراء يجالسونه ويتبادلون معه الرسائل ويطارحونه الشعر[3].

وأدرك الشوكاني بعلمه واعترافه بالحق وتحليه بما نسميه الآن بالموضوعية مايعنيه التعصب الأعمى لفكر أو مذهب أو رأي للباحث وطالب المعرفة، فكتب يقول: «.. وإني لأعجب من رجل يدعي الإنصاف والمحبة للعلم، ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم لا يدري به ولا يعرف موضوعه، ولاغايته ولا فائدته، ولايتصوره

(١) البدر الطالع: ٢/ ٢١٨.

(٢) نفسه: ٢/ ٢١٩.

(٣) راجع ديوانه (أسلاك الجوهر) بتحقيق الكاتب، دار الفكر، دمشق(ط ٢) ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

بوجه من الوجوه وقد رأينا كثيراً ممن عاصَرَنا ورأيناه يشتغل بالعلم وينصف في مسائل الشرع، ويقتدي بالدليل، فإذا سمع مسألة من الفنون التي لا يعرفها كعلم المنطق والكلام والهيئة ونحو ذلك ونفر عنه غيره، وهو لا يدري ما تلك المسألة ولا يعقلها قط ولا يفهم شيئاً منها، فما أحق من كان هكذا بالسكوت، والاعتراف بالقصور، والوقوف حيث أوقفه الله، والتمسك في الجواب إذا سئل عن ذلك بقوله: لا أدري!»[1].

بلغ الشوكاني السادسة والثلاثين وهو غارق في علومه وبين طُلاّبه وأهل العلم لا يتصل بأحد غيرهم خاصة من يسميهم«أهل الأمر وأرباب الدولة» ولكن شهرته قد عمت الأوساط العلمية والأدبية.

عاصر الإمام الشوكاني حاكم اليمن الإمام المنصور علي الذي كان قد مضى له في الحكم عشرون عاماً.. وفي عام١٢٠٩هـ - ١٧٩٥م توفي قاضي قضاة المنصور العلامة يحيى السحولي، فوقع اختيار المنصور على الشوكاني ليتولى هذا المنصب الخطير الذي يعتبر بعد مرتبة الإمام في الأهمية، ولم يكن الشوكاني قد زاول عمل القضاء كأبيه أو أسرته من قبل.. كما أنه كان عازفاً كل العزوف عن هذا المنصب أو غيره، وبعد إلحاح ومراسلات من مختلف علماء اليمن «الذين أجمعوا على أن الإجابة واجبة. وأنهم يخشون أن يدخل في هذا المنصب الذي إليه مرجع الأحكام الشرعية في جميع أقطار اليمن من لا يوثق بدينه وعلمه..» وقَبِل بعد طول ترددٍ، وتحمل أعباء ذلك المنصب الكبير، ورغم أنه لم ينقطع عن القرآءة والتدريس وإكمال ما كان قد شرع في تأليفه، إلا أن ذهنه انشغل شُغْلَة كبيرة، وتكدر خاطره تكدراً زايداً، كما وصف حاله بعد ذلك ببضع سنين.

---

(١) الشوكاني: أدب الطلب.

بقي الشوكاني في منصبه نحو خمسةٍ وأربعين عاماً حتى وفاته، ونهض في ذلك بدور إصلاحي كبير، وكان لمكانته ومركزه جلال وقدر عند الأئمة الثلاثة الذين عاصرهم(١) وكذلك عند العلماء وعامة الناس.

وقد انشغل تفكيره ووقته بقضايا كثيرة غير التأليف ومشاغل القضاء، من ذلك مسألة الاجتهاد والتقليد التي وقف عليها الكثير من الوقت والجهد، وأصبحت إحدى القضايا التي سخَّر لها قلمه وعلمه، فالتقليد المذهبي حَجَر الفكر الإسلامي منذ القرن الخامس عن المزيد من النظر والتفتح، وأعلن أنّ باب الاجتهاد قد أقفل بعد الأوائل من عظماء الأمة، ولهذا نجد الشوكاني يصرح في وجه القائلين بهذا بأنه «لما شاع على ألسن جماعة من اختصاص سلف هذه الأمّة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها، وحتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تَعَذُّر وجود مجتهد بعد المئة السادسة، كما نقل عن البعض، أو بعد المئة السابعة كما زعمه آخرون، وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم، وأنزر نصيب من عرفان، وأحقر حصة من فهم، لأنها قصر للتفضل الإلهي والفيض الرباني على بعض العباد دون بعض، وعلى أهل عصر دون عصر وأبناء دهر، من دون برهان ولا قرآن. على أن هذه المقالة المخذولة والحكاية المرذولة تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة عن قائم بحجج الله، ومترجم عن كتابه وسنة رسوله، ومبين لما شرعه لعباده، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مريَّة، وذهاب الدين بلا شك، وهو تعالى قد تكفل بحفظ دينه، وليس المراد حفظه في بطون الصحف والدفاتر، بل إيجاد من يبيّنه للناس في كل وقت وعند كل حاجة».

وقد حدا ذلك بالإمام الشوكاني إلى أن يضع كتابه الحفيل (البدر الطالع) وهو في تراجم أكابر علماء القرن الثامن حتى عصره القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر

---

(١) أعني المنصور علي (ت ١٢٢٤هـ ١٨٠٨م) والمتوكل أحمد (ت ١٢٣١هـ ١٨١٦م) والمهدي عبد الله (١٢٥٠هـ-١٨٣٤م).

للميلاد ليثبت به ما ذهب إليه من « أن الله وله المنَّة قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف، بل وربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة، كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب، وحَلّ عن عنقه عرف التقليد... »[1].

وحتى يدعم الشوكاني آراءه في ضرورة الاجتهاد وعدم التقليد الأعمى القائم على الجهل والمثبط للهمم والتفكير فقد كتب كتابه المختصر الذي سماه (القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد) وغير ذلك من الكتابات، وقد ذهب فيه مذاهب شتى من تكرار الآيات القرآنية الكريمة الداعية إلى التأمل والتفكير، والأحاديث النبوية الشريفة المؤكدة أن «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» مؤكداً بعد ذلك أن العلماء والأئمة الأربعة بشكل خاص إنما أرشدوا غيرهم إلى ترك تقليدهم ونهوا عن ذلك، ونقل عن ابن الجوزي قول أبي حنيفة وأبي يوسف أنهما قالا « لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه» وفي رأي الشوكاني أن هذا تصريح بمنع التقليد؛ لأن من علم بالدليل فهو مجتهد ومطالب بالحجة لا مقلد، لأن المقلد هو الذي يقبل القول ولا يطالب بحجة، ونقل خبراً لابن عبد البر أن مالكاً كان يقول: « إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل مالم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه» وتتبع الإمام الشوكاني سند بن عنان المالكي في شرحه على (مدونة) سحنون المعروفة (بالأم) ما يدعم الدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، وكذلك فعل مع أصول الإمام الشافعي وغيره من الأئمة.

ورغم أن الإمام الشوكاني ينطلق في الأساس من المبادئ والقواعد الأصولية للمذهب الزيدي والداعية إلى الاجتهاد مقتفياً في ذلك سَنَن أعلام كبار سبقوه كالعلامة

---

(١) مقدمة البدر الطالع.

الحسن بن أحمد الجلال (ت١٠٨٤هـ/ ١٦٧٣م) والعلامة المقبلي (ت١١٠٨هـ/ ١٧٢٨م) صاحب (العلم الشامخ) المطبوع في مطبعة مجلة المنار بالقاهرة في عشرينات هذا القرن، و(المنار) المطبوع حديثاً، وسلفه ابن الأمير وغيرهم، إلا أنه كان أبعد منهم نظراً في موضوع الاجتهاد وأكثر تفصيلاً وتبنياً للموضوع حتى أصبح بالنسبة له رسالة أثرت في العالم الإسلامي ووصل صداها إلى الهند وإلى مصر، فوسع من الفكرة وكتب عنها الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه الأستاذ محمد رشيد رضا الذي نبه على قيمتها وأشاد بالإمام الشوكاني في مجلته (المنار).

وعلينا ألا نتصور أن الرجل قد قوبلت أفكاره وآراؤه بترحاب في الأوساط اليمنية، فرغم مركزه ومكانته فقد لاقى الكثير من تَعصُّب وعَنَت المتزمتين والمقلدين وهم من غلاة الشيعة أو جهلاء المتفقهين، ومع ذلك فلنسمع رأيه فيما صَبُّوا عليه من نقد ولفقوا له من تهم، يقول:

«كنت أتصور في نفسي أن هؤلاء الذين يتعصبون عليّ ويشغلون نفسهم بذكري والحطّ عليّ أحد رجلين: إمّا جاهل لا يدري أنه جاهل، ولا يهتدي بالهدى، ولا يعرف الصواب، وهذا لا يُعبد الله به، أو رجل متميز له حظ من علم وحصة من فهم لكنه قد أعمى بصيرته الحسد وذهب بإنصافه حُبُّ الجاه، وهذا لا ينجع فيه الدواء، ولاتنفع عنده المحاسنة، ولا يؤثر فيه شيء، فما زلت على ذلك وأنا أجد المنفعة بما يصنعونه أكثر من المضرة، والمصلحة العائدة على ماأنا فيه بما هم فيه أكثر من المفسدة»[(1)].

وقد رأى الشوكاني في الشعر وسيلة أكثر ذيوعاً وتأثيراً ليعبر بها عن فكره فنظم في ذلك مقرراً ومفلسفاً يقول[(2)]:

---

(١) الشوكاني: أدب الطلب.

(٢) ديوانه: ص٩٧.

فــلا خــيــر في علـم يضل عـن الهــدى ويجــذب أهليـــه إلى العـــصـــبـــيّةِ

وفي الجـهل عن بعض المعـارف راحـةٌ إذا لـم تَقُدْ أربابهــا نحــو نصـــفــةِ

وأمر آخر اهتم به الإمام الشوكاني وبذل فيه جهداً كبيراً ذلك هو أمر العدالة في الحكم ونفي الظلم أو الجَور سواء في إصدار الأحكام أو أخذ الضرائب من الشعب دون وجه حق. . ولهذا فقد واجه الإمام المنصور الذي كان يواجه خطراً خارجياً بقوله: « إنه ما يدفع عن البلاد مثل هذه النازلة إلا العدل في الرعية والاقتصار في المأخوذ منهم على ماورد به الشرع وعدم مجاوزته في شيء، وإخلاص النية في ذلك، وإشعار الرعية في جميع الأقطار والعزم عليه على الاستمرار، فإن ذلك من الأسباب التي تدفع كل الدفع، وتنجع أبلغ النجع. . ».

وقد نجح الشوكاني لبعض الوقت في التوجيه في هذه الطريق، حتى تمكن من استصدار مرسوم من الإمام (نحسبه أول مرسوم رسمي يعمم على الشعب بمفهوم العدل وتحديد الضرائب التي كانت تثقل كاهل الفلاحين والمزارعين)[1]، وقد أوضح ماعانى من ذلك فقال:

«لم أزل منذ اتصلت بخليفة عصرنا- حفظه الله- مُرغباً له في العدل في الرعية على الوجه الذي ورد الشرع به، ورفع المظالم المخالفة لقطعيات الشريعة كالمكْسِ ونحوه، والاقتصار على ماورد به الشرع وعدم مجاوزته في شيء، فألهمه الله سبحانه الإجابة إلى ذلك بعد طول مداراةٍ وترغيب. . »[2].

---

(١) انظر نص المرسوم في الملحق (٤) من كتابنا (الإمام الشوكاني رائد عصره. .) ص: ٤٦٣ وراجع في الموضوع(ص: ١١٨-١٢٧ من نفس الكتاب).

(٢) الإمام الشوكاني رائد عصره: ص١١٨.

لقد كان الإمام الشوكاني متعدد الفنون من العلم كثير المواهب غزير المعرفة والإنتاج، ونحن هنا لم نتعرض إلا إلى الجانب العام لشخصية هذا العلامة الكبير الذي أجمل أهدافه وآماله حين أنشد راجزاً[1]:

أريد نشـــــرَ السُّنَنِ — في كل قطر اليــــمنِ

والعـــدلَ في الرعـــية — والحكمَ بالســـوِيَّة

ومـــحـــوَ آثار البـــدع — وهتك أســـتـــار الشنع

وبعـــد هذا الجنـه — تـفـــضُّلاً ومـنَّه

ومات في صنعاء عام ١٢٥٠هـ-١٨٣٤م؛ وكان آخر عظماء عصره، وفي العام الثاني مات الإمام المهدي عبد الله ثالث حاكم عمل معه الشوكاني قاضياً، وبعد قليل عاد العثمانيون الأتراك لحكم اليمن؛ واحتل الإنجليز جنوب البلاد عام١٢٥٥هـ-١٨٣٩م.

وبذلك دخلت اليمن في فترة حالكة وصعبة، لم تنجب خلالها عظيماً كالإمام الشوكاني. . لكن فكر الرجل وفقهه بقيا مناراً للأجيال، ولبنة متماسكة في صرح الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة.

* * *

* *

*

(١) ديوانه: ص٣٥٠.

رحيل العلامة المستشرق الكبير
روبِرت سرجنت[1] (١٩١٥-١٩٩٣)

حين شرعت الطائرة تجثم بنا على أرض مطار فيينا عصر يوم الخميس الثالث عشر من مايو/ أيار (١٩٩٣)، كنت أسائل نفسي ما إذا كان الأستاذ العلامة والمستشرق الكبير روبرت Prof. Robert Serjeant قد سبقني في الوصول إلى فيينا للمشاركة في الاحتفال الخاص الذي تقيمه جامعتها في اليوم التالي تكريماً لأحد كبار أساتذتها- الصديق المشترك- وأحد محبي اليمن، عالم الاجتماع، المستشرق، البروفسور فولتر دوستال Walter Dostal وكم كانت المفاجأة مذهلة عند ما استقبلني البروفسور دوستال مرحباً بحفاوة صادقة مع زوجه الدكتورة مارغريت دوستال، ثم أبلغني بعد تردد بعبارة خنقت كلماتها رنة حزن: لتوه - فقط- تلقى الخبر المؤسف بوفاة الأستاذ سرجنت في مقر إقامته في (سنت أندروس) على مقربة من مسقط رأسه (أدنبره) يوم الخميس٢٩/ ٤/ ١٩٩٣م.

كان خبراً مثيراً للدهشة والحزن، فقد كنت اتصلت به قبيل ذلك اليوم واتفقنا على هذا اللقاء، فحملت له دعوة كريمة من الأخ الدكتور العمودي رئيس جامعة عدن ليمضي شهرين فيها باحثاً زائراً، وهي أمنية طالما حلم بها، كان رجع هذا النعي في نفسي سحابة من الحزن والكآبة طيلة ليالي(فيينا) الثلاث التي أمضيتها في رحاب جامعتها العريقة وصحبة آل دوستال وكرم ضيافتهم مع لفيف من أصدقائهم وفدوا- للمشاركة مثلي- من أنحاء عديدة من خارج النمسا كان يفترض أن يكون بينهم الراحل الكبير.

* * *

(١) نشرت في صحيفة الحياة اللندنية (اللبنانية السعودية) العدد (١١٠٨٢) الصادر في ١٧/ ٦/ ١٩٩٣م؛ ونشرت أيضاً بشيء من التنقيح في العدد الثاني من مجلة (الثوابت) الصادرة في صنعاء (يوليو ١٩٩٣م).

سرجنت صور من الذاكرة :

التقيت للمرة الأولى بالأستاذ العلامة سرجنت في مطلع العقد السابع، حين زار صنعاء ومعه الأستاذ دوستال، والدكتور ركس سميث أستاذ الأدب العربي اليوم بجامعة مانشستر ومحقق كتاب(السمط الغالي الثمن). وكانت زيارة سرجنت لصنعاء حينئذ هي الأولى- كما يقول- لأقدم عاصمة عربية في التاريخ، فأعجب بها ووضع في وصفها وتاريخها كتاباً زاحم في شهرته أشهر ما كتب عن المدن العربية وأهمها في اللغات الأوروبية(صنعاء المدينة العربية الإسلامية Sanna.a Arabian Islamic City,1983)، قد أمضى عشر سنوات في إعداده وتحريره مع آخرين كثيرين - منهم الكاتب - وصدر في مجلد ضخم عن المهرجان الإسلامي (لندن ١٩٨٣م)[1].

لم يكن تأليف العلامة سرجنت لهذا الكتاب هو الحافز له على الاهتمام بهذا الإقليم والوقوف على أحواله وأموره جليلها ودقيقها، بل كانت علاقته باليمن ودراسته لتاريخه وآدابه وعادات أهله ترجع إلى مطلع الحرب العالمية الثانية. فبعد أن نال درجة الدكتوراه من جامعة كمبردج سنة ١٩٣٩م وهو في الرابعة والعشرين من عمره، توجه لأداء الخدمة العسكرية في عدن، لكن زيارته التالية لحضرموت باحثاً عقب الحرب (عام١٩٤٧م) كانت بعد أن أضحى محاضراً في الأدب العربي بجامعة لندن، كانت تلك الزيارة بداية رحلة طويلة في بحث متواصل في كل ما له علاقة بتاريخ اليمن وثقافته في إطار اهتماماته ودراساته الواسعة للتاريخ العربي والإسلامي، فقد تولى منصب أستاذ كرسي الأدب العربي الحديث بجامعة لندن مدة عشر سنوات (١٩٥٥-١٩٦٤م) رجع بعدها إلى جامعته (كمبردج) محاضراً في التاريخ الإسلامي بضع سنين قبل أن يشغل كرسي الأستاذية عام١٩٧٠م خلفاً للمستشرق المشهور أرثر آربري A. Arberry

(١) انظر مراجعتنا له في مجلة الاجتهاد البيروتية بعنوان (اليمن في مرآة الغرب).

بعد وفاته أواخر عام١٩٦٩م، وهو المنصب الذي استمر فيه حتى تقاعده عام١٩٨٢م. وعلى عينه وتحت إشرافه تخرج الكثير من الباحثين والمختصين في شؤون الثقافة والحضارة العربية الإسلامية، بعضهم من العرب، وكان يخصهم بالحب والرعاية وحسن التوجيه.

كانت سنوات العقدين اللذين أمضاهما سرجنت في كمبردج من أخصب سنوات إنتاجه العلمي والأدبي، فبالإضافة إلى أعباء التدريس الذي أرسى قواعده الجديدة القائمة على تنويع مواضيع المعارف العربية والإسلامية فإنه نقل خلالها إلى الإنجليزية مختارات من عيون التراث العربي، يأتي كتاب(البخلاء) للجاحظ الذي يصدر هذا العام تاجاً لها وتحفة مهداة للمكتبة الغربية، فقد قام بعد إصداره عام١٩٦٣م كتابه الحفيل عن البرتغاليين في شطآن الخليج والبحر العربي، بتبني فكرة سلسلة كمبردج في تاريخ الأدب العربي: Cambridge History of Arabic Litterare بالتعاون مع سلفه البروفسور آربري، وهي السلسلة التي صدر منها أربعة مجلدات انفرد سرجنت بتأليف ثلاثة منها. وفي عام١٩٧٥م كان من أنشط المستعربين والمهتمين بإبراز الوجه المشرق للحضارة العربية الإسلامية، فقام بزيارة صنعاء غير مرة كانت إحداها من أجل الإعداد للمهرجان الإسلامي الكبير الذي عقد في لندن وافتتحته جلالة الملكة إليزابيت وفضيلة شيخ الجامع الأزهر الشريف، في ربيع عام١٩٧٦م[1]، واتخذت هذه الحاضرة العريقة صنعاء في ذلك المهرجان أنموذجاً للمدينة العربية الإسلامية مقابل البادية، وذلك في متحف البشرية بلندن.

وفي الوقت نفسه صدر له كتابه الفريد في بابه عن الصيد في بلاد اليمن أو (جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام South Arabian Hunt 1976) أما ندوة الدراسات العربية

(١) كان للكاتب مع أستاذه العلامة القاضي إسماعيل بن علي الأكوع شرف تمثيل اليمن في ذلك المهرجان.

Semener For Arabian studies التي أسسها مع نخبة من العلماء والمستشرقين عام١٩٦٩م، منهم صديقه العلامة البروفسور بيستون أستاذ اللغات القديمة في جامعة أكسفورد والمختص في النقوش والحضارة اليمنية، فقد أصبحت ملتقى علمياً يعقد في شهر يوليو من كل عام يتوافد إليه أشهر الباحثين والمهتمين بشؤون الجزيرة واليمن عرباً ومستشرقين، ويصدر عن هذه الندوة أو الحلقة حولية وسمت باسم الندوة وتسنمت مكانها بين الدوريات المشهورة.

ولعله شرع في تلك الحقبة نفسها بإصدار مجلة (دراسات عربية) يحررها مع صديقه القديم المرحوم روبين بيدول Robin Bidwell الذي كان يحلو له أن يدعوه بالشيخ صالح!، وقد صدر منها ثمانية مجلدات، ووافاه الأجل وفي المطبعة العدد الأول من إصدارها الجديد New Arabian Studies .

بلغ الأستاذ سرجنت يوم وفاته الثامنة والسبعين، فقد ولد في أدنبره في الثالث والعشرين من مارس/ آذار عام١٩١٥م، ورغم هذه السن العالية ومعاناته لداء السكري فقد كان دائب الحركة والنشاط كثير الأسفار والتنقل، زار اليمن آخر مرة في فبراير/ شباط عام١٩٩٢م للمشاركة في ندوة التراث العربي بجامعة عدن، واستقبله الأخ الأستاذ علي سالم البيض بحضوري، كما زار مختلف أقطار المعمورة ومعظم مدنها. كان جلده وقدرته على التحمل والعمل مضرب المثل، وأثبتت شخصيته الجذابة الجادة، والمتميزة بسعة اطلاعه وتعدد مواهبه، حضوراً قوياً في أي ملتقى أو منتدى يحل فيه، ولهذا فقد كان غيابه واضحاً في احتفال فيينا، كما سيكون افتقاده بالغ الأثر في ندوة الدراسات العربية المقرر انعقادها في جامعة لندن في النصف الثاني من يوليو القادم ١٩٩٣م، وبرحيله تخسر الدراسات العربية والإسلامية واليمنية منها بشكل خاص عالماً يعز من يسد مسده.

يوم الأربعينية كتب في عمان٣/ ٦/ ١٩٩٣م.

الشيخ صالح الإنجليزي (١٩٢٩-١٩٩٤) يلحق بصديقه الأستاذ سرجنت:

بعد مرور عام وبضعة أسابيع على رحيل الأستاذ سرجنت توجهت مع صديقي وزميلي الأستاذ الدكتور يوسف محمد عبد الله إلى بريطانيا للمشاركة في ندوة الدراسات العربية المنعقدة هذه المرة في أكسفورد بين ١٨-٢٣/ ٧/ ١٩٩٤، وكنا لتونا قد خرجنا - بحمد الله - من حرب الانفصاليين المهزومين وهروبهم خائبين خارج البلاد، وعلى رأسهم علي سالم البيض الذي نبه على دوره الخطر من وقت مبكر الدكتور روبن بيدول في كتابه عن اليمن(The Two Yemens) والصادر في كمبردج عام١٩٨٣ وبشكل خاص في الصفحات(٢٢٢-٢٢٤) التي يشير فيها إلى طموحه من قبل للاستقلال وبعده عام (١٩٦٧) إلى إقامة مملكة خاصة أو دويلة في حضرموت.

كنت متشوقاً للقاء بِيدول، فلكونه شخصية ظريفة من ناحية، ولكوني كنت حريصاً من ناحية أخرى على استفساره عن مزيد من المعلومات حول ما كتبه، وكما حدث في عدم اللقاء مع سرجنت كان الأمر كذلك مع بيدول فقد وافاه الأجل ومات فجأة في منزله في بلده خارج مدينة كمبردج في العاشر من يوينو/ حزيران عام ١٩٩٤ وكان في الخامسة والستين من عمره فهو من مواليد عام ١٩٢٩، فكان ثاني مؤسس للندوة يرحل بعد سرجنت، وأول اجتماع لها يتم دون حضوره، وهكذا فقد كان افتتاحها من قبل البروفسور العلامة المعمر بيستون تأبيناً وتذكيراً محزناً بمرور أربعين يوماً على وفاته، وأكثر من عام على رحيل الأستاذ سرجنت.

* * *

من الاستخبارات إلى الجامعة :

لم يكن الراحل بيدول عالماً ضليعاً أو مستعرباً كبيراً كأستاذه سرجنت، لكنه كان مهتماً بالعالم العربي، عمل فيه لأكثر من عقد من عمره قبل أن يجول في مختلف أرجائه ويتخصص في شؤون السياسة المعاصرة. فبعد أن درس التاريخ وتخرج في جامعة كمبردج التحق الشاب بِيدْوِل ككثيرين بجهاز الاستخبارات البريطانية المسئول عن دائرة قناة السويس في مصر، ليعين في العام١٩٥٥ ضابطاً سياسيّاً في مستعمرة عدن حتى عام١٩٥٩ وهي السنوات التي منحته الخلفية والمعرفة فيما بعد عن كثير من الأحداث والأشخاص، بل والتفاصيل الدقيقة ـ الموثقة عنده – كما أشرت في البداية لنوع منها فيما كتبه عن البيض أو عبد الله الأصنج على سبيل المثال في كتابه المشار إليه عن اليمن.

لقد اتسعت معرفة بيدول بعد مغادرته عدن بكل الأقطار العربية في المغرب(الشمال الإفريقي) والمشرق وبقية دول الشرق الأوسط التي زارها وتنقل فيها مراسلاً ومحرراً خارجياً لوكالة جامعة أكسفورد في الشرق الأوسط، وعندما حصل على منحة للدراسات العليا عام١٩٦٥ عاد إلى جامعته كمبردج ليتفرغ للعمل الأكاديمي تحت إشراف الأستاذ سرجنت الذي سبق أن تعرف عليه من قبل وجمعهما الاهتمام المشترك باليمن، ومع ذلك فقد كان موضوع «الإدارة الفرنسية في المغرب» هو أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه عام ١٩٦٨م وليس موضوعاً عن اليمن أو المشرق العربي، بيد أنه أصدر بعد ذلك بسنوات قليلة ما كتبه عن شؤون الجزيرة والكويت في أكثر من مجلدين، ومن يومها ارتبط بأستاذه وصديقه سرجنت فكان كالظل له والمساعد له في إصدار المجلة والإعداد للندوة حتى توفي بعد أن بات معروفاً بالتخصص في شؤون الخليج والجزيرة، وكثيراً ما كان يجيب في الإذاعة البريطانية أو في الصحافة عن الأسئلة السياسية أو

التاريخية المعاصرة المرسلة إليه عن اليمن خصوصاً، والجزيرة عموماً. وكان في الغالب دقيقاً منصفاً بالرغم من أنه كما كتب في تأبينه الأستاذ الصديق البروفسور ركس سميث Prof. G. Rex Smith الذي يعرفه عن كثب، لم يتجاوز في معرفته باللغة العربية (آدابها ولهجاتها) تلك العبارة المصرية الدارجة « شُفْتي بِنْت ! » التي حفظها من فترة خدمته في مصر، ولعل هذا-كما يرى الأستاذ سميث- أحد أسباب خُموله الأكاديمي وعدم انخراطه في هيئة(سلك) تدريس جامعة كمبردج العريقة بتقاليدها المعروفة، مكتفياً بسكرتارية المركز الذي أسسه سرجنت باسم « الشرق الأوسط » والتابع- اسمياً- للجامعة، ولعله بوفاتهما يقفل.

* * *

* *

*

ملاحق الكتاب

١ - صورة النص غير المنشور من حوادث سنتي: ١٢٥٢ و١٢٥٦هـ، خلع علي بن المهدي عبد الله، وقيام الناصر عبد الله بن حسين ثم مقتله.

٢ - رسالة من العلامة محمد البشير الإبراهيمي إلى ابنه البار الأخضر الإبراهيمي مبعوث الكاتب العام للأمم المتحدة إلى اليمن.

٣ - تذكير من أجل حاضرة اليمن وعاصمته التاريخية - ملحق خاص بالنداء العالمي من أجل الحملة الدولية لصون مدينة صنعاء التاريخية.

٤ - أهل السياسة وأهل القلم.

- رياح السموم: السعودية ودول الخليج بعد حرب الخليج: ١٩٩١ - ١٩٩٤.

٥ - الملك عبد العزيز بن السعود من الرياض إلى صنعاء.

٦ - الملك عبد العزيز بن السعود - لماذا يتمنى السوريون فوزه على إمام اليمن؟

٧ - سيف الإسلام عبد الله رسول أول دولة عربية مستقلة.

٨ - من الحياة - أيام زمان، السعودية واليمن.

٩ - من الحياة - أوراقِ زمانٍ، بلاغ يمني قديم.

الحمد لله رب العالمين وبعد لما كان ثالث شهر الحجة
للسنة الأربعة من شهور سنة اثنين وخمسين ومائتين وألف
اجتمعت توابع صنعاء وهجموا على الإمام المنصور بالله علي ابن
الإمام المهدي عبد الله بن المتوكل على الله أحمد بن المنصور [illegible]
إلى البستان المسمى بستان المتوكل [illegible]
فقبضوا عليه وانتهبت بيوت الأموال من الذخائر
النفيسة وجميع ما فيها من نفائس الحلا وفي السلاح
والعدد والجواهر وغير ذلك وأقاموا الإمام
الناصر عبد الله بن الحسن [illegible] المهدي عباس بن حسين
المنصور علي عبد الله وعمه سيف الخلافة محمد بن المتوكل
واستمر الإمام الناصر في دست الخلافة وقبض
ما بأيديهم جميع وكانت هذه القضية من أعظم
القضايا وأشنع الرزايا ووقع في خلال ذلك
أمور يطول شرحها ويكثر جرحها ثم بقي [illegible]
ثلاث سنين وأربعة أشهر وبعض أيام ثم وقعت
المغاورة بينه وبين قبائل همدان فجمع [illegible]
من قبائل أرحب وبني الحارث و[illegible] وجرد جيشهم
لمناجزة همدان فأخذ بعض قراها [illegible]

صورة النص غير المنشور من حوادث سنتي: ١٢٥٢ و١٢٥٦هـ. خلع علي بن المهدي عبد الله، وقيام الناصر عبد الله بن حسين ثم مقتله. انظر بسط ذلك فيما سبق، ص: ١٧٤-١٧٦.

بيوتها واخرب دورها وانتهبها منهم نفر كثير عظيم ووقع
الصلح بينهم وخرج من دبيه صلحا واقام بها مدة يسيرة
فخرج الى الحجر وجه الى وادي ظهر وذلك يوم الاثنين تاسع
شهر ربيع الاول سنة ٦ هـ وكان وصوله الى دار الحجر وبقا
منها من الضحى الى بعد العصر وتلقوه حوالي بالعقائر
حتى كانوا عليه من تلقي الخليفة ثم نهض [illegible] عنها
الى صنعاء بعد العصر وقد اعد والدر صد الى الطرق
اللتي يمر منها فلم يشعر الا بالرماية منهم وقد وجد غير ثلاث
رصاص فغزا دعا الى دار الحجر وقد اصابت تلك الرصاص
بعض اصحابه فشنوا الغارات عليهم ودخلوا الى تلك الدار
ولم يكن عندها الا جماعة يسيرة فقتل منهم وقتل معهم
صلاح الدين محمد بن عبد الله بن المنصور علي بن عباس وقتل
القاضي سهل حيمان وزيره والامير عنبر امير العسكر
وقتل الامير [illegible] طاشخان وقتل من اصحابه اربعة انفار
وانتهبت الخيل وما عليها من العدد وانتهبت ما في
الدار جميع من الالات العرش والنحاس و[illegible]
وحمل راسه ورأس القاضي سهل حيمان ورأس الامير
عنبر الى خلقه الى طاغيتهم الشيخ علي مطلق خليل

وكانت هذه القضية من أقبح القضايا التي لم يسمع
بمثلها في الجهة اليمانية وفي ليلة ذلك اليوم من قتل الإمام الناصر
جنحوا أهل صنعاء إلى إخراج من في القصر وأقاموا محمد المتوكل
ولقبوه بالمتوكل وجاء لديهم هذا أن القبائل متجمعة لأخذ الثأر
من همدان والله تعالى من ورائهم محيط انتهى وفي يوم السبت
لعله ١٢ شهر جا الأولى سنة ١٢[illegible] اجتمعت القبائل جميع
أرحب وعيال سريح وبني الحارث و[illegible] وممن التحق
بهم من عيال اليمن وبداوة شوابه وهمدان واختلط كل
قبيلة منهم جهة من همدان فقبائل أرحب ومن معهم
من بني الحارث وغيرهم تقدموا إلى الرقد فالتقتهم قبائل
همدان فكانت الدائرة عليهم وقتل منهم نحو [illegible]
وقطعت رؤسهم وكانوا قد قتل همدان منهم عيال يحيى
ريحان وبني [illegible] هم من العقال واستفاضوا على المقاتل
وانتهضوا يوم الاثنين إلى المنقب وهو حصن شهير
منيع وقد كانوا جمعوا إليه بعضاً منهم من الحب والفرش
والسلاح [illegible] وبعد ذلك فتحوهم قهراً وأخذوا أهله
قهراً فقتلوهم عن آخرهم ولم يتركوا كبيراً ولم يرحموا
صغيراً وبعدها نفوسهم حزت جميع رؤسهم وأرسلوا
بها إلى [illegible] ولم صنعاء والتي حملت إلى صنعاء مائتين وتسعة
من الرؤس وأما قدر المقاتيل فهي تنيف على المائتين
أو الثلاث وكان بقاهم في المنقب حصر أيام

بعد ان اخذوا ما فيه جميعه واخربوا ما حوله من القرى واحرقوا
قرية حاز واخربوها وبعض قرى همدان كفلها [illegible] المولى
من مالك عماد الاسلام يحيى بن محمد حفظه واما عيال يحيى فجاء بعطر جمعهم
محلا تعالى له سمي بل انتهضوا فاخذوا امر بلاد همدان
محلا منها حصن الكوكبان و الحجر والغيل وعدد لكر
واستعاضوا على جميع ما فيها واستهضوا العدد لذلك
مطرح ارحب الى المنقب ونهضوا الجميع يوم الجمعة
لحلول ١٨ [illegible] اول الاحد صلاح و الوادي
وعيال والله اعلم ما يؤول اليه الامر [illegible] الخبر برجوع
عيال سريح ومن معهم من القبائل الى الاجر ولم يعرف عن قبائل ارحب

من نهم ابن جميع الى [illegible] بعض

لله در عصابة من ارحب وبني سريح [illegible] لهمدان لنهض
بردت قلوب العالمين جميعاً من فتكة نزلت بهمدان الرفض
مائتان من هاماتهم قد قطعت بدلالة عوض الامام وما قضت لهم غرض
ولرب واقعة بذل لبطشها من كان ذا بأس غليظ القلب فظ

وفي ذلك يقول الصنو الوجيه عبد القادر بن احمد بن عبد القادر

لقد احرزت حمراً قبائل ارحب ... بما قد علت شأواً على كل منصب
زهور وذمار تنادت ما قبلت ... على الخيل تعلوا كل مهر مشرف
اغارت لنصر الناصر الحق غيرة ... وسلت لاخذ الثار كل مشطب
وكل قديم من بنادقها التي ... تصيب فلا تخطي مرام المنقبي
بعزم واقدام على الموت في الوغا ... وبذل النفوس في رضا الله والنبي
وكلاعو ان جاد وبذل نفوسهم ... لنصرة اهل البيت في كل مجرب
تعد وثوابهم وجدودهم ... محبة اهل البيت وخير النبي

رسالة من العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي
إلى ابنه البار الأخضر الإبراهيمي[1]
(مبعوث الكاتب العام للأمم المتحدة إلى اليمن)

بسم الله الرَّحمَن الرَّحيم

أيْ، بُنَيّ الحبيب، ابن العروبة البار. .

عندما صَعدت روحي إلى بارئها بعد جهاد طويل في عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م كان قد مضى أكثر من عامين على تمثيلك لبلدك الجزائر الحرة المستقلة سفيراً في أرض الكنانة ولدى جامعة الدول العربية، حيث أمضيتُ قبلك بها شطراً عزيزاً من سنوات النضال، حين كانت مصر موطن العروبة والإسلام ومنارة المشرق كله. . ولقد كنت يابني حينها من جيل الثورة الذي تلا جيلنا فنعمتَ بخيرات النضال وتشربت بروح العروبة وتعلمت الدروس النافعة وأدركت معنى وحدة الأمة وأهميتها، ورأيت وطنك وامتك وهي تجني ثمار الكفاح ونتائج الانتصار.

ولعلك بعد ذلك، سواء في عملك بجامعة الدول العربية أو خلال تنقلك في مناصب السلك الديبلوماسي أو حين توليت وزارة الخارجية في بلدك - قد أدركت أيضاً

(١) في ٢٠ مايو (أيار) عام ١٩٦٥م توفي العالم الأديب، المصلح والمناضل الجزائري الشيخ محمد البشير الإبراهيمي صاحب (البصائر) ومحررها وقد استلهم الكاتب موضوع الرسالة حين أعلن قيام السياسي والدبلوماسي العربي الكبير الأستاذ الأخضر الإبراهيمي بمهمته الخطرة إلى اليمن وقد تسلمها فعلاً ونشرت أيضاً غداة وصوله إلى صنعاء يوم ١٠/ ٦/ ١٩٩٥م في صحيفة ٢٦ سبتمبر الأسبوعية، ولعله من الطّريف الإشارة إلى أن السفارة الجزائرية بصنعاء حين علمت بما نشر قد عقبّت بحسن نية على ذلك في الأسبوع التالي - في نفس الصحيفة - بالقول بأن السيد الأخضر الإبراهيمي ليس ابناً للأول(!) وكأنها فهمت أن مخاطبته (بيا بني) تعني اعتقاد الكاتب بأنه ولده! .

مدى التآمر الكبير على وطنك وأمتك العربية، ولا أظن أن ذلك يغرب عن من هو في مثل فطانتك وعلمك الجم وتجاربك الكثيرة، فهي كلما حققت منجزاً تدخلت قوى الشر على اجهاضه وكلما كانت الأمة قاب قوسين أو أدنى من الوحدة أو النصر تكالب عليها الأعداء وعملوا على إبقائها ضعيفة مجزأة ممزقة، بل يُدفَعُ بها ليقاتل بعضها بعضاً بغض النظر عن الدوافع والأسباب. . وإلاّ فهل يصدق أحد أن دولة عربية أو أكثر من دولة تبلغ بها الجرأة أن تشجع على فصل جزء من جسد وطن عربي واحد بل تلمح بالاعتراف بذلك الجزء المفصول دولةً مستقلة، رغم أن تلك الدول نفسها قد باركت وحدة ذلك الوطن وإعادة لحمته وقيام دولته الواحدة.

ولدي العزيز:

لقد بلغني أنك في مهمةٍ في وطن العرب الأصْلِ الذي يمر اليوم بظروف صعبة فُرضت عليه ظُلماً وعدواناً سعياً لتمزيق وحدته وإعاقة مسيرته، ولابد أنك ستلقى الكثيرين وستسمع مايسرك أو يحزنك أو يؤذيك، وستجد من الغرائب والتناقضات مالا قبل لك به خاصة عندما تسمع حديث من يزين لك أن التآمر على الوطن والوحدة فضيلة وعندما ترى أشباهاً ونظائر لا جامع لها إلا الخيانة والانتقام والطموح غير المشروع وستسأل نفسك غير مرة ما الذي يجمع بين أعداء الأمس ليكونوا في قيادة مايجري من سفك للدماء وتدمير للمنشآت وتدبير مؤامرة فصل جزء من اليمن عن جسده.

لقد عرفت عنك الحذق والحنكة والصبر في تناول مهماتك الجليلة، غير أن كل المحبين والأصدقاء يشفقون عليك اليوم وفي الوقت نفسه يؤمّلون فيك كل خير. وإني لواثق كل الثقة بأن المهمة المناطة بك اليوم في وطنك اليمن هي فرصة ثمينة ساقتها الأقدار والعناية الإلهية لتعزز حقاً وحدة اليمن منطلق وحدة العرب، وهي وحدة عظيمة تمت بإرادة الشعب اليمني الحرة ووفق شرائع الكبار والأمم المتحدة نفسها، فعسى الله أن

تنجح في مهمتك الخطيرة. أما أنا فأنت تعرف آرائي في الأمم المتحدة من خلال ماكنت أكتبه عنها في (البصائر) وغيرها قبل أكثر من أربعة عقود. ولعلك تذكر ماقلته في خطابي باسم جمعيّة العلماء أمام الوفود العربية إلى الأمم المتحدة في باريس مساء يوم الثلاثاء ٢٩ يناير ١٩٥٢م. وهوالخطاب الذي سجله وقتها تربك التلميذ المغربي النابه أحمد بن سوسة الذي سبقك للعمل الدبلوماسي في القاهرة وزاملك فيما بعد ومازال في رحلة العمل السياسي والدبلوماسي. وفي ذلك الخطاب خاطبت أخوتي رؤساء وفود الدول العربية المستقلة حينذاك، وكانت اليمن من بينها، وكان من ضمن الوفود المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام أول أمين عام لجامعة الدول العربية - قلت مايلي:

«رَمَى الشّرق باريس بهذه الأفلاذ، فخاطبوا الأمم وخطبوا في منظمة الأمم، هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها، وحُليت بغير صفتها، وماهي إلا مجمع يقود أقوياؤه ضعفاءَه، ويسوق أغنياؤه فقراءه، وما هي إلا سوق تشترى فيه (الأصوات) بأغلى مما كانت تشترى به أصوات (الغريض) و(معبد)، غير أن الأصوات القديمة كانت فنّاً يمتزج بالنفوس، وموسيقى تتسرب إلى الخواطر، أما هذه الأصوات فإنها تنصر الظلم، وتؤيد الاستعلاء والطغيان، وشتان مابين الصوتين، وتباع فيه الذّمم والهمم والأمم بيع البضائع في السوق السوداء، وماهي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشر، وعقدوه للعدل والتناصف، فكان فيه كل شيء إلا العدل والتناصف».

«ها هو الشرق رمى باريس بأفلاذ كَبده، يدافعون عن حماهُ بالحق، ويجادلون عن حقه بالمنطق، وما منْهم إلا السيف مضاءً، والسيل اندفاعاً، وَإن وراءهم لشباباً سينطق يوم يسكتون، وسيتكلم بما يخرس الاستعمار ويسيئه، وإننا لرجالٌ، وإننا لأبناء رجال، وإننا لأحفاد رجال وإن أجدادنا دوخوا العالم ولكن بالعدل، وسادوه، ولكن بالإحسان، وإن فينا لقطرات من دماء أولئك الجدود وإن فينا لبقايا مدخرة سيُجليِّها الله إلى حين.

ولنطمس هذه الحُدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، وليرتفق بعضنا ببعضنا، فيما يزيد فيه بعضنا على بعضنا، ولنكن يداً واحدة على الأجنبي، ولنعتبر المعتدي على جزء منا معتدياً على جميع الأجزاء، وعدوّ العراق هو عدو مراكش، ولنذكر من خصال الأمم مافعلته إيطاليا في ضم أجزائها، وما فعلته ألمانيا، وما فعلته فرنسا التي لم تنم لها عين في قضية الألزاس واللورين، ولو أن معتدياً اعتدى على جزء من انكلترا (وهي كجزيرة العرب) لتداعى الإنكليز عن أطراف الأرض لاسترجاعه، فلمَ لا نكون كذلك؟!

والذي روحي بيده.. ما يسرُّني أن للعرب ثماني دول ولا أن للمسلمين عشرين دولة، ماداموا على هذه الحالة، وإنما يسرني ويثلج صدري أن يكون المسلمون والعرب كلهم شعباً واحداً بحكومة واحدة، وعلى عقيدة في الحياة واحدة، وعلى اتجاه إلى السعادة واحد، فإذا وجد هذا الشعب لم يبق لهؤلاء الأقوياء إلا أن يقولوا: إن في الشرق قوماً جبارين، وإنه لم يبق لنا بينهم موضع».

حفظك الله ورعاك وكلّل بالنجاح مسعاك وألهمك الحكمة والرشاد، وجعل منك ناصراً للحق، وجمع بفضله تعالى وجهدك شمل أهل اليمن الكرام وحفظ بحسن سَعيك وحدتهم ووطنهم الغالي من كل مكروه».

والدك في جنة الخلد

الفاتح من محرم الحرام سنة ١٤١٥هـ

الموافق العاشر من يونيو/ حزيران ١٩٩٤م

(تذكير من أجل حاضرة اليمن وعاصمته التاريخية)[1]

ملحق خاص بالنداء العالمي

من أجل الحملة الدولية

لصون مدينة صنعاء التاريخية

نداء

السيد أحمد مختار امبو

المدير العام لليونسكو

---

(١) راجع البحث(في أهمية الإفادة من المصادر القديمة) ص: ١٦٣، والحاشية: (١).



نداء

السيد أحمد مختار امبو

المدير العام لليونسكو

من أجل الحملة الدولية لصون مدينة صنعاء القديمة

من أجل الحملة الدولية
لصون مدينة صنعاء القديمة

« لا بـد من صنـعـا وان طال السّفـرْ وإن تـحـنّـى كـلُّ عـود وانـعـقـر »

هذا البيت من الشعر القديم دعوة لاكتشاف المدينة الشماء المشيدة في قلب سلسلة شاهقة من الجبال، صنعاء عاصمة « اليمن السعيد » الفاتنة، وواحدة من أقدم مدن العالم. حتى إن احدى الروايات تقول إن الذى أسسها هو سام بن نوح.

صنعاء على مفترق طريقين يصل أحدهما المحيط الهندى بحراز ويصل الثاني مأرب بالبحر الأحمر، كانت حاضرة ملوك سبأ ثم الأرض المختارة للحميريين.

وبعد ما احتلها الأحباش استطاع سيف بن ذى يزن أن يحررها بمساعدة المملكة الساسانية. وفي السنوات الأولى للهجرة، صارت صنعاء مركزاً من مراكز اشعاع الدين الاسلامى، بيد أنها ظلت مع هذا مدينة تتعايش فيها أديان الكتب السماوية جميعا، ويشارك جميع سكانها فى رخائها وتجميلها.

وقد أدت المدينة آنذاك دورا بارزا في نشر رسالة الإسلام. وفى حياة الرسول ﷺ، شيد الكثير من مبانيها التى ما زالت قائمة حتى اليوم، مثل المسجد الكبير جوهرة المدينة القديمة، ثم استمر ازدهارها فيما بعد تحت حكم الخلفاء الأمويين والعباسيين والحكام اليمنيين الذين جاءوا من بعدهم. كما ان صنعاء تضم فى نسق متوازن ومهارة بارعة المساجد وفنادق القوافل والحمامات والأسواق والقصور والمساكن بحدائقها الغناء داخل الأسوار المنيعة التي كانت تحيط بالمدينة.

وحرصاً على الحفاظ على الأراضى الزراعية وعلى ضمان أمن السكان في آن واحد، ابتكر الفن المعمارى اليمنى هنا مباني متعددة الأدوار والأشكال الهندسية حيث تتناسق الأسس والجدران من حجر ولبن مع الشرفات البارزة ذات البياض الناصع والنوافذ ذات الأقواس البديعة.

ولكن صنعاء أيضا عاصمة من عواصم القرن العشرين، حيث نرى فيهـا جنبا إلى جنب أحـدث إنجازات العصر والمساجد والمدارس القرآنية والأسواق والمساكن التقليدية. ويضفي تجاوز هذين العالمين على المدينة طابعها الفريد، غير أن أنشطة المدينة الرئيسية تنحو إلى الانتقال تدريجياً إلى خارج الأسوار التاريخية، الأمر الذي يهدد المدينة القديمة بخطر الاندثار شيئا فشيئاً.

وفي العقد الأخير، قررت السلطات اليمنية أن تبعث في المدينة روحاً جديـدة؛وباشـرت في تحقيق إنجازات جديرة بمدينة عصرية. كما عقدت العزم على إنقاذ نفائس الكنوز التاريخية والفنية والمعمارية لصنعاء، والشروع في برنامج عاجل يستهدف من جهة إصلاح وترميم الآثار الرئيسية والمساكن المعرضة للخطر، ومن جهة أخرى تحديث البنى الأساسية الحضرية للمركز التاريخي لصنعاء.

وقد اعتمد المؤتمر العام لليونسكو في دورته الحادية والعشرين قراراً يأذن لي باعداد خطة عمل، بالتعاون مع الجمهورية العربية اليمنية، من أجل صون صنعاء وترميمها.

وتستهدف خطة العمل هذه إنقاذ الطابع الفريد لصنعاء، ليس فقط بالحفاظ على مركزها التاريخي، بل أيضاً بإدخال العناصر الكفيلة بتهيئتها لاحتياجات الحياة العصرية.

ومما سيسهل تنفيذ خطة العمل هذه أنه صدر قرار جمهوري بتاريخ ١٦ ديسمبر/كانـون الأول ١٩٨٤ بإنشاء مجلس برأسه رئيس مجلس الوزراء ويضم العديد من الوزراء والشخصيات البارزة اليمنية.

وستتضمن تدابير الصون والإحياء ترميم المباني الهامة مثل المساجد والمدارس القرآنية والقصور والحمامات والمساكن، بينما تتضمن البنى الأساسية الحديثة شبكات المياه والتطهير وتجـديد شبكـات الكهرباء والهاتف والنقل. ومن المقرر أن تستكمل هذه الاجهزة بتحسين المعدات الاجتمـاعية والطبيـة، وتشجيع الحرف التقليدية، بالإضافة الى انشاء مراكز ثقافية ومتحف جديد.

غير أن الصعوبات المالية والتقنية التي تعترض تحقيق الأهداف المحددة هي من الأهمية والتعقد بحيث تتطلب جهدا متضافرا على الصعيد العالمي.

ومن ثم فقد طلبت الحكومة اليمنية من اليونسكو مساندة عملها بتوجيه نداء من أجل تضامن جميع الدول وجميع الشعوب.

ولهذا السبب أوجه من هذا الموقع التاريخي نداءً مهيبا من أجل التضامن الدولي.

إنني أدعو جميع الدول الأعضاء في اليونسكو، وجميع الشعـوب وحكومـاتها وهيئـاتها الوطنيـة والمؤسسات العامة والخاصة والمنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية، وكـذلك المؤسسـات والهيئات المالية، إلى المشاركة عن طريق تقديم المساهمات الطوعية، سواء كانت نقوداً أو معدات أو خدمات، للجهود الهائلة التي تضطلع بها حكومة الجمهورية العربية اليمنية.

وأدعو المتاحف وأروقة الفن والأكاديميات والمكتبات وكل المؤسسات المعنية بالصون وبالتقدم وبنشر الثقافة الى تنظيم معارض عن صنعاء وتقديم هبات لإنقاذها وترميمها.

وأدعو الأطفال والشباب كافة، لا سيما فى الجمهورية العربية اليمنية وفى الدول المجاورة للإسهام فى صون تراث أصبح جزءاً من التراث العالمى، وفى جمع التبرعات بكل الوسائل وتنظيم المسابقات والمشاركة فى إنجاز العمل الوطنى والدولى لصالح صنعاء.

واليونسكو التي وجهت فى الماضى عدة نداءات من أجل إنقاذ آثار جليلة فى العالم بأسره، يحق لها أن تفخر بأنها أسهمت، بفضل التضامن الدولى، فى إنقاذ آثار بلاد النوبة التى تعد أكبر عملية إنقاذ أثرى نفذت حتى الآن، وفى ترميم بوروبودور، وهو واحد من أكبر المعابد الروحية، فى إندونيسيا. واليونسكو تتابع جهودها لصون مدينة البندقية فى إيطاليا وسوخوتاى فى تايلاند ومدينة فاس فى المغرب، التى تعتبر من أروع العواصم الاسلامية والعديد من المدن القديمة الأخرى.

وإننى آمل مرةً أخرى أن يسهم كل أولئك الذين يرغبون فى صون التراث الثقافى للبشرية، كل حسب قدرته، فى الحملة الدولية لانقاذ صنعاء حتى تتمكن هذه المدينة من صون كنوزها التاريخية وسحرها للأجيال القادمة.

A. M.M' Bow

أحمد مختار امبو

صنعاء ١٩ ديسمبر/كانون الأول ١٩٨٤

أهل السِّياسَة وأهل القلَم

(من قبس الماضي)

١ - الملك عبد العزيز بن سعود

- من الرياض إلى صنعاء

٢ - لماذا يتمنى السوريون فوزه على الإمام يحيى

٣ - سيف الإسلام عبد اللّه في دمشق

(من الحيـــــاة)

٤ - أيام زمان: السعودية واليمن

٥ - أوراق زمان: بلاغ يمني قديم

(ملحق)

بأوراق مهداة (منه وإليه) للكاتب القدير والصحفي العربي المعروف الأخ الصديق الأستاذ رياض نجيب الريس تنويهاً بصدور كتابه الهام الأخير:

رياح السّموم:
السعودية ودول الخليج
بعد حرب الخليج ١٩٩١-١٩٩٤م

وتجديداً للذكرى العطرة للكاتب الوطني العربي الكبير - والده - من قبله صاحب القَبس الدّمشقية المغفور له نجيب الريس (١٨٩٨-١٩٥٢) الذي استعرنا منه نفس عنوان هذا الفصل «**أهل السياسة وأهل القلم**» من المجلد التاسع من سلسلة أعماله المختارة[١] ومنه استللنا صفحات تذكرنا بالقول الشائع «**ما أشبه اليوم بالبارحة**»، وكذا: «**من شابه أبه فماظلم!**»، وقد تصادف والكتاب ماثل للطبع أن نشر الأستاذ عرفان نظام الدين، وهو كاتب عروبي معروف من أسرة مدرسة صحيفة الحَياة، شيئاً له علاقة بالموضوع ألحقناه إكمالاً للفائدة.

---

(١) منشورات رياض نجيب الريس لندن (١٩٩٤م): ٩/ ٥٨-٦٨.

الملك عبد العزيز بن السعود
من الرياض إلى صنعاء

«. . . أما عبد العزيز فقد خلق شعباً، وأنشأ دولة، وفتح بلاداً، فإذا به بعد عشرين سنة من حلمه الضخم يمشي في طريق إنشاء الأمبراطورية العربية، وإذا بهذا اللاجئ إلى الكويت ينسل في ظلام الليل إلى الرياض، يحاول ملكاً أو يموت فيعذر، يحقق المحاولة الأولى باسترداد سلطان آل السعود ثم يخطو الخطوة الثانية إلى مكة، فيطلع عليها من وراء الطائف، يحمل في اليد الأولى سلطنة نجد، وفي الثانية عرش الحجاز، ثم يستقر به القدر ويقول له الإيمان: «يؤجر المرء رغماً عن أنفه»، فتراه في طريق صنعاء وقد ركز علمه الأخضر فوق أعلى صخرة في ساحل البحر الأحمر، فيرى المسافر في طريق الهند المشرف على الحديدة علم «الإخوان» وقد زانه شعار التوحيد وكتبت عليه بأحرف بارزة ضخمة تلك الكلمة التي حملها الفاتحون منذ أربعة عشر قرناً زاداً لهم من مكة إلى الصين وهي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وإذا بعدن «العربية البريطانية الهندية» تتلفت إلى جارة جديدة ناشئة في قلب البحر الأحمر وفي طريق الهند، هي الحديدة العربية السعودية اليمانية، فيصيح فيلبي في وجوه الإنكليز وفي جريدة «التايمس»: إن ابن السعود لن يترك لؤلؤة البحر الأحمر. ونحن نقول إنه لن يترك غوطة الجزيرة، فهو يردد أبداً قول الشاعر:

لابد من صنعـــا ولو طال الســـفـــر

وإن بقاء الأنسب لم تكن سنّة ابن السعود وحده بل هي سنة الله تعالى القائل في كتابه الكريم و«الأرض يرثها عبادي الصالحون». فلا طريقة ابن إدريس وأوراده وأذكاره

تحمي وحدها عسير وميناءها الحديدة، ولا رزم «القات» و«طار الهواء» عافاكم الله . . . تصلح وحدها للاحتفاظ بأربعة ملايين عربي من أذكى عباد الله يعيشون في اليمن على دهن رؤوسهم بالزيت والسمن وأجسامهم بالنيلة، وأقدامهم بدماء الحرادين! فلابد من المدرسة والمستشفى والأتوموبيل والتلفون وبعد ذلك «طار الهواء»!

من الرياض إلى صنعاء الآن!

هكذا كان ينادي النجديون يوم نفروا للحرب في اليمن بقيادة الأميرسعود، وقد تنادوا مثل هذا التنادي يوم ساروا بقيادة سلطان بن بجاد إلى الطائف، فعصفت في رؤوسهم نخوة التوحيد والشجاعة، فصاحوا صيحتهم المشهورة أو رغبتهم الحربية الوحيدة « خيال التوحيد أخو من طاع الله » . من الرياض إلى مكة، فإذا بالطليعة وحدها تكفي الجيش الزاحف وراءها مؤونة الحرب فتستقر في مكة، وإذا بشيخ قريش الأجلّ المرحوم الملك حسين يقف على ظهر الباخرة «طويل» في طريقه إلى العقبة، يردد قول الشاعر: «مشيناها خطى كتبت علينا . .» . فيقول له أعز الناس عليه وأحبهم إليه: «والأرض يرثها عبادي الصالحون» . وإذا بابن السعود يقول في حديثه «والله ماكنا نبغي فتح الحجاز ولكنا كنا نطلب الإنصاف في جوارنا وحدودنا ومعاملة أهلنا والكفّ عن احتقارهم ولكن، اسمع أنا أعلمك: يؤجر المرء رغماً عن أنفه» . وهكذا يعيد ابن السعود ما قاله منذ تسع سنين، وينقله الحاج عبد الله فيلبي إلى قومه في «التايمس»: ماكنا نبغي فتح اليمن ولا حرب الإمام، ولكن الإمام أراد أن يحتكم إلى السيف فاضطرني إلى حشد ٤٥ ألف مقاتل فحشدتها على كره مني . واليوم أنا في نهاية عسير وآخر ساحل في اليمن وفي طريقي إلى صنعاء و: «يؤجر المرء رغماً عن أنفه»!

إيمان وعصامية وحظّ، ثم طاعة في قومه تفوق حد الطاعة إلى الاستماتة في سبيل كلمة تخرج من فمه .

هذا هو عبد العزيز بن السعود، وهؤلاء هم الوهابيون الذين قال عنهم الريحاني في «ملوك العرب» إنهم رسل التوحيد والرعب والموت في وقت واحد.

لنسمع قليلاً أمين الريحاني يقول لابن السعود في العقير، وتحت مضرب من الشعر منذ اثني عشر عاماً وفي أول مقابلة رأى بها سلطان نجد يومئذ:

– يا طويل العمر، إن أمراء العرب وملوكهم في حاجة إلى الاتحاد والاتفاق، وإن العرب. . .

– أمراء العرب؟! العرب؟؟! حنا العرب «أي نحن العرب».

هكذا قاطع ابن السعود الريحاني، ولم يترك له أن يبحث في اتحاد أمراء العرب، ولا أن يذكر أمامه العرب، فقد نفى وجود العرب إلا فيَ نجد. وقد لا يكون ابن السعود مبالغاً، فأين العرب الذين سلمت دماؤهم وأنسابهم من خليط الأمم والشعوب؟

في سورية، وقد كانت طريق الفاتحين من شتى الأمم والشعوب أم في العراق والعنصران التركي والإيراني في الجنوب وخصوصاً في العواصم قد ألقيا بالدم جزافاً وبلا حساب، وفي الشمال وقد سادت الكردية لحماً ودماً ولغة وقومية، أم في الحجاز، والجاوي والهندي والبخاري والعربي ألفوا بفضل الزواج وما ملكت الأيمان مزيجاً من شتى الأمم أم في تهامة وعسير، والحبشيات السودانيات الدنقليات قد احتللن بيوت العرب من قصور السادة أبناء إدريس إلى أكواخ الزرانيق قرصان البحر الأحمر؟

أجل! حنا العرب! اللهم نعم. إن العَرب في نجد وفي البقية الباقية من تهامة:

إن تتهمي فتهامة وطني أو تنجدي إن الهوى نجد

هكذا يجمع ابن السعود إلى الإيمان والعصامية والحظ والاستعداد والكرم شعباً عربياً لم تفسد أخلاقه العواصم والحواضر، ولا غيّرت دمه التركيات والشركسيات

والسودانيات، ولا زلزلت عقيدته تلك البدع التي أدخلها الأعاجم على الإسلام، ولا فلّت من عزيمته هاتيك الطرق الصوفية التي قتلت في نفوس الشعوب الإسلامية في الهند والعجم وجاوى وحتى سورية والمغرب الأقصى - الإرادة والشعور بالوجود والالتجاء إلى الأولياء، ثم الفناء في المشائخ توصلاً إلى الفناء بالروح، وتمهيداً إلى الفناء بالذات الإلهية. وتحبيب الفقر والاستسلام وقتل روح السعي والكسب وحتى الدفاع عن النفس والوطن. بل سلم النجدي من كل هذه البدع والخرافات في الدين وتلك الاختلاطات في الدم، فبقي عربياً قحاً في قوميته ولسانه، مسلماً بسيطاً في إيمانه وعقيدته، لايعترف إلا بالله، ولا يتوسل بغير رسول الله، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، ويطيع الله والرسول وأولي الأمر منه.. يطيع ابن السعود لأنه مؤمن وعربي وشجاع وعادل.

من الرياض إلى صنعاء! لا بل من الرياض إلى الحديدة وفي طريق صنعاء! ومن دمشق إلى مكة، بل في الطريق إلى مكة يتجه السوريون وقد راحت بعثتهم الوطنية الأولى وعلى رأسها وفد الكتلة الوطنية برئاسة جميل مردم بك يحملون إلى عبد العزيز عاطفة الوطن السوري المهشم وأمنية أبنائه المحطمين.

وكل ديار قُرِّبَتْ منك منزلي وكل مكان أنت فيه مكاني

٢١/٥/١٩٣٤م

هوامش [1]

الطائف : مدينة ومصيف سعوديّ . تقع على جبل غزوان في الحجاز جنوب جنوب شرق مكة .

الحُدَيْدة : مرفأ في اليمن على البحر الأحمر ، قاعدة محافظة وسوق بنْ مشهورة . سكانها ١٠٠ ألف نسمة .

سانت جوني فيلبي Philby (١٨٨٥-١٩٦٠) : مستشرق إنكليزي ، [عمل في خدمة بلده مع ابن سعود] أسلم وسمّى نفسه عبد الله ، اكتشف كتابات ثمود الحجرية القديمة . أول من توغّل في رمال الربع الخالي ، له «قلب البلاد العربية» و«الربع الخالي» . [وكتابات أخرى وهو والد السوفييتي الجاسوس المشهور الآخر كيم فيلبي توفي في موسكو عام ١٩٨٦م] .

ابن إدريس ، أحمد بن إدريس الحسني (١٧٥٨-١٨٣٧) : صاحب الطريقة الأحمدية المعروفة في المغرب . من ذرية الإمام إدريس بن عبد الله المحض . ولد قرب فاس وتعلّم بفاس . ارتحل إلى مكة ثم إلى اليمن . هو جد الأدارسة ، وكانت لهم إمارة في تهامة عسير اليمن .

عسير : مقاطعة في غرب السعودية بين الحجاز واليمن ، تمتدّ بموازاة البحر الأحمر ، وتشمل سهل تهامة . عاصمتها أبها ومن مدنها بيشة . [وضمد] .

القات : نبات من فصيلة القاتيّات ، يزرع في اليمن حيث تُمضغ أوراقه .

سلطان بن بجاد بن حُمَيْد (٠٠٠-١٩٣٢) : قائد شجاع من عتيبة في بادية مابين الحجاز ونجد . صحب عبد العزيز آل سعود في غزواته وحروبه ، فأبلى بلاءً حسناً ، رفض الإصلاحات التي أدخلها الملك عبد العزيز ، والأسس التي استنّها للانتقال من البداوة إلى الدولة ، فقبض عليه وسجن حتى وفاته .

الإمام يحيى حميد الدين (١٨٦٩-١٩٤٨) : إمام اليمن سنة ١٩٠٤ . حارب الأتراك في أواخر العهد العثماني ، وقضى غيلة .

الوهّابيّون : أتباع المذهب الوهّابي نسبةً إلى صاحب الدعوة محمد بن عبد الوهّاب [ت ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م] والوهّابية مذهب إسلامي متعصب ذو نزعة سلفية يرمي إلى تخليص الشريعة من الشوائب ، ويستند إلى تعاليم ابن حنبل وابن تيميّة . ساعد ابن سعود على انتشار هذا المذهب في الجزيرة العربية .

---

(١) ما أضفناه أو صَحّحناه فهو بين معقوفتين هكذا [ ] حسين .

أمين بن فارس الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠): أديب ومفكّر ورحّالة. ولد في الفريكة بلبنان. تلقّى علومه الأولية في لبنان. وهاجر إلى نيويورك، ثم راح يتردّد على موطنه ويطوف في بلاد العرب. له مؤلفات بالعربية والانكليزية أشهرها «الريحانيات» و«ملوك العرب». توفّي في مسقط رأسه «الفريكة».

الجاوي: نسبة إلى جزيرة جاوا، وهي كبرى الجزر الأندونيسيّة.

البخاري: نسبة إلى بخارى، وهي مدينة في جمهورية أوزبكستان، مركز ثقافة إسلاميّ اشتهر منذ العصر العباسي.

---

* * *

الملك عبد العزيز بن السعود
لماذا يتمنى السوريون فوزه؟
[على إمام اليمن][1]

يتساءل بعض الناس وخصوصاً في لبنان: لماذا يعطف السوريون على ابن السعود ويتمنون له الظفر على خصمه الإمام؟ فهل بين السوريين والإمام يحيى عداوة قديمة، وبينهم وبين ابن السعود صداقة ومحبة؟

هذا سؤال سمعته في بيروت، وألقي عليّ أكثر من مرة بمناسبة سفر وفد الكتلة الوطنية إلى الحجاز برئاسة جميل بك مردم بك، والعناية بأخبار الظفر السعودي التي تبدو في أحاديث السوريين الوطنيين، وعلى ألسنة كتّابهم في الصحف. والحقيقة أن عواطف السوريين تتجه اليوم إلى الحجاز لاسيما بعد أن جرحت وأهينت في العراق، وبعد أن نسف رجال السياسة في بغداد ذلك الماضي السوري العراقي الفيصلي من أساسه، ولما يمر حول كامل على وفاة الرجل الذي أوجد ذلك الماضي وأنشأ تلك الرابطة القومية العاطفية التي حياها أبناء سورية وجالياتهم الوطنية في أوروبا وأميركا ومصر، فماتت بموته وبعدت الهوة بين الطرفين في سبيل بضع وظائف زاحم السوريون فيها إخوانهم في العراق، فنفض أبناء سورية أيديهم من بغداد ومدوها إلى مكة. وهم في ذلك معذورون لأنهم يطلبون إنقاذاً، وينشدون رجلاً عربياً قوياً يجعل وحدة العرب فوق الأقاليم والوظائف. وقد وجدوا ذلك أو أملوه في عبد العزيز بن السعود، فراحوا يتمنون له الظفر على الإمام ويعلقون آمالاً قومية ضخمة على احتلال اليمن وضمها إلى

---

(١) ٩/ ٦٣-٦٨.

المملكة العربية السعودية الناشئة حيث تتألف دولة عربية واحدة من خليج فارس - أو من جوار الخليج - إلى أواسط البحر الأحمر من أمة لاتخجل إذا عدت الأمم، ولا تطرق برأسها حياءً وذلاً إذا قيل إن إيران تعد حوالي العشرين مليوناً، ومصر تربو على الخمسة عشر، وتركيا على أكثر من هذا العدد، بل يكون عدد هذه الدولة العربية السعودية إذا ضمت اليمن العليا وعسير وتهامة مع الحجاز ونجد عشرة ملايين على أقل تقدير.

هذه هي أمنية السوريين الوطنيين في انتصار ابن السعود على خصمه، وهذا هو جواب المتسائلين عن سر هذا الاتجاه البادي اليوم نحو الحجاز، والذي تمثل أخيراً بسفر أبرز رجل في الكتلة الوطنية.

أما اليمانيون فليس لهم في نفوس السوريين غير ما لإخوانهم النجديين من عاطفة الرحم والقومية واللغة. وأما الإمام يحيى فلا يضمر له أحد العداء والبغضاء فهو من ملوك العرب وأسيادهم، ولكن ليس من الإنصاف أن يطلب إلى السوريين في سبيل توحيد الأمة العربية أن يضحوا بهذه الوحدة القومية إكراماً لبقاء كل بقعة من الجزيرة في حوزة أمير أو ملك، وكلهم عرب ويحكمون شعوباً عربية.

ولو أن العاطفة وحدها تجوز أن تتخذ مقياساً في ولاء العرب بعضهم لبعض أو في بغضائهم لكان أولى بهذه العاطفة أن تسيطر على نفس المغفور له جلالة الملك فيصل ساعة صافح ابن السعود خصم الهاشميين ومزيل دولتهم في الحجاز، ولكن فيصل تجرد عن عاطفته كهاشمي، وتقدم من ابن السعود كعربي يعمل في سبيل العرب. وفيصل من المؤمنين بقوله تعالى «والأرض يرثها عبادي الصالحون» بل إن فيصل نفسه يوم فاجعة ميسلون قال لفريق من الوطنيين الذين رافقوه إلى حيفا: إذا لم تنصفنا أوروبا وتعيد إلينا حقنا المغتصب وفاءً بعهدها الذي قطعته لنا في الحرب من استقلال بلادنا، فسنلجأ إلى ابن السعود.

لماذا لم تقبل الوطنية الإيطالية أن تكون في وطنها أكثر من دولة إيطالية واحدة؟ ولماذا وضع الألمان جميع ثمرات انتصارهم منذ نيف وستين سنة في سبيل الوحدة الألمانية؟ ولماذا لا يكون في فرنسا ملكان أو دولتان بل في بلغاريا أو صربيا ورومانيا، مع العلم بأن هذه الدول خصوصاً في أوروبا الشرقية تتألف من عناصر مختلفة في اللغة والعنصر والدين؟

لما ترفض الأمم المتمدنة القوية في أوروبا تجزئة شعوبها وتحارب في سبيل وحدتها، ولا يرسل الله للعرب رسولاً يوحدهم حرباً وقوة بعد أن رفضوا هذه الوحدة سلماً واتفاقاً؟!

نحسب أنه لايوجد من يقول إن وحدة الأمة المتجزئة تتم بغير الوسائل التي تمت بها وحدة الطليان والألمان، أي بالقوة، وبنهوض زعيم يجمع الأمة كرهاً في دولة واحدة، فالقلة ذل، والتجزئة ضعف، والقوة وحدها هي داؤهما.

إن تجزئة الأمة الواحدة إلى دويلات وعروش مرض من الأمراض الاجتماعية العامة، لا فرق في ذلك بين شرقي وغربي، لأن إقامة دول متعددة مظهر طبيعي للأنانية وحب الذات شأن الأحزاب السياسية التي تتعدد في بلد واحد أو قرية واحدة. وإذا كان زعماء هذه الأحزاب السياسية يرفضون الانضواء تحت لواء حزب واحد احتفاظاً بزعامتهم، فإن الملوك والأمراء وحتى الموظفين في تلك الدويلات يرفضون الانضواء تحت راية دولة واحدة احتفاظاً بعروشهم ومنافعهم ووظائفهم. وها نحن في سورية التي لم يمض على تجزئتها وتقسيمها إلى دويلات بضعة عشر عاماً، وقد كانت قبل ذلك ولاية واحدة خاضعة لسلطة عثمانية غريبة. ها نحن نسمع أن الذين يرفضون الوحدة إنما هم الموظفون، والذين تزدهر زعاماتهم المحلية في تلك التجزئة القاتلة، والذين تمتلئ جيوبهم من ذلك التقطيع الذي يحزّ في رقاب الشعب ليدفع لهم نفقات الوظائف من

دمه ودمعه. فإذا تمت الوحدة انهارت أحلامهم، وفقدوا زعاماتهم الإقطاعية أو الدينية أو السياسية.

وهكذا الحال في جزيرة العرب، فإن احتفاظ ملوكها وأمرائها بدولهم الصغيرة وشعوبهم الفقيرة، إنما هو مظهر من مظاهر الأنانية في نفوس الملوك والأمراء والموظفين. فإذا لم ينهض منهم زعيم مخلص يوحد هذه الدول، ويجعل شمل هذا الشعب العربي واحداً، فهيهات أن يتحدوا على مبايعة واحد منهم، ويتنازلوا عن عروشهم مهما كانت خاوية، بل إن بعضهم في سبيل الاحتفاظ بهذا العرش وما يتبعه من قصور وجوار وعبيد قد ألقى بنفسه في أحضان الحماية الأجنبية، وهو وملكه وعرشه وشعبه لا يؤلفون مائة وخمسين ألف نسمة. وهذه الكويت والبحرين ومسقط وعمان وحضرموت ولحج وبقية الأمارات، بل النواحي، خاضعة للنفوذ البريطاني في طول خليج فارس وبعض البحر الأحمر في سبيل أنانية شيوخها وسلاطينها وأمرائها. وأضخم سلطان فيها لا تتجاوز إعانته السنوية من الإنكليز خمسة آلاف روبية!

فهل من مصلحة العرب إذن أن تظل بلاد العرب مقسمة إلى قسمين: إمارة وسلطنة وناحية، ونحن في عصر تشكو الأمم الكبرى ذوات السبعين والثمانين مليوناً قلة العدد وتحض على الإكثار من النسل؟! وهل مفروض في أوروبا ودولها أن تتحد شعوبها ويكثر عددها وهي منيعة الجانب، ولايفرض على العرب - وهم مغزوون في ديارهم، مهاجمون من البر والبحر والجو - أن يتحدوا وأن ينهض واحد فيهم يقوض هذه العروش الخاوية ويدحرج تلك التيجان المغموسة بذلّ الحماية الأجنبية؟

لقد نهض واحد من العرب، فبدأ ببلاده، وقد كانت نجد من قبل مقسمة بين آل السعود والرشيد وعايض؛ فقضى على تلك التجزئة، وأنشأ سلطنة نجدية واحدة، ثم سار إلى الحجاز فضمها إلى هذه الوحدة ولم يكد يلبث في الحجاز حتى جاءت عسير

تطلب إدماجها في هذه المملكة . وها هوذا اليوم يحتل أكثر البلاد اليمانية ، ولم يبق عليه سوى احتلال اليمن العليا فإذا تمّ ذلك تألفت عندئذ دولة عربية واحدة من عشرة ملايين .

نحن لا نتمنى لابن السعود احتلال اليمن بغضاً بالإمام يحيى ، ولكننا نتمنى توحيد الجزيرة على يد أيّ رجل كان ، على شرط أن يكون جديراً بأن يضطلع بأعباء هذه الزعامة ويحمي وحدة العرب من المطامع الأجنبية . وقد أثبت ابن السعود بأنه وحده الجدير بهذه الرسالة القومية السامية ، وهو الذي يستطيع أن يؤديها بأمانة ، وأن يحكم بين الناس بالحق ، ويؤمن الأمن ، وينشر العدل . ونحسب أن كل شيء في الحجاز ونجد يتطلب الإصلاح والكمال ، إلا العدل والأمن ، فهما بشهادة الأجانب في الذروة من الكمال .

لقد عرف ابن السعود نفسه بأنه كفؤ لهذه الزعامة قبل أن يعرفه الناس ، والزعيم إذا لم يأخذ الزعامة أخذاً فلن يقدمها أحد إليه ، واسمعوا الريحاني يحدثكم عن معرفة ابن السعود قبل أن يعرفه أحد . اسمعوا فيلسوف الفريكة الذي كان له الفضل الأول بتعريف ابن السعود إلى العالمين الشرقي والغربي ، يحدثكم ليلة زاره في نجد في غرفة السلطان عبد العزيز . وكان لقبه يومئذ سلطاناً فقط . وقد دوّن الريحاني في مذكراته أن عبد العزيز بن السعود مستعد للاتفاق مع ملوك العرب وأمرائهم على إنشاء اتحاد عربي . أو على توحيد الجزيرة تحت لواء رجل واحد . وأنه يتنازل لهذا الرجل عن زعامة العرب ويبايعه . وقد عرض الأستاذ الريحاني على زائره الكبير ما كتب عنه ، فتناول قضيباً بيده ، وضرب على الأرض ، وقال :

– اسمع يا أستاذ . أنا أعلمك . . . اشطب القسم الثاني اشطب . . . نحن لا نريد أن تكتب عنا ماليس فينا . . . الرياسة فينا وزعامة العرب لنا ولا نقبلها في غيرنا . . . ترى الصحيح . . .

بمثل هذه الصراحة يعلن عبد العزيز منذ أحد عشر عاماً أنه لا يرى غيره أهلاً لزعامة العرب، ولن يقبل الرياسة في أحد إلا في نفسه. وها هي الأيام لا تكذب ابن السعود في معرفته نفسه ولا تكذب الذين تنبأوا له بهذا المستقبل.

ونحن السوريين المجزئين، والعرب المضطهدين المذلولين الذين خابت آمالهم في الحلفاء، وفي جميع ملوك العرب وأمرائها، نتوجه إلى الله بقلوبنا وعواطفنا أن يكتب خاتمة ذل العرب على يد ابن السعود، ويوحدهم تحت لوائه، وليبارك الله بهذه المدنية والتهذيب والسعادة لمن يطلبها في أوروبا وأميركا وتركيا.

كرروا معي أيها العرب في سورية وفلسطين والعراق وخليج فارس هذه الدعوة إلى الله، وأعيدوا معي مرة أخرى ومن غير أنخاب ولا كؤوس قول الشاعر:

إن تتهمي فتهامة وطني   أو تنجدي إن الهوى نجد

١٩٣٤/٥/٢٣

هوامش [1]

الماضي السوري العراقي الفيصلي. ولما يمر حول كامل على وفاة الرجل الذي أوجد ذلك الماضي:

يشير بذلك إلى انتقال مملكة فيصل من سورية إلى العراق. وكانت وفاة الملك فيصل سنة ١٩٣٣م.

تهامة: سهل ساحلي ضيّق غربي الجزيرة العربية. يقع بين جبال السراة والبحر الأحمر وتتخلله تضاريس بركانية من موانئه جدّة وينبع.

أبرز رجل في الكتلة الوطنية: هو جميل مردم.

ميسلون: هي معركة فاصلة وقعت يوم ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠م بين الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال غورو والجيش الوطني الناشئ بقيادة وزير الدفاع يوسف العظمة، فهزم الجيش السوري واستشهد العظمة. وميسلون اسم مكان في وادي بردى إلى الغرب من دمشق.

فيصل بن الحسين بن علي أو فيصل الأوّل (١٨٨٣-١٩٣٣): ولد بالطائف ودرس في الآستانة. انتخب نائباً في مجلس «المبعوثان» العثماني سنة ١٩١٣م، وانتسب إلى جمعية «العربية الفتاة» السرية قاد الجيش العربي في الثورة على الأتراك سنة ١٩١٦م ملك سورية في ٨/ ٣/ ١٩٢٠م حتى دخول الفرنسيين إثر معركة ميسلون في ٢٧/ ٧/ ١٩٢٠م. ملك العراق من سنة ١٩٢١ حتى وفاته في برن بسويسرا.

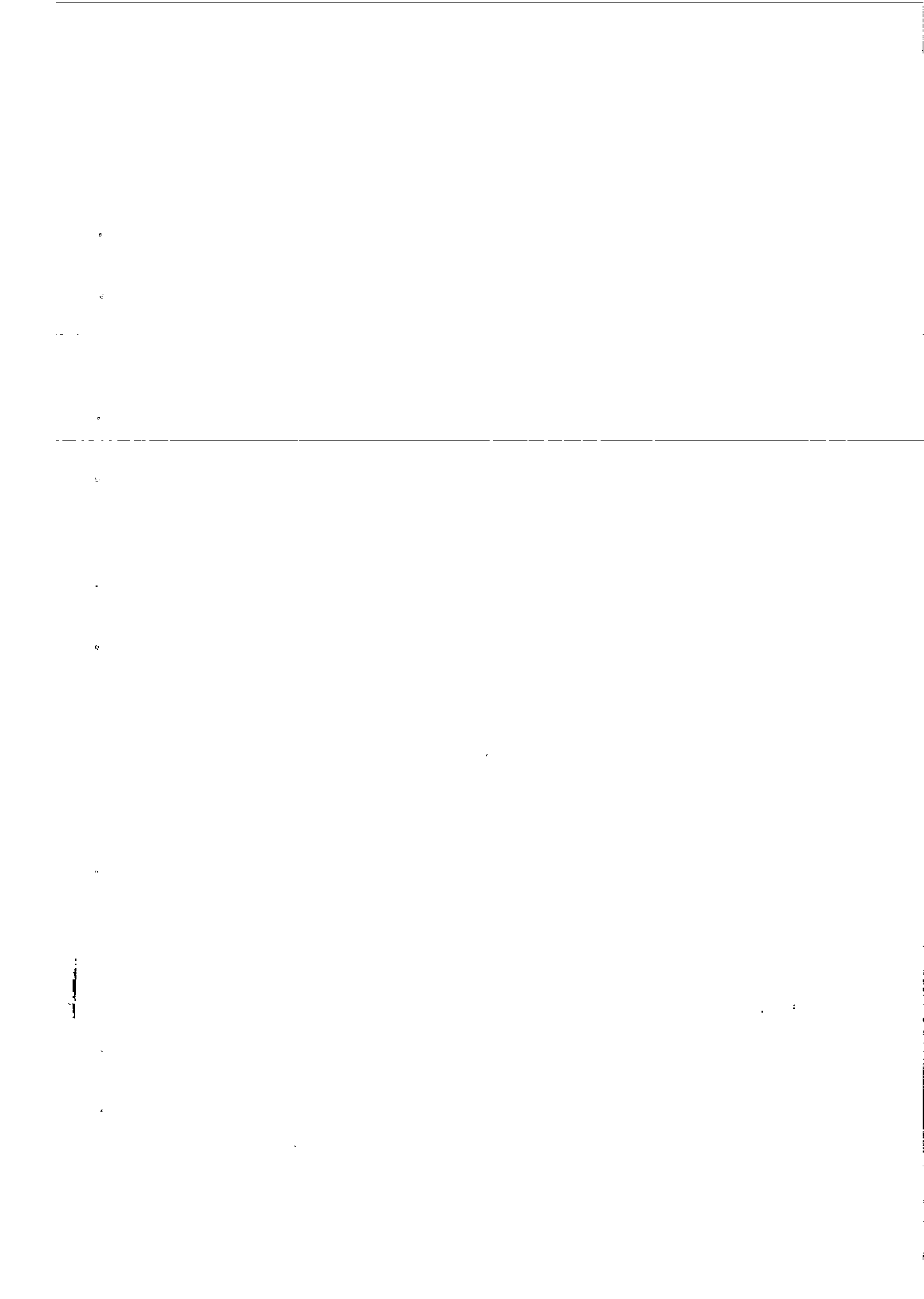
الكويت والبحرين ومسقط وعمان وحضرموت ولحج..: هي الأمارات أو المحميات السبع التي كانت خاضعة للنفوذ البريطاني. [هكذا في الأصل للمحرر..].

الرشيد أو ابن رشيد: أسرة عربية من قبيلة شمَّر، أسّست، في نجد سنة ١٨٣٥، إمارة عاصمتها حائل. أنهى حكمها عبد العزيز بن سعود سنة ١٩٢١.

* * *

---

(١) وضعها المحرر.



سيف الإسلام عبد الله[1]

رسول أول دولة عربية مستقلة

تستقبل دمشق عاصمة بلاد الشام ساعة صدور هذا العدد حضرة صاحب السمو الأمير عبد الله سيف الإسلام نجل حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى ملك اليمن وإمامها الشرعي . . تستقبل هذه المدينة العربية سيداً من سادات العرب الأوائل، رسول أول بلاد عربية تحررت من الحكم العثماني التركي وأعلنت سيادتها واستقلالها، بعد أن قاتلت في سبيل حريتها سنين طويلة، وتستقبله حفية به، فخورة بزيارته، مشيدة بما لوالده العظيم من مزايا غالية وصفات كريمة وعلم غزير وشجاعة نادرة، يزينها إيمان قوي وعزيمة ماضية وتقى وصلاح.

تستقبل دمشق أول رسول يماني يمثل أعرق دولة في الحضارة وأول مملكة انتزعت استقلالها قبل أن تفكر أية بلد بالاستقلال، وبالانسلاخ عن الدولة العثمانية. بل إن بلاد الشام إذ ترحب برسول اليمن فإنما ترحب بقطر عربي عزيز ضرب المثل الأعلى قبل غيره من بلاد العرب بالاعتماد على النفس، فانتزع استقلاله بسيوف أبنائه وبقيادة إمامه من غير أن يعتمد على أية معاونة أو مساعدة، أجنبية أو عربية. فكانت الدولة اليمانية أول دولة عربية أنشأت لها جيشاً وطنياً مدرباً على الأصول العسكرية النظامية، وقد عاشت في عزلتها الطويلة نيفاً وأربعين سنة، محتفظة باستقلالها، مطمئنة إلى سيادتها، لم تخدعها أحابيل السياسة، ولم تطمئن إلى وعودها الخلابة، فكانت عزلتها قوة لها في تدعيم استقلالها وحفظ كيانها. وها هي اليوم تخرج من هذه العزلة القديمة لا لتنضم إلى

---

(١) ٩/٣١٧-٣١٩ .

دول أجنبية ولا لتتعاقد مع حكومات أوروبية، ولا لتمنح امتيازات خاصة أو مراكز ممتازة لأية دولة من الدول، وإنما خرجت من تلك العزلة لتنضم إلى جامعة الدول العربية بعد أن تألفت هذه الجامعة وبعد أن استقلت دولها، فكان انضمام اليمن إلى ميثاق الجامعة قوة لها وتأييداً للفكرة العربية القومية التي أصبحت في هذه الظروف وحدة قومية يحسب حسابها إذ تمثل نيفاً وأربعين مليوناً، من العرب يمتدون من شاطئ الخليج إلى شاطئ عدن.

لقد مثل ضيف دمشق العظيم بلاد اليمن في مجلس الجامعة العربية، فكان مثال الوطني الصميم والسياسي الحاذق والعربي العريق. وليس عجيباً أن يكون مندوب اليمن وابن إمامها متصفاً بهذه الصفات الكريمة وهو الرجل الذي يرمز وجوده في جامعة الدول العربية إلى ملك قديم وحضارة عظيمة وعلم غزير ودين قويم، وإذا رحبت بلاد الشام به فإنما ترحب بجزء عزيز من بلاد العرب وبرسول كريم من أحب أمراء العرب إليها.

لم يشأ سيف الإسلام، أن يمثل بلاده في جامعة الدول العربية وينضم إلى هذه الدول وهو يجهل بلادها وأقطارها، فقام برحلة طويلة من مصر إلى فلسطين فشرق الأردن، فالعراق زائراً باحثاً مطلعاً، وها هو اليوم يصل إلى دمشق بعد أن مر بأكثر مدن سورية فيجمع إلى وجوده في الجامعة خبرته ببلاد هذه الجامعة. ولا ريب أن زيارة سيف الإسلام لهذه البلاد تعتبر بادرة من أبرك بوادر الإخاء والتضامن بين العرب جميعاً. فنحن نرحب به ونسجل اغتباطنا بهذه الزيارة التاريخية التي نرجو أن تكون وسيلة من وسائل إنشاء العلاقات السياسية والدبلوماسية بين بلاد الشام وبلاد اليمن.

قد يكون من حسن حظ هذه البلاد أن كثيراً من أبنائها يعرفون بلاد اليمن، بل إن فريقاً منهم عمل في حكومتها وفي جيشها، فمنهم العسكريون والزراعيون الذين

استدعاهم جلالة إمام اليمن، فنعموا بعطفه ورعايته، وعادوا إلى بلادهم يحملون لجلالته عاطفة الإعجاب والامتنان والتقدير، بل إن رجالاً من هؤلاء كان لهم شرف الاتصال بضيف سورية صاحب السمو سيف الإسلام عبد الله [1] حيث عملوا تحت رئاسته، وانتفعوا بعلمه وإرشاده وخبرته. فإذا جاء اليوم إلى دمشق فإنما يأتي إلى بلد يجد له فيه أهلاً وأصدقاء ومعجبين.

ودمشق التي كانت وما برحت مصدر الفكرة العربية، وموطن المجاهدين في سبيلها والمستشهدين من أجلها، ترحب مغتبطة فخورة بأكرم رسول وبابن أعرق إمام حمل راية الجهاد في سبيل الاستقلال وفي سبيل العرب.

١٩٤٥/١٢/ ٧

(١) هو سيف الإسلام عبد الله بن الإمام يحيى حميد الدين: (١٩٠٧ - ١٩٥٥)، كان أحد كبار أنجال الإمام يحيى العشرة، نصب وزيراً للمعارف ثم وزيراً للخارجية في أواخر عهد والده وبداية حكم أخيه الإمام أحمد، حتى كان عام: ١٩٥٥م تورط مع أخيه العباس في محاولة انقلاب انتهت بمقتلهما مع آخرين.

(من الحيـــــاة)
أيام زمان، السعودية واليمن[1]

مايربط بين السعودية واليمن أكبر بكثير وأعمق من أن يمس. والحمد لله الذي وصلنا إلى يوم اتفق البلدان الشقيقان الجاران وأحبطا خطط الأعداء ودسائس المغرضين. وما دمنا في حديث مذكرة «التفاهم» بين البلدين والأصداء الطيبة لها على مستوى العالم العربي كله، أعود قليلاً إلى أوراق «أيام زمان» لأرصد للقراء خبراً في عدد صحيفة «الفيحاء» الصادر في حزيران (يونيو) ١٩٢٧م يبدو وكأنه كتب اليوم بعنوان «بين مكة وصنعاء» جاء فيه مايلي وبالحرف الواحد:

«في أخبار هذا الأسبوع نبأ بسيط في وضعه، هام في مغزاه، يدل على تطور جدي جديد في سير السياسة العربية. وذلك الخبر هو إرسال جلالة الملك ابن السعود (المغفور له الملك عبد العزيز) وفداً إلى جلالة الإمام يعمل على التفاهم بين العاهلين العربيين الجليلين على مشكلة الحدود.

ومن المؤكد أنه ليس بين جلالة الإمام وجلالة الملك ابن السعود خلافات يستحيل حلها سياسياً: والاتفاق ممكن خصوصاً إذا أظهر الفريقان رغبة صادقة في الاتفاق.

وقد كنا نتوقع منذ زمن بعيد أن يحين الوقت الذي يسعى فيه العاهلان العربيان للتفاهم حرصاً على الجزيرة من الأجنبي. والظاهر أن الوقت قد حان الآن للاتفاق.

---

(١) الجمعة ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٩٥ الموافق ٢٨ ذو القعدة ١٤١٥هـ/ العدد ١١٧٥٥، بقلم الأستاذ عرفان نظام الدين.

نعم، إن الاتفاق بين نجد والحجاز واليمن أصبح ضرورياً الآن أكثر مما كان في أي وقت آخر، فإن السياسة الأوروبية قد تفرغت في الأيام الأخيرة للاشتغال بأمر الجزيرة، وذلك خطر أكيد عليها لا يرده إلا اتحاد العاهلين واتفاقهما.

لقد عقد جلالة الإمام معاهدة مع إيطاليا، وعقد جلالة الملك ابن السعود معاهدة مع بريطانيا، وقد اطلعنا على المعاهدة الأولى فإذا هي لاتعترف لإيطاليا بغير الميزة في المعاملات التجارية وفي استخدام الفنيين من الإيطاليين.

وليس في هذه المعاهدة مايصح أن يكون باباً خفياً يتسرب منه الاستعمار إلى البلاد. أما المعاهدة بين جلالة الملك ابن السعود وبريطانيا العظمى فلا نعتقد أن فيها مثل ذلك الباب الخفي أيضاً، فكلتا المعاهدتين في وضعهما السياسي لايحولان دون اتفاق القوتين العظيمتين في جزيرة العرب، ولا يمنعانهما من الاتفاق معاً على حماية ذمار الأمة العربية والذب عن شرفها الأثيل ومجدها العتيق.

أجل، إن الأحقاد الشخصية أحقر من أن تعرض استقلال الجزيرة أو جزء منها للخطر، ولجلالة العاهلين العظيمين من بعد النظر والحكمة وحسن تصريف الأمور مايجعلهما يتناسيان كل شيء في سبيل قضية البلاد العامة، بل قضية هذه الأمة العربية بأسرها التي تتعرض لا محالة للفناء إذا وطئها منسم الاستعمار، ويالضيعة العرب والإسلام عند ذلك.

فالاتفاق بين العاهلين العظيمين إذن تقضي به القومية والدين، فضلاً عن أن الحالة السياسية تقضي به أيضاً. ونأمل أن نرى ذلك الاتفاق منشور اللواء في أقرب فرصة لنطمئن على مستقبل العرب والإسلام ». (انتهى النص).

وها نحن نردد مرة أخرى أصداء فرحة اتفاق البلدين الشقيقين والتبشير بفتح صفحة جديدة تقوم على الثقة والمحبة والتواصل والتعاون والتكامل والتوافق والتكافل.

(من الحيـــــاة)
أوراق زمان، بلاغ يمني قديم![1]

أشرت من قبل[2] إلى اهتمام الصحافة العربية الصادرة في مطلع القرن بأي شأن عربي، وتفاعل العرب من المحيط إلى الخليج مع كل مايهم أبناء أمتهم على عكس ماكان يشاع بأن الصحافة العربية كانت منغلقة على نفسها. وما دمنا في حديث اليمن بالأمس، أقتطف اليوم خبراً نشر في صدر الصفحة الأولى من صحيفة «الفيحاء» (٧ كانون الثاني - يناير- ١٩٢٦م) يتضمن رسالة من اليمن لصاحبها ورئيس تحريرها الصحافي الرائد المرحوم قاسم الهيماني حول تطبيق العدل وأحكام الشريعة على سكان البلاد كافة بلا استثناء. وقد أرسل الرسالة عامل لواء الحديدة السيد حسين عبد القادر ومعها نص «بلاغ عام وإعلام» من إمام اليمن يحيى حميد الدين هذا نصه:

«ليعلم كل فرد أن شرطنا على كل مقيم من تبعة الأجانب بأية بلدة من ممالكنا المقدسة المعمورة بالعدل والإنصاف والمساواة في الحقوق هو أن يكون في جميع معاملاته فيما له من الحقوق وعليه كرعيتنا سواء كانت الحقوق من المتعلقة بالأعراض أو الأموال أو الدماء أو النفوس، ومرجع الفصل في كل ذلك إلى محاكمنا الشرعية على موجب الأحكام الإسلامية، وإلى مانراه موافقاً للعدل والإنصاف والسياسة يجري ذلك على كل فرد من أي بلد كان ومن أي مملكة كان ومن أي ملة كان، فمن أراد البقاء في أي بلد ة من ممالكنا حاملاً شرطنا فعلى الرحب والسعة مع الأذن منا ومن يعرف من نفسه مايخالف

---

(١) السبت ٢٩ نيسان (إبريل) ١٩٩٥م الموافق ٢٩ ذي القعدة ١٤١٥هـ/ العدد ١١٧٥٦.

(٢) بقلم الأستاذ عرفان نظام الدين.

شرطنا هذا الحقي العدلي الإنصافي فقد أجلناه أسبوعاً كاملاً لارتحاله من ممالكنا، وبعد مضي الأسبوع يعد ممن حمل ورضي بشرطنا هذا.

بتاريخ ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥هـ».

وقالت الصحيفة تعليقاً على البلاغ: إن إمام اليمن «يريد أن يعامل الأجانب والوطنيين في المملكة معاملة واحدة، فلا يكون مرجع الأجنبي محكمة القنصلية كما كانت الحالة أيام الأتراك، ويكون مرجع الوطني محاكم البلاد. وقد سرنا من هذا البلاغ بوجه خاص إثباته ماذهبنا إليه في مقالاتنا عن اليمن من أن المعاهدة الإيطالية لم تقيد حرية جلالة الإمام ولم تتعرض إلى سيادته على بلاده، إذ لو كان فيها شيء من هذا لما أصدر جلالته مثل هذا البلاغ الذي يضع الأجانب كلهم تحت سلطة محاكم البلاد من غير شرط ولا قيد، وهو أمر لم تجسر على الإقدام عليه تركيا نفسها ذات الحول والطول.

عند هذا الحد من خبر نشرته صحيفة عربية العام ١٩٢٦ أتوقف لانتقل معكم إلى قضية أخرى من أوراق زمان وهي قضية «المحمل المصري في مكة المكرمة».

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

الفصل الثاني
في التراث والتاريخ والآثار

الموضوع	الصفحة

* * *

الموضوع	الصفحة

* * *

الفصل الرابع

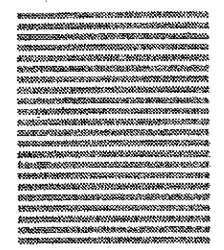
الموضوع	الصفحة

* * *

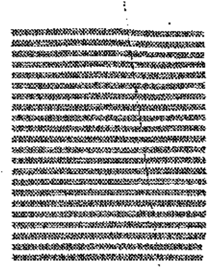
* * *

* *

*



صدر للمؤلف
عن دار الفكر بدمشق
ودار الفكر المعاصر ببيروت



- المؤلفات :

١ - مئة عام من تاريخ اليمن الحديث (دار الفكر، دمشق ١٩٨٤م، (ط٢) ١٩٨٨م).

٢ - المنار واليمن (١٣١٥ - ١٣٥٤هـ/ ١٨٩٨ - ١٩٣٥م)، دراسة ونصوص (دار الفكر - دمشق / ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

٣ - المؤرخون اليمنيون في العصر الحديث (بحث في التاريخ والمؤرخين) دار الفكر المعاصر - بيروت / دار الفكر - دمشق (١٩٨٨م).

٤ - الأمراء العبيد والمماليك في اليمن دار الفكر المعاصر - بيروت (١٩٨٩م).

٥ - الإمام الشوكاني رائد عصره (دراسة في فقهه وفكره) - دار الفكر المعاصر - بيروت/ دار الفكر دمشق ١٩٩٠م.

٦ - اليمن والغرب (١٥٧١-١٩٦٢م) (تعريب) ط٢/ ١٩٨٧م. .[توزيع].

ب - تحقيقات ودراسات :

٧ - تاريخ مدينة صنعاء للرازي (١٩٧٤م) دار الفكر - دمشق (ط٣) (٨٩

٨ - ديوان الشوكاني «أسلاك الجوهر» والحياة الفكرية والسياسية في عص
١٩٨٢م، ط٢ ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٩ - دَرّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة للإمامة الشوكاني (دار الفكر بدمشق ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٤م).

١٠ - في السلوك الإسلامي القومي (رسالتان لشيخ الإسلام الشوكاني - الابن) دار الفكر بدمشق (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

١١ - من تاريخ اليمن الحديث والمعاصر(١):

- فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء (السفر الثاني من تاريخ الحرازي - رياض الرياحين) (١٢٧٦-١٢٨٩هـ/ ١٨٥٩-١٨٧٢م.

١٢ - من تاريخ اليمن الحديث والمعاصر(٢):

- حوليّات النُّعمي التهاميّة - (١٢١٨-١٢٥٨هـ/ ١٨٠٠-١٨٤٢م) دار الفكر بدمشق، الحكمة اليمانية - صنعاء (١٩٨٧م).

١٣ - من تاريخ اليمن الحديث والمعاصر (٣):

- حوليّات العلاّمة الجرافي: (١٣٠٧-١٣١٦هـ/ ١٨٨٩-١٩٠٠م) دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).

١٤ - في صفة بلاد اليمن (عبر التاريخ) بالمشاركة مع الأستاذ مطهر الإرياني والدكتور يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر بيروت (١٩٩٠م).

* * *

الدكتور حسين بن عبد الله العمري

يمانيات في التاريخ والثقافة والسياسة (I)

دار الفكر

DAR EL-FIKR

Dar Al Fikr Al Mouaser

Prof. Dr. Ḥusayn Al-'Amrī

Yamāniyyāt
about
Histoy, Culture and Politics
(I)

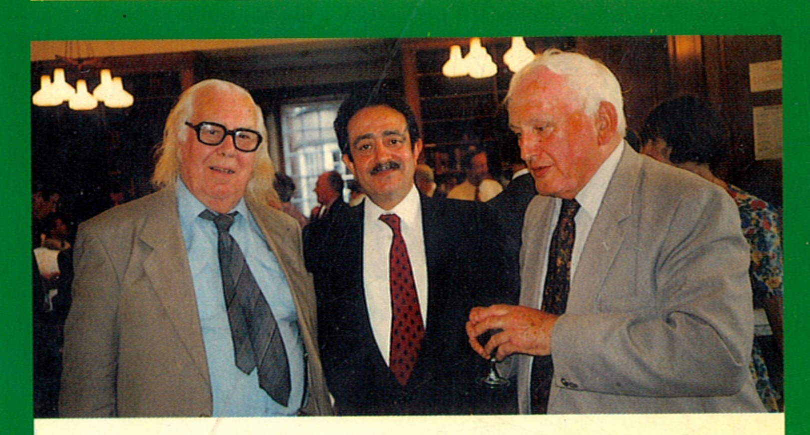
Dar Al Fikr Al Mouaser
3520 Forbes Ave., Suite A 259,
Pittsburgh, PA 15213, USA .
http://www.Fikr.com/
E-Mail Fikr @asca.com

يَمانيّات في التاريخ والثقافة والسياسة

هذه أبحاث ومقالات وأوراق محققة موثقة كتبها المؤلِّف في السنوات القليلة المنصرمة، بعضها نشر في دوريات. والبعض الآخر ننشره ههنا للمرة الأولى.

ويجمع بينها على تعددها أنها تبحث في مواضيع تدور حول محور واحد هو اليمن، ودوائرها تتماهى في الحضارة والثقافة العربية الإسلامية تاريخاً وفكراً، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

ورغم خصوصية كل قطر عربي وثراء تاريخه، لابد من التأكيد غير المحتاج إلى بيان أن ذلك ليس إلاّ كألوان الطيف في حزمة الشعاع الواحد.



المؤلف / الدكتور العمري/ يتوسط المستشرقين الكبيرين الراحلين البروفسور سارجنت والبروفسور بيستون في آخر لقاء لهم في ندوة الدراسات العربية صيف ١٩٩٢ في جامعة مانشستر، (توفي الأول في مايو ١٩٩٣ والآخر في سبتمبر ١٩٩٥)